المغامرة

بلاز سندرار

رواية

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

ترجمة: عادل أسعد الميري

t.me/qurssan

المُغامـــرة

بلاز سُندرار

القرصان

• Author : Plaz Sondrar
• Title: Adventurer
• Translated by: Adel Asaad Al Mairy
• First edition: 2018
• Cover Design by: Hossam Al Sawah
• Publishing Consultant: Sawsan Bashier
• General Manager: Mostafa Alsheikh

◆ المؤلف، بلاز سُندرار
◆ العنوان، المُغامرة
◆ ترجمة، عادل أسعد الميري
◆ الطبعة الأولى 2018
◆ تصميم الغلاف، حسام السواح
◆ مستشار النشر، سوسن بشير
◆ المدير العام، مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٧/٢٦٨٦٩
الترقيم الدولي: ISBN
978-977-765-144-8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

t.me/qurssan

بلاز سُندرار

المُغـامــرة

روايــة

ترجمة

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

سُندرار، بلاز.

بلاز سُندرار : المغامرة - ترجمة: عادل أسعد الميري

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

324 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 26869 / 2017

الترقيم الدولي 8 - 144 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - سُندرار، بلاز

t.me/qurssan

المحتويات

مقدّمة	٧
عبقرية أبي	١١
طُفولتي	٢٧
سن العشرين	٥٧
ليلة العيد	٨٣
معركة شوارع	١٠٧
بار (مزيّفي النقود)	١١٩
صديقي الروسي	١٣٣
الخيانة	١٥٥
العودة من البرازيل	١٦٩
نهر السين	١٩٥
مذكّرات مولع بالكتب	٢٢٣
فرنسا تحت الاحتلال	٢٤٣
آليس في بلاد الإنجليز	٢٦٥
موضوعات ملحقة	٢٧٩

t.me/qurssan

مقدّمة

«الشيء الأساسي الذي تجب معرفته عن بلاز سُندرار هو أنه رجل متعدّد المواهب، غزير الإنتاج من الكتب، ومن أنواع متعدّدة، شديدة الاختلاف فيما بينها، ورغم أنه دودة كتب، إلا أنه كذلك رجل اجتماعي بامتياز. إن متابعة مسيرته منذ أن تسلل من منزل والديه في سويسرا، وهو بالكاد في السابعة عشر من عمره، وطوال حوالي خمسين عامًا، أي تقريبا حتى نهاية الأربعينيات، كان خطّ رحلاته أصعب في التتبّع من خطّ أعظم رحّالة التاريخ، ماركوبولو أو ابن بطّوطة أو السندباد البحري أو جيمس كوك». هذا هو ما قاله هنري ميلر عن بلاز سُندرار، في الكتاب الذي أصدره بعنوان (الكتب في حياتي) من ترجمة أسامة منزلجي.

أما أنا؛ فقد تعرّفت على بلاز سُندرار لأول مرّة عندما قرأت روايته (الذهب)، التي تحكي قصّة البحث عن الذهب في غرب أمريكا في نهايات القرن التاسع عشر، التي درسناها في منهج العام الأول من الدراسات الجامعية، في المركز الثقافي الفرنسي

بالمنيرة، ثم نسيته تمامًا طوال ثلاثين عامًا، حتى وقع في يدي كتاب هنري ميلر، حيث وجدت فصلًا كاملًا عن سُندرار، في ٣٢ صفحة، جعلني أعيد اكتشافه. ثمّ تذكّرت أن لدي في مكتبتي بعض مؤلفاته، التي اخترت منها رواية **bourlinguer**، وهي كلمة من أصل ألماني، استعارتها اللغة الفرنسية، ويمكن ترجمتها بـالمغامرة، وهي تحمل كذلك عدّة معانٍ أخرى، منها التحايل على المواقف، واللعب بالبيضة والحجر.

الرواية تتكون من عدد من الفصول، يتحرّك فيها المؤلف بحرية تامة، جيئةً وذهابًا في الجغرافيا والتاريخ، ولا يربط نفسه فيها بالقيود التقليدية. وهي فصول تحكي عن مغامرات، قد تكون للمؤلف سُندرار نفسه، أو قد تكون لشخص آخر. إن هذا العمل يقع في منطقة وسط بين الرواية والاعترافات والمذكّرات والسيرة الذاتية. كثيرًا ما كان المؤلف يترك نفسه تتحدّث إلى نفسه في حوار داخلي حول بعض المعاني المجرّدة. بشكل عام هو يميل إلى النظام، خاصة في أثناء عرضه لنقاط مختلفة في موضوع واحد، إذ يكثر من استعمال أولًا وثانيًا وثالثًا، أو ١- و٢- و٣-. الحقيقة إن أحدًا لم يتمكن من أن يعرف بدقّة كل تفاصيل حياة سُندرار.

تدور أحداث هذه المغامرات بين عدد كبير من الأماكن الجغرافية المختلفة، بين أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية، بين إيطاليا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وروسيا وإيران

t.me/qurssan

والهند والبرازيل، في مراحل زمنية مختلفة من ١٨٩٦ الى ١٩٤٦. اختار المؤلف أن يرتّب أغلب الفصول جغرافيًّا، أي وفقًا لانتقالاته بين الأماكن، لذلك غالبًا ما يتعرّف القارئ على المكان الذي يحكي عنه المؤلف، في الصفحات الأولى من كل فصل، لكن في بعض الفصول يكون العنصر المسيطر هو تاريخ الحدث لا موقعه الجغرافي، والمؤلّف في هذه الحالة يلتزم بالإشارات الزمنية، ولذا لزم التنويه. وقد ترجمت هذا العمل ببعض التصرّف.

عادل أسعد الميري

أكتوبر ٢٠١٧

t.me/qurssan

عبقرية أبي

(١)

عندما كنت طفلًا، كنت أذهب مع إيلينا -صديقة طفولتي- إلى حديقة جنّتي المفقودة لنلعب هناك سويًّا، في السنوات السابقة على انتظامنا في التعليم، ثم بعد ذلك خلال مواسم الإجازات الصيفية من المدارس. ثم ماتت إيلينا بطلق ناري قبل غروب شمس يوم أحد، فانقطعتُ تمامًا عن الذهاب. كانت هذه الحديقة في البداية تقع ضمن نطاق أملاك والدها، وأعز أصدقاء أبي، وأهم شركائه في مجال المشروعات، السيّد أندريا ريكوردي، وهو أحد أهم أعيان نابولي، الذي حصل على ثروته الضخمة بفضل العمل كمصوّر رسمي للبلاط الملكي، وبالتالي كمصوّر رسمي لكل الشخصيّات الهامة في المدينة. بالإضافة طبعًا إلى المناسبات الاعتيادية التي كان يُدعى إليها، مثل حفلات الزفاف وحفلات معمودية الأطفال.

ريكوردي لم يصبح مليونيرًا إلا بفضل اللقطة التي صوّرها لخليج نابولي، تلك اللقطة البانورامية الشاملة، للمدينة وللبحر الأزرق الداكن،

وللسماء الزرقاء بدرجة لون مختلفة، حيث يظهر في الخلفية جبل بركان فيزوف، بألوانه الترابية الصخرية. التقطت الصورة في لحظة حرجة ثار فيها البركان، وتدفّقت في الصورة الحمم النارية. مع إضافات رتوش من المصوِّر الفنَّان باللون الأحمر، لزيادة التأثير الدرامي للصورة. تمّت طباعة هذه الصورة بملايين النسخ، على البطاقات البريدية السياحية (الكارت بوستال)، واشتراها ملايين السيَّاح عبر عشرات السنوات، وبالتالي أصبح صاحب هذه الصورة مليونيرًا.

كما كانت لريكوردي لقطة أخرى انتشرت بدرجة أقل، وهي لقطة لنابولي أثناء الليل، اجتمع فيها حدثان بمصادفة غريبة، هما حدث إطلاق قذائف مدفع، وحدث مرور قطار ساحلي. أولهما هو فعلًا حدث استثنائي، وكانت القذائف موجّهة نحو جبل بركان فيزوف، احتفالًا بواحدة من المناسبات القومية، التي لم أعد أتذكّرها، وتبدو في اللقطة الطلقة حمراء اللون في مقدّمة الصورة، على خلفيّة من دخان الطلقات السابقة عليها المتموّج بلون فاتح. أمّا ثانيهما فهو حدث معتاد وهو مرور قطار المساء، على شريط السكك الحديدية الساحلي، الذي تخرج من قاطرته، سحابة من الدخان شديدة السواد، لتختلط بدرجات متفاوتة مع لون دخان الطلقات الفاتح.

كانت نابولي بشوارعها وشواطئها والجزر الواقعة في خليجها، مكانًا مفضّلًا لقضاء شهر العسل، لكل شعوب أوروبا، بالإضافة الى اعتياد السيّاح من ألمانيا وإنجلترا -على وجه الخصوص- على الحضور إليها في إجازاتهم السنوية خلال فصل الشتاء، ولم تكن تنافسها في ذلك إلا

t.me/qurssan

منطقة الريفييرا الفرنسية. لذلك دارت لقطات ريكوردي في كل مكاتب البريد في العالم أجمع. كان لعمل ريكوردي كمصوّر للعائلة الملكية الفضل في حصوله على ترخيص رسمي من الجهات الملكية، بإمكانية طبع لقطاته الفنيّة في كروت بوستال، تباع في مكاتب السياحة الحكومية الرسمية، وهو ما حماه من إمكانية قيام مصوّرين آخرين منافسين له، بالتقاط صور شبيهة بصوره وتسويقها. في ذلك الوقت كانت المكاتب الحكومية الرسمية هي فقط المسموح لها بطبع البطاقات البريدية لأغراض سياحية.

ثم حدث تطوّر هام، إذ ظهرت رواية هنريك سينكيفيتش الملحمية المعروفة (إلى أين تذهب؟ Quo Vadis) التي صدرت سنة ١٨٩٦، وهي التي تعتبر الآن العودة الحقيقية لاستلهام التاريخ الروماني في أعمال أدبية وفنّية، بعد أن كانت إيطاليا قد تمزّقت بسبب الصراعات السياسية طوال القرن التاسع عشر. أصبحت مناظر هذه الرواية عند ظهورها مصدرًا كبيرًا لإلهام الفنّانين الإيطاليين، الذين استغلّوا أجواء الإمبراطورية الرومانية في القرون الميلادية الأولى، كمصدر فنّي يستوحون منه لقطاتهم.

هناك مثلًا منظر المصارعين الرومان في حلبات المصارعة مع الحيوانات المفترسة، أو منظر سباقات العجلات الحربية، أو منظر حفلات المجون المشهورة في القصور الرومانية، أو منظر لإلهات الفنون الست (الميوز)، قبل أن تصبح السينما هي الفن السابع. في زمن عصر النهضة الإيطالية، من القرن الرابع عشر وما تلاه، كانت هذه الموضوعات هي مصدر إلهام لفنّانين عظماء من أمثال مايكل أنجلو

ورافاييل، ولذلك كان مسموحًا باستعمالها وبإعادة استعمالها بواسطة الفنّانين الإيطاليين بشكل عام، لأنها من التراث القومي الذي يعتبر ملكية عامة للشعب الإيطالي.

هكذا كان ريكوردي قد صوّر هذه اللقطات بمعرفته، وبالتعاون مع فريق عمله، من لوحات فنّاني عصر النهضة، المعروضة في قصور ومتاحف إيطاليا، بتقنية عالية بالنظر الى الإمكانيات المتاحة في وقته، ونجح تمامًا في استغلالها تجاريًّا. بالإضافة طبعًا إلى لقطات أخرى من مناظر الآثار الرومانية المشهورة، مثل كوليسيوم روما، وأطلال مدينة بومبي، وواجهة كاتدرائية ميلانو، وبرج بيزا المائل، وكوبري دانتي المغطّى في فلورنسا، وقنوات فينيسيا (البندقية). هنا في هذه المرحلة من تاريخ نمو ثروة ريكوردي الأسطورية، أصبح أبي المخترع العظيم شريكًا له.

(٢)

كان أبي -منذ ما قبل مولدي سنة ١٨٨٦- صديقًا لريكوردي وجارًا له، لكنه أصبح شريكًا له بعد ذلك ببضع سنوات. ماذا كان أبي قد اخترع، وأصبحت له أهمية كبيرة في نموّ مشروعات ريكوردي التجارية الاستثمارية؟ كان أبي العبقري قد اخترع تقنية حديثة يمكن بها طبع الصور التي يلتقطها ريكوردي، على كل أنواع الخامات الأخرى، فأمكن مثلًا طبعها على الألواح الخشبية المثبّتة في قطع الموبيليا (الأثاث) المختلفة، مثل الأسرّة والدواليب وموائد الطعام، كما أمكن طبعها

t.me/qurssan

على المواد الخزفية، مثل أباريق الشاي وفناجين القهوة، فمهما صغرت مساحة السطح، أمكن استعماله في عرض المناظر، بالألوان الثلاثية أو الرباعية.

إلَّا أن ما جلب في الحقيقة على والدي ثروة ضخمة، كان هو اختراع تقنية، أمكن له بها طبع صور الوجوه الشخصية (البورتريه)، للرجال والنساء، بالألوان الطبيعية، على مساحات صغيرة جدًّا، مثل علب ساعات اليد خلف عقارب الساعة، وعلى مسطّحات محدودة المساحة جدًّا من قطع الحليّ الذهبية، التي تعلّق كقلادات حول رقاب النساء، ثم أصبحت تطبع كذلك حتى على اللوحات النحاسية الصغيرة، المعلّقة على مداخل البيوت تحمل أسماء أصحابها. أصبحت هذه البدعة هي الصرعة (الموضة) التي يتبعها الجميع. أراد ملايين الأشخاص في إيطاليا، بل في كل الدول الأوروبية، وضع صورهم الشخصية على قطع معدنية. حالة من الجنون الجمعي المؤقّت.

في الحقيقة يبدو لي أن إعجاب ريكوردي باختراعات أبي، منذ فترة الصداقة ثم الجيرة بينهما، هي التي دفعته إلى محاولة الدخول في شراكة معه، أي أن ريكوردي هو الذي سعى نحو أبي، وليس العكس. لم يكن أبي قليل الاكتراث بالمال، لكن مشكلته الحقيقية كانت سرعة الوقوع في الملل. لمْ يكن أبي قادرًا على البقاء مدّةً طويلةً مشغولًا بنفْس الموضوع العلمي، أو بنفْس المشروع التجاري، مهما كان هذا المشروع مربحًا ماديًّا. كان ذهنه دائمًا في حالة حركة مستمرة، بل قل في حالة غليان مستمر.

فبمجرّد أن تنجح إحدى شركاته، في طرح اختراعه الجديد في الأسواق، وفي جذب انتباه المستهلكين، أي بمجرّد أن يتأكّد من النجاح، يفكّر علي الفور في بيع حقوقه كمؤسّس لهذه الشركة الناجحة، لأي شخص آخر بأي ثمن يعرض عليه. ولأنه لم يكن يعرف كيف يتفاوض في السعر، إذ لم تكن هذه الخاصية من بين مواهبه العديدة، لذلك يبدو لي الآن أنه خسر الملايين. كان يبيع بسرعة، وهو لا يفكّر إلا في التفرّغ لإنشاء شركة جديدة، تقوم بإنتاج وتسويق اختراعه التالي الجديد، الذي قد يكون بعيدًا تمامًا عن المجال الذي نجح فيه مؤخّرًا.

كان هذا هو ما يحيّر أمي بشدّة. ثم تحوّلت الحيرة إلى قلق دائم من الوضع الذي يضعها فيه أبي، وضع الشكّ في ما يمكن أن يحدث لنا في مستقبل الأيّام. غموض شديد، وتنقّلات حادة مستمرّة، بين مساكن مختلفة، فمرّةً نسكن قصرًا واسعًا في ضواحي الأثرياء، وبعدها نسكن شقّةً ضيّقةً في حيّ شعبي. وهي تنقّلات طبقية حادة، تفصل بينها فترات زمنية وجيزة. ناهيك عن الانتقالات الجغرافية بين جنوب إيطاليا وشمالها، ثم إلى سويسرا، ومنها إلى مصر، ثم عودة الى إيطاليا، وبعدها استقرار نسبي في فرنسا، مع تنقّل والدي بين لندن وباريس.

على العكس من أمي، كانت هذه الانتقالات الطبقية والجغرافية الحادة، في زمن طفولتي ومراهقتي الأولى، من أعلى إلى أسفل، ثم من أسفل إلى أعلى، هي أكبر مصادر تسليتي وسعادتي. كان أبي يقول: «النقود لا يجب أن تبقى في الجيوب، بل هي عندما تأتي ينبغي لها أن تذهب على الفور». لهذا كنا أحيانًا نجد لدينا الكثير منها، وأحيانًا أخرى

t.me/qurssan

نجد لدينا القليل منها، وانتهى الأمر بأن أُصيبت أمي بنوع من الجنون، بسبب عقلية أبي هذه ومنطقه، أنقذت نفسها منه لاحقًا بالانفصال عن أبي. أما أنا؛ فقد تعلّمت من أبي العبقري درسًا عظيمًا، هو الحكمة وراء احتقار النقود.

كان أبي هو أوّل رجل في إيطاليا، يفكّر في أن ينقل إلى إيطاليا، الفكرة الأمريكية الخاصة بتوليد الكهرباء من مساقط المياه. لم يكن الأمريكي توماس ألفا إديسون قد اكتشف وجود الكهرباء في الطبيعة، إلا قبل مولدي بسنوات قليلة، ثم اخترع المصباح الكهربائي تقريبًا في سنة مولدي. بعد ذلك مباشرة تمَّ اختراع المولّدات الكهربائية، وشبكات الأسلاك الكهربائية، التي يمكنها أن تنقل التيّار الكهربائي إلى البيوت، وكذلك إلى القطارات الكهربائية.

كانت الإضاءة في الشوارع والبيوت في كل مدن أوروبا حتى سنة ١٨٩٠، تقوم على فكرة غاز الاشتعال، الذي يمرّ في مواسير، تحت الأرض أو فوقها، من مستودعات الغاز في الأحياء المختلفة، إلى أعمدة الكهرباء في الشوارع. في طفولتي كنا نرى الموظّف الرسمي المسئول عن إضاءة الشوارع في المدن، يدور في الشوارع في نهاية النهار، عند غروب الشمس، لإضاءة مصابيح الغاز واحدًا واحدًا، في كل الشوارع شارعًا شارعًا، ثم يعود مرة أخرى في الصباح الباكر عند شروق الشمس، لكي يطفئ هذه الأعمدة واحدًا واحدًا.

في طفولتي كان أبي قد اشترى من الحكومة الإيطالية حقّ استغلال مساقط المياه في جبال الألب، في إنشاء محطّة لتوليد الكهرباء. فيما

بعد، عندما أحسّ أبي أن مشروعه هذا أصبح ناجحًا، وقادرًا على الوقوف وحده على قدميه، فقد اهتمامه به، الاهتمام الذي كان يوليه إيّاه، عندما كان لا يزال مشروعًا وليدًا، وتخلّى عنه بثمن بخس لصالح جهات حكومية. أفكّر أحيانًا في أن أبي لم يكن يبحث عن النجاح، بل فقط يبحث عن الإثارة، التي يحصل عليها فقط من الإحساس بالخطر، عندما تكون مشروعاته في بداياتها معرّضة للفشل، إذ يبدو كأنه كان يستمتع بوجوده دائمًا وسط معاملات خطر مرتفعة، حيث إن هذا الوضع يرفع معدّلات الأدرينالين لديه.

(٢)

حيث إن نابولي هي المدينة التي أمضيتُ فيها الجزء الأكبر من طفولتي الغضّة، وهي نفسها المدينة التي تآكلت فيها أقمشة سراويلي الفاخرة، من طول الجلوس على دكك الدراسة، في المدرسة الأوليّة الدولية **Scuola Internazionale**، تحت إدارة ألمانية بقيادة الدكتور بلوس، إذن يحقّ لي الآن في الثانية والستّين من العمر، أن أقول: «فليذهب جميع ألمانيِّ العالم إلى الجحيم». أنا في الحقيقة بصفتي فرنسيًّا من أصول إيطالية سويسرية، وعشت حربين عالميتين بسبب حماقة الألمان، وفقدتُ أحد ذراعيَّ في الحرب الأولى، بسبب قذيفة ألمانية، وحوصرت أربع سنوات في الحرب الثانية، بسبب الاحتلال الألماني النازي لجنوب فرنسا، يحقّ لي بل يتحتّم عليّ أن ألعن الألمان.

في نابولي لم يكن هناك فقط ذلك الشعب الحقير البائس الذي

t.me/qurssan

يعيش في محيط الميناء، يعاني ويتعذّب من أجل البقاء على قيد الحياة، في مطابخ شياطين الرأسمالية الوثنية، بل كانت هناك أيضًا متاهات حواري معتمة لحيّ قديم، في ضواحي نابولي، حيث كانت توجد في زمن أقدم، منطقة منجم كبريت كان معروفًا باسم (فوميرو)، ثم عندما انتهى العمل في منجم الكبريت واستنفد أغراضه، تمّت تسويته بالأرض، وإعادة تخطيط الأرض وتقسيمها وبيعها، لتصبح مناطق بناء مساكن.

حتى الوقت الراهن وأنا أكتب هذا الكلام في سنة ١٩٤٧، لا يزال سكّان مساكن فوميرو، يشتكون من أن الأرض تحت منازلهم، تحدث لها رجفات وهزّات وانتفاضات عنيفة، كلما تعرّض بركان فيزوف للفوران، إذ يبدو أن هناك مسارات تحت أرضية تسلكها الحمم البركانية، التي تأخذ تفاعلاتها وقتًا طويلًا في التخمّر تحت الأرض. هذا يحدث منذ أزمنة قديمة جدًّا، أقدم من زمن ظهور الجنس البشري على سطح الكرة الأرضية. لا تزال روائح الكبريت تغمر نباتات الحدائق في ذلك الحيّ.

كذلك لا يزال ربابنة السفن القادمة إلى نابولي، يقاومون التيّارات البحرية التي تظهر في محيط دائرة خليج نابولي، التي يتسبّب فيها فوران الحمم البركانية، ويقاومون أن تنجرف سفنهم إلى قاع البحر. أنا لم أفهم هذه الظاهرة إلا بعد أن عملت بحّارًا. لذلك فبدلًا من أخذ خطوط إبحار مستقيمة مباشرة إلى نابولي، يضطرون إلى أخذ خطوط إبحار مائلة غير مباشرة، أو حتى متعرّجة، لأنهم كانوا قد أدركوا حسب خبراتهم الشخصية، وحسب خبرات غيرهم من الربابنة، أنها خطوط الإبحار الأكثر أمانًا، حتى لا يقعوا في أسر المسبك الهائل الفائر في عمق البحر،

الذي يديره (نبتون Neptun) إله البحر الشرير القاسي، الذي يرسل العواصف لتقلب السفن، وقد أصابته قرب نهاية حياته حُمّى، حوّلت مادة دماغه الهلامية إلى فطيرة تتغذّى عليها أسماك الأعماق.

كان أبي قد اشترى أرض (فوميرو) قطعةً واحدةً، ثم عندما سنحت الظروف وتمّ ادخال الخدمات البلدية إليها، من كهرباء ومياه نقيّة وصرف صحّي، بدأ في بيعها بالقطعة، وعندما وجد إقبالًا شديدًا من الزبائن، باع مشروعه هذا إلى شركة أخرى، حصلت هي على المكاسب الخرافية التي حقّقها هذا المشروع، وكان من الممكن أن يجنيها هو، لكنه باع المشروع فقط؛ لأنه كان قد فقد اهتمامه بالمشروع، لأنه لم يعد لديه نفس الإحساس بالمخاطرة، الذي كان يشعر به في البداية. وهو ما سبق أن أشرت إليه أعلاه، ولا أملّ من تكراره.

لم أعرف في ذلك الوقت كيف ولماذا فعل أبي هذا؟ إذ إن موضوع مشروع فوميرو هذا كان قد أصبح من الموضوعات الحسّاسة جدًّا، التي كان أبي يتجنّب الحديث فيها، عندما كنت أنا في مرحلة التساؤلات، في بداية شبابي الغضّ المبكّر. كان أبي الحليم طويل البال، يميل إلى فقد أعصابه، إذا ذكرت أمامه كلمة فوميرو. كان أبي إذنْ يمتلك هذا المشروع الناجح، الذي كان من الممكن أن يصبح به مليارديرًا، ثم باعه فجأةً إلى شخص آخر، ليصبح هذا الشخص الآخر هو الملياردير، أما أبي فقد انشغل بمشروعات أخرى.

لعلي كرّرتُ أو سأكرّر الحديث في هذا الموضوع، في أكثر من فصل في هذا الكتاب، لأنه كان المأساة التراجيدية العنيفة، التي لم تملّ

t.me/qurssan

والدتي أبدًا من تكرارها، على مسامعي طوال حياتها، كأنها أسطوانة مسجّل عليها نفْس الموضوع بنفْس المفردات، كلما عدت لزيارتها، بعد واحدة من رحلاتي الطويلة حول العالم. الآن وأنا أكتب هذا الكلام، وقد أصبحت في العقد السابع، أدرك شيئين هامين إدراكًا أكيدًا، أولهما هو أن كراهية والدي للثراء انتقلت إليَّ بالكامل، فأنا أحتقر الأموال، وثانيهما هو أن حبّ والدي للمغامرة هو كذلك طبع واضح في كل من شخص والدي وشخصي.

(٤)

في فوميرو سكنّا قصرًا كبيرًا، تحيط به حديقة شاسعة، وينقسم إلى جناحين، أحدهما لأبي والآخر لريكوردي، وهذا هو الدليل الأكيد على قوّة الصداقة بينهما. كان ريكوردي وزوجته وبناته الأربع ضيوفًا شبه دائمين عندنا على مائدتي الغذاء والعشاء. هنا اكتشفت أمي -سليلة الحسب والنسب وابنة الأرستقراطية المعذّبة- أن الرجل المدعو ريكوردي، ينتمي أخلاقيًّا إلى البيئات الشعبية، فلم تعد ترحّب به كما ينبغي. في الحقيقة لم يكن ريكوردي يقيم وزنًا لقواعد الذوق العام، المتبّعة في صالونات الطبقة الراقية، فكان كثيرًا ما يتجشّأ بصوت مرتفع أثناء الأكل، وهو ما تحمّلته أمي بصعوبة شديدة في البداية، ثم لم تعد تحتمله.

في المقابل كنت أنا الطفل، أجد أن ريكوردي هو رجل شديد المرح، يلقي النكات بصوت مرتفع، على الطريقة الإيطالية، حين نجتمع

نحن الأحد عشر شخصًا، الرجلان والمرأتان وبنات ريكوردي الأربع، وأنا وأخي وأختي، على الغذاء حول المائدة الكبيرة، في غرفة الطعام الشاسعة الأرجاء. كان ما يعجبني في نكاته، هو سخريته الحادة من الطبقة الحاكمة، فبقدر كثرة تردّده على البلاط الملكي، والشخصيات العظيمة التي يقابلها هناك، كان لا يعدم أن يعثر في تفاصيل التقاط الصور التذكارية لكل هؤلاء، على ما يمكنه أن يثير ضحكاتنا جميعًا باستثناء أمي. أعتقد الآن أن ريكوردي كانت لديه قدرات تمثيلية لم تستغل، إذ كان قادرًا على تقليد كل هذه الشخصيات، بتعبيراتها الجسدية وبنبرات أصواتها.

كنت أحبّ ريكوردي حتى ظهر اثنان لا يحبّانه، أولهما أمي. ففي اللحظة التي أدركت فيها، أنه يتسبّب لأمي في إرهاق عصبي شديد، بدأت أعيد تقييم موقفي منه، ولم أعد متحمّسًا لنكاته، التي استمر فيها مع ذلك إلى نهاية سنوات هذه الجيرة العجيبة، لأن تشجيع الآخرين له كان يجعله يستمرّ. أمّا ثانيهما فهي ابنته إيلينا، لأنه بسبب غياب العقلية التربوية تمامًا عن ذهنه، وغياب ثقافة علم نفْس الأطفال التي لن تظهر إلا بعد ذلك بسنوات طويلة، كان ريكوردي دائمًا ما يكرّر أمامنا أنه كان يفضّل لو أن الله قد منحه ولدًا ذكرًا، بدلًا من هذه الابنة الرابعة.

هكذا أصبحت أنا وإيلينا نتشارك في عاطفة واحدة، هي مشاعر الكراهية المتجّهة نحو ريكوردي، فزادت قوة العلاقة بيننا. رغم أن هذه الطريقة في التفكير -أي تفضيل الأطفال من الأولاد الذكور، على الأطفال من البنات- كانت هي طريقة التفكير المعتادة في إيطاليا، حتى

t.me/qurssan

أن الملك في ذلك الوقت -وهو فيكتور عمّانويل الثاني- لم يكن يحتفل بمولد بناته المتتاليات، ولم يقم احتفالًا كبيرًا في كل إيطاليا على المستوى القومي، إلا بعد أن وصل أخيرًا إلى الوجود ابنه الذكر الوحيد، الذي أصبح على الفور وريث كرسي العرش.

كان الأطفال السبعة، الذين كنت أنا أصغرهم سنًّا، يعيشون في هذا القصر في سعادة غامرة وحماس متجدّد، خاصة خلال شهور الإجازات الصيفية، بفضل الحديقة الشاسعة، وما بها من نباتات وحيوانات وطيور وحشرات، عالم كامل من الاكتشافات، رغم التحذيرات المستمرّة من الوالدتين والمربّيتين والخدم، من ضرورة البقاء داخل أسوار الحديقة، وعدم تخطّي بوّابة الحديقة، خوفًا من مسألة كانت منتشرةً نوعًا ما في إيطاليا، في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، ولا أعرف السبب في ذلك، وهي مسألة قيام عصابات من المجرمين بخطف أطفال العائلات الثرية، وإعادتهم إليها فقط مقابل فدية كبيرة من المال.

(٥)

كان والدي يميل دائمًا إلى تدليلي، باعتباري آخر العنقود، بحيث إنني لم أكن أطلب أي شيء، إلا وأحضره لي. ذات يوم طلبتُ كلبًا، فجاء لي أبي في اليوم التالي بكلب صغير بلونين أصفر وأسود، سألت والدي عن اسمه، فقال: ليون. وهي تعني أسد، لذلك فقد أصبحت أشعر -في وجود الأسد إلى جواري- بأنني أكثر قوّةً مما كنت سابقًا، وأنه يمكنني بعد ذلك ألا أخشى أي شخص. لذلك فعندما كنت أذهب

للبحث عن القواقع، عند حواف سور الحديقة، لم أعد أخشى مقابلة إرنست، حارس البوّابة الجَهِم.

بالإضافة إلى جرأتي الآن ومعي ليون على الخروج إلى الشارع أمام البوّابة، عند مجيء باسكوا بائع اللبن إلينا في الفترة الصباحية، مصطحبًا معه مصدر رزقه، بقرته الحلوب واسمها كارولينا، وبعض العنزات التي كان يطلق عليها هي الأخرى أسماء نساء. كان يدور على بيوت الحيّ والأحياء المجاورة، لبيع منتجاته من الألبان، فهناك من الزبائن من يقدر على ثمن لبن البقرة، وهناك من لا يقدر إلا على ثمن لبن العنزات. يحلب بقرته أمام البوّابة، ويسلّمنا اللبن طازجًا.

غالبًا كان بيبينو **Pipino** ابن باسكوا يأتي معه، في جولته الصباحية تلك، خاصةً في غير الأيام التي كان بيبينو يذهب فيها إلى المدرسة، قبل أن ينقطع عن التعليم. كان بيبينو تقريبًا من نفْس سنِّي. وقد حاولتُ على الفور منذ أول مرة قابلته فيها، أن نصبح صديقين، ولم أكن أهدف في البداية من هذه الصداقة الوليدة، إلا تحقيق هدف وحيد هو كلّ ما كنت أفكّر فيه، وهو أن يدعني أجلس ولو مرّةً واحدةً إلى جواره على ظهر البقرة، كنت أتمنّى أن يتحقّق هذا ولو مرّةً واحدةً. أما أن أحلم بأن أتنقّل معهما أثناء تنقّله مع والده، بين بوّابات حدائق القصور ومداخل المنازل، فهذا كان فوق الخيال.

كنت أحسد بيبينو بشدّة على حظّه الكبير، الذي جعله ابنًا لبائع لبن، ليجلس هكذا على ظهر البقرة، وأتمنّى لو كنت مكانه ابنًا لبائع لبن أنا الآخر، أو على الأقل أن تسمح لي أمّي بالذهاب معهما يومًا ما، لأجلس

t.me/qurssan

ولو لوقت قصير فوق ظهر البقرة. عندما أصبحنا صديقين حميمين لاحقًا، لم أفهم أبدًا كيف قال لي إنه كان في ذلك الوقت يحسدني على ما أنا فيه من نعيم، كما قال. لم أفهم إلا لاحقًا جدًّا الفروق الطبقية التي كانت بيننا. أعتقد الآن أن هذه الظاهرة كثيرة الحدوث، وهي أن يحسد أبناء الفقراء أبناء الأغنياء على الحياة المرفّهة، في حين يحسد أبناء الأغنياء أبناء الفقراء على حرّية الحركة.

طلبت ذلك فعلًا من أمّي. جاءتني مرّةً واحدةً الشجاعة الكافية، في وجود (ليون) إلى جواري، الذي كان هو الآخر على ما يبدو يخشى أمّي. جاءتني إذنْ لحظة من الشجاعة، تمكنّت فيها أن أطلب من أمي المخيفة الرهيبة، أن تسمح لي بالذهاب مع بيبينو السوقي البائس، فوق ظهر البقرة. لكن هيهات أن توافق. كيف كان من الممكن لي أن أعتقد، أن هذه الأم المتفاخرة بأصولها الأرستقراطية المعذّبة، تسمح لي بالاختلاط بطبقة الغوغاء من السوقة والسابلة ورعّاع الطريق، وأن أتنقّل مع بيبينو وأبيه بين بوّابات القصور والمنازل، فيرى الآخرون كيف أن ابن سليلة الحسب والنسب، يخالط الغوغاء من السوقة والسابلة ورعاع الطريق. يا لها من فضيحة!

هذا هو بالتحديد أهم أسباب مغادرتي منزل أمي، فجأةً في السابعة عشر من عمري، حين قرّرت فجأةً أنني أريد أن أبقى في الشوارع خلال ما تبقّى لي من حياتي، أن أقضي بقيّة عمري كلّه في الشوارع، مع السوقة والسابلة ورعاع الطريق. مع الناس الحقيقيين. فيما بعد أحضر لي أبي العبقري بقرةً، ظللت أركب فوق ظهرها في الحديقة، خلال بضعة

أسابيع، حتى حدث ذات يوم أن نسيت الموضوع برمّته. كما لو أنه لم تعد هناك بقرة تحت تصرّفي في الحديقة. كان هذا هو أحد أوائل الأمثلة في حياتي، على معنى كلمة نزوة. مثال على نزوات الأطفال سريعة الزوال.

مات ليون مدهوسًا تحت عجلات ترام، لم تكن قد وصلته الكهرباء بعد، وإنما كانت عربات شوارع تجرّها البغال، فحزنت عليه حزنًا شديدًا يليق بطفل في السادسة، لم يعتد بعد على مشاعر الفقد، خصوصًا وأنني كنت شاهدًا على هذا المنظر البشع، للكلب وقد دهست العجلات الحديدية الثقيلة طرفيه الخلفيين، إلا أنه قام من سقطته، وحاول بطرفيه الأماميين أن يستمر في عبور الطريق، للوصول إلى الرصيف. عندما وصلت إلى مكانه كانت عيناه تسألانني: «ماذا حدث؟». لم يفهم الكلب ماذا حدث له. قمت بالتربيت على رأسه، فأخرج لسانه للمرّة الأخيرة في حياته ولعق يدي، ثم أصابته على الفور تشنّجات عضلية، خرجت بعدها كتلة دمّ من فمه، واستقرّ جثّةً هامدةً.

t.me/qurssan

طُفولتي

(١)

كانت فكرة الخوف من الاختطاف هي في الأصل من أعمال القريحة الخصبة لمربيتنا الإنجليزية، ميس شارب **Sharp**، واسمها هو في حدّ ذاته دليل على طباعها، إذ يعني الحادة دائمة الاحتداد، التي كانت تعيش في خوف دائم من عصابات المافيا، وعصابات اليد السوداء (مانو نيجرو **Mano Negro**) النابوليتانية. كانت ميس شارب ذات ميول أدبية، لأنها كانت تتابع قراءة أخبار هذه العصابات، التي تظهر في صحف نابولي، وتترجمها من الإيطالية التي أتقنتها بالتدريج، إلى لغتها الأم الإنجليزية، ثم ترسلها بالبريد العادي إلى عدد من الصحف البريطانية، ومن بينها جريدة التايمز اللندنية **The Times**، فتنشرها لها، فتأتي بها إلينا أنا وأبي وأمي فخورة بعملها.

لكني رغم صغر سنّي لاحظت أنها تختفي من الحديقة، بمجرّد ظهور أي ذكر في الحديقة، حتى لو كان مجرّد صبيّ في بداية مراهقته، يعمل لدى البقّال المجاور، وجاء فقط لتسليم البقالة المشتراة. هذه

المربّية الغبيّة، رغم مواهبها الأدبية، التي ساعدتني في سرعة إتقان اللغة الإنجليزية، كانت رغم ذلك أكبر خطأ تربوي ارتكبه والداي في حقّ أطفالهما. فلأنها لم تتزوّج أبدًا وظلّت عانسًا (وغالبًا ظلّت عذراء) حتى نهاية حياتها.

كانت شخصية عِصابية سيكوباتية مريضة، تعاني دائمًا طول الوقت، من أعراض الصداع النصفي، ومن أعراض الوساوس القهرية. كما كانت مشهورة بالأحكام المسبّقة، التي تطلقها بشكل عشوائي تمامًا، على جميع الموجودين في محيطها، لإدانة جميع المحيطين بها. كنت ألاحظ أنّها ترتجف لأهون سبب، وأنّها تعيش في خوف دائم من المجهول، ومن الاستغناء عنها بين يوم وليلة، وهو ما حدث فعلًا فيما بعد.

كان السبب الأصلي في إحضار هذه المربية عندنا، هو داء التفاخر الطبقي (snobbism) الذي كان قد أصاب أمي، بعد أن كان أبي قد حقّق قدرًا من الثراء، فقرّرت أمي أن أفضل ما يمكن فعله، لاستعراض هذا الثراء على المجتمع النابوليتاني الواقع في براثن حبّ التظاهر، هو إحضار مربّية إنجليزية للعناية بالأطفال الثلاثة، وهو ما كان تقليدًا رائجًا لدى العائلات الإيطالية محدثة الثراء، ودليلًا أكيدًا على حجم الثراء الذي حقّقه أرباب هذه العائلات، في نهايات القرن التاسع عشر، وقد بقت ميس شارب لدينا سنوات عديدة. الآن وأنا في الثانية والستّين أشعر بعطف شديد عليها، وأتمنى لو كنت قادرًا على مساعدتها لو أنها لا تزال على قيد الحياة. لا شكّ في أنها قد تعدّت الآن سن الثمانين.

t.me/qurssan

(٢)

أما السيّدة الأخرى التي يذكّرني قصر فوميرو بها فهي عازفة البيانو. ففي حديقة القصر المترامية الأطراف، استمعنا أنا وإيلينا ذات يوم إلى صوت عزف بيانو، تتبعناه حتى اكتشفنا -في أحد أركان الحديقة- منزلًا صغيرًا بسقف خشبي، أقرب إلى كوخ صغير، بباب واحد ونافذة واحدة، كانت تنبعث منه أصوات آلة البيانو، في عزف ألحان بدت لي أقرب إلى الحزن، وأحيانًا إلى الغضب.

ثم عندما يتوقّف العزف تخرج العازفة إلى الحديقة تدخّن السجائر، وهي ترتدي دائمًا نفس الثوب الأبيض الطويل. كنا نختفي أنا وإيلينا خلف الأشجار، حتى نتمكن من الاستمرار في مراقبتها. عندما كانت تخرج من المنزل، كانت تتحرّك ببطءٍ، ربّما بسبب سنّها، أو بسبب مرض في مفاصل ساقيها، ثم عندما تقف لم تكن تنظر إلى الأشجار حولها، لتبحث مثلًا عن هذين الطفلين أنا وإيلينا، بل كانت تنظر إلى السماء التي تبدو لها من بين أفرع الأشجار، أو تنظر إلى الفراغ، لأنها لم تكن تدير رأسها في أي اتجاه.

لفتت إيلينا انتباهي ذات مرّة إلى أن السيّدة العجوز لم تكن تتحكّم في نفسها فيما يتعلّق بالتبوّل، فقد ظهرت على ملابسها وهي واقفة شاخصة إلى السماء، أو إلى لا مكان، بقعة من البلل، ثم بعد دخولها إلى

الكوخ، لاحظنا وجود بقعة أخرى من البلل، على الأرض الترابية حيث كانت واقفة. علّقت إيلينا قائلة إن الرجال والحيوانات يتبوّلون واقفين، في حين تحتاج النساء إلى القرفصة للتبوّل، ثم قالت: «قد تكون هذه السيّدة في الحقيقة رجلًا».

قال لنا الجنايني العجوز بنيامين -الذي كان يزرع بعض الخضروات لاستهلاكه الشخصي بالقرب من الكوخ- إنها قد تعدّت الستّين، وإنه يقدّم لها أحيانًا بعض الخضراوات والفواكه اللازمة لطعامها من إنتاج الحديقة، وإنها تعيش وحدها في هذا الكوخ منذ سنوات طويلة، لم يحضر أحد لزيارتها فيه أبدًا. أضاف ذات يوم أنها مضطربة العقل، وهي عبارة لم نفهمها تمامًا في حينها، إلا أنه حتى يشرح لنا ما يقصده، أضاف أنها أحيانًا تصرخ بصوت مرتفع، أو تضحك بصوت مرتفع، دون أن يكون هناك سبب واضح لصراخها أو لضحكها. لم أفهم أبدًا ما حدث لها، أو ما هو السبب في حالتها العقلية المضطربة. أشاع بعض الخدم أنها ليست من عالم البشر، بل من عالم الجنّ والأرواح، لكنها ليست شرّيرة؛ إذ إنها لا تتعمّد أن تؤذي أحدًا.

ذات يوم قال الجنايني إنها قد تكون الصاحبة الأصلية لهذا القصر، وقد باعته إلى شخص اشترطت عليه أن تظلّ تعيش في كوخ الحديقة، وأن هذا الشخص هو من باعه لاحقًا إلى أبي، وقد اشترط عليه نفْس الشيء، أي بقاء السيدة عازفة البيانو في كوخ الحديقة. لم أكن موجودًا عندما باع والدي هذا القصر وانتقل إلى لندن، وبالتالي لم أعرف ماذا تمّ بخصوص هذه السيّدة عازفة البيانو.

t.me/qurssan

أنا شخصيًّا أعتقد الآن -عندما أستعيد صورتها في ذاكرتي- أنها كانت في قوامها وملامحها وطباعها وثيابها أقرب إلى طابع نساء جنوب البحر المتوسّط، أو إلى نساء جنوب إسبانيا بملامحهنّ العربية، أو إلى نساء الغجر المتنقّلات بين ربوع شرق أوروبا، فشعرها الذي غزاه الشيب، كان في الأصل شعرًا أسود، كما أن بشرتها كانت تميل إلى اللون الأسمر. لكنها الملابس بشكل خاص التي جعلتني أعتقد أنها كانت غجرية، فالثوب الأبيض الذي كانت تظهر غالبًا به، كانت به كرانيش متعدّدة الألوان، تحيط بالأكمام وبالذيل، ثم عند التدقيق أدركت أن بالثوب ثنيات طولية، كما أنها كانت تربط رأسها بمنديل أحمر ينزلق دائمًا عن شعرها.

(٣)

مع ريكوردي ذهبنا كلنا إلى القصر الملكي، حيث كان الملك يحتفل بمولد ابنه الأمير الرضيع وليّ العهد. في ذلك اليوم دخل إلى القصر الملكي موكب طويل، يتكوّن من الآلاف من البشر، إذ كانت الدعوات قد وجّهت إلى الشعب الإيطالي كله، من طبقات وطوائف مختلفة من المجتمع الإيطالي، بينها أفراد من طبقة أمراء ونبلاء الأسرة الملكية، وشخصيّات أجنبية ذات حيثية من السلك الدبلوماسي، ومغنّيات الأوبرا في مسرح سان كارلو، ومسئولي تموين البلاط الملكي بالأغذية والمشروبات، ومصوّر الملك الخصوصي مسيو ريكوردي. سار الجميع في طابور واحد، يمرّ أمام عربة الأطفال الموضوع بها الرضيع الوريث.

عندما وصلنا إلى مدخل القصر الملكي، كان الطابور يمتد أمام باب القصر. كان ريكوردي فخورًا بنفسه جدًّا، إذ يقف في طابور واحد مع عدد كبير من الشخصيّات الهامة. وبغرض تسلية الأطفال السبعة المحيطين به، عاد إلى استعمال الأسلوب الفكاهي التمثيلي الذي يتقنه، عندما أشار بيده إلى التماثيل الأربعة، اثنين على كل جانب من جانبي بوّابة القصر الرئيسة، التي تمثّل أربعة من قادة الجيوش، من عظماء التاريخ الإيطالي، بملابسهم التقليدية ممسكين بقبّعاتهم في أيديهم، بصدور منتفخة ووجوه عابسة، كما يليق بالرجال العسكريين.

قال ريكوردي: إن الجنرال الذي يرفع إصبع يده اليمنى يسأل الثلاثة الآخرين «مَن منكم أخرج من مؤخّرته هذه الرائحة الكريهة؟». فيجيبه الثاني التالي له في الوقوف، وهو يضع يده أسفل ذقنه، وقد بدت على وجهه علامات التفكير: «حقًّا إنها رائحة عفنة». فيجيب الثالث وقد بدت على وجهه علامات الغضب، واضعًا يده اليمنى على موضع القلب من الصدر كأنه يقسم بأغلظ الأيمان: «أقسم لكم بأنه ليس أنا». أما الرابع فقد رفع ذراعه الأيمن إلى أعلى، وقد بدت على وجهه ملامح ابتسامة خبيثة، وهو يشير بسبّابته إلى نافذة حجرة الملك بالطابق الأوّل، قائلًا: «إنها قادمة من أعلى».

هذه هي نوعية الفكاهة الساخرة التي كانت سائدة في إيطاليا بين نهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠، الفكاهة التي كانت تثير ضحكات هذا الشعب البائس اللاهي، ساخرًا من طبقة الملوك والأمراء، الذين طال ظلمهم له. كان الروائي ستِندال والشاعر بودلير الفرنسيان، الأول

t.me/qurssan

في رواياته والثاني في أشعاره، هما أول من لفت الانتباه بين أدباء القرن ١٩ إلى أن هذا القرن هو الوقت الذي وصلت فيه البلاطات الملكية إلى قمّة الادّعاء والسخافة، قمّة الزهو الفارغ والتفاخر الكاذب والخيلاء السقيمة، الغرور والتفاهة والابتذال في أبهى صورهم. يقولون إن الثورة الفرنسية هي التي قضت على الملكية في أوروبا، لكني أقول إن شيوع الثقافة الأمريكية هو صاحب الفضل في هذا على القرن ١٩، إلا أن هذا الشيوع نفسه هو الذي سيخنق عالم القرن ٢٠.

انشغلنا جميعًا نحن الأطفال السبعة، لنظهر حسن انتمائنا إلى الطبقة الراقية، بعشرات الانحناءات القصيرة السريعة، إلى اليمين وإلى اليسار، كلما مرّرنا أمام إحدى الشخصيات الملكية. كان ريكوردي مهتمًّا بمظهر فتياته، يعيد ترتيب ثيابهنّ، وضبط أربطة شعورهنّ، ثمّ تقدّمنا جميعًا متفاخرًا في ثيابه الملوّنة، مما ذكّرني لحظتها بالطاووس، الذي كنت شاهدته قبلها بقليل في حديقة الحيوان. لاحظت أنه كلما اقتربنا أكثر من موقع كرسي عرش الملك، ازداد حوله عدد الحرس الموجودين في القاعة، وقد ارتدوا جميعهم أبهى أزيائهم المزركشة.

رغم انشغال ريكوردي بنا، إلا أنه كان في نفس الوقت يلتقط الصور الفوتوغرافية، لأكبر عدد ممكن من الشخصيّات الهامة، التي تزور القصر الملكي في هذه المناسبة، وقد بدا لي أن هذا الرجل فنّان حقيقي، لأنه تمكّن من أخذ عدد كبير من اللقطات الطبيعية، التي تظهر هذه الشخصيات في لحظات تعبيرهم عن عواطفهم الحميمة، تجاه بعضهم البعض، وتجاه الأسرة الملكية، رغم الزيف الذي يميّز عادة

هذه العلاقات. إذنْ كان اندساسه وسط الناس مقصودًا به التقاط هذه اللحظات الدافئة. ظهرتُ مع غيري من الأطفال في إحدى هذه اللقطات، التي وضعتها أغلب صحف اليوم التالي في صدر صفحاتها الأولى.

في نفس ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه صباحًا إلى القصر الملكي، ذهبنا بعد وجبة الغذاء إلى شاطئ البحر المتوسّط، لتحيّة الأسطول الحربي الإيطالي، المتجّه عبر قناة السويس، إلى الحبشة في منطقة القرن الأفريقي. وقفنا على الرمال وعلى أرصفة الشاطئ، نصفّق بملء أكفّنا، لتحيّة الجنود أثناء صعودهم على ظهر سفن الأسطول. شعرت بالشفقة على هؤلاء الجنود. لأول مرة في حياتي كنت أختبر هذا الشعور بالشفقة. كان الجمهور الإيطالي شديد الحماس لهذه المشاهد العسكرية، التي تدعو للفخر الوطني. كانوا يقولون لنا في المدارس، إن على إيطاليا أن تبحث عن نصيبها في كعكة أفريقيا، بالاستيلاء على ليبيا والحبشة، بعد أن كانت إنجلترا وفرنسا قد استولتا على باقي دول القارة.

في المساء استمعنا -ونحن في المنزل- إلى أصوات القذائف النارية، التي انطلقت من مدافع القوّات المسلّحة، إلى عمق البحر المتوسّط، بامتداد عشرات الكيلومترات من شواطئ نابولي وضواحيها، في استعراض قوّة مقصود به تنمية مشاعر الانتماء الوطني. وعندما خرجنا إلى أسطح القصر، تمكنّا من مشاهدة قذائف المدفعية والألعاب النارية في سماء الخليج، في شكل باقات ورد متعدّدة الألوان ومتداخلة الأشكال. ارتبطت هذه الصور في ذهني طوال حياتي بما سأشاهده لاحقًا ذات مساء من مساءات طفولتي، من انفجار الحمم البركانية في بركان فيزوف،

t.me/qurssan

وانطلاقها كقذائف نارية في سماء نابولي، بنفس الألوان والأشكال.

(٤)

لاحظت أن أبي لم يعد معنا إلى منزلنا في ذلك المساء. ثم أصبح يحضر إلى المنزل بشكل متقطّع، أي مرة واحدة في الأسبوع، يقضي فيها معنا ليلةً واحدةً، ثم يعود إلى الاختفاء لمدة أسبوع. ثم غاب ذات مرة ولم يعد أبدًا بعد ذلك إلى المنزل، حتى جاء اليوم الذي قالت لنا فيه أمّي أنهما تطلّقا، وأن أبي قد تزوّج من سيّدة أخرى. في مرحلة لاحقة من العمر، حكت لي أمي عن الخلافات التي كانت تتراكم بينهما، وانتهت بهما إلى طريق مسدود. إلا أن الحقيقة هي أن أبي لم يجعلنا نشعر أنا وأمي وإخوتي، من الناحية المادية، بأي اختلاف بين ما قبل طلاقهما وما بعده. من الغريب أن ريكوردي فعل تقريبًا نفس الشيء، ولم أعرف أبدًا أيّهما كان صاحب التأثير على الآخر، أو أنهما اتفقا على هذا التصرّف بدافع ذاتي من كليهما، دون أن يكون لأحدهما تأثير على الآخر.

كان أخي وأختي اللذان يكبرانني بخمسة وبستّة أعوام، قد بدآ يدخلان في مرحلة المراهقة، وينشغلان مع الفتيات الثلاث من أخوات إيلينا، بالذهاب بالسيّارة والسائق إلى نابولي، مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، لتناول الوجبات في المطاعم الشهيرة هناك، أو لزيارة أصدقاء من نفس سنّهم، كانوا في الغالب من أبناء الطبقة البورجوازية، من كبار موظّفي الدولة وضبّاط الجيش. وكان المراهقون الكبار من

إخوتي وأخوات إيلينا، دائمي السخرية منا نحن الصغار، أي أنا وإيلينا، كلما رأونا سائرين متشابكي الأيدي، وفي تلك الحالات كانوا يلقّبوننا بالزوجين الصغيرين، أو بالخطيبين الموعود أحدهما للآخر.

ثم كان من المعتاد كذلك قضاء يوم الأحد، من الصباح حتى غروب الشمس، على شاطئ البحر خلال فصل الصيف، أو في المناطق الريفية خلال فصل الشتاء، على أن تكون ميس شارب بصحبة المراهقين والمراهقات، لمراقبة الآنسات الصغيرات، حتى لا تصدر عنهنّ تصرّفات غير لائقة. وبسبب انشغال والدتينا بمسألة غياب زوجيهما، سواء في أثناء بقائهما معا، أو في أثناء بقاء كل واحدة منهما وحدها في حجرتها، أصبحت لنا أنا وإيلينا حريّة حركة، أكبر من تلك التي كانت لنا من قبل، وبالتالي أصبحت حديقة قصرنا الواسعة تقريبًا لنا وحدنا أنا وإيلينا، فكنا نذهب إلى الحائط في نهاية الحديقة، لنبحث في الشقوق عن القواقع.

بعد مرور شهر على وفاة إيلينا، انتشرت في المنزل رائحة فظيعة، رائحة جثث حيوانات متعفّنة، لا تزول من المنزل مهما فعلت الخادمات، من مسح الأرضيات والحوائط، وفركها وغسلها بالصابون. بعد ذلك تمّ رفع ألواح الأرضيات الخشبية، حيث توجد بعض الفتحات، اعتقادًا بأن وراءها توجد جثث فئران ميّتة، لكن دون جدوى. يوما بعد آخر أصبح من الواضح أن مصدر هذه الرائحة العفنة، هو حجرة نوم الطفلة المتوفّاة، حيث بدأ فحص مدقّق، لقطع الأثاث حيث كانت تحفظ ملابسها.

اكتشف تجويف خلف أحد الألواح الخشبية لأحد دواليب الملابس، كان ممتلئًا عن آخره بالعلب الكرتونية الصغيرة، التي كانت سابقًا قد

t.me/qurssan

استعملت، لتباع فيها أحذية وقبّعات هدايا لإيلينا من والديها، أو علب بها قطع صغيرة من الشوكولاتة التي أكلتها إيلينا، كانت هذه العشرات من العلب مكوّمة بعضها فوق بعض، وممتلئة تمامًا بمئات القواقع، التي كنّا قد جمعناها سويًّا يومًا بعد يوم من سور الحديقة، وكانت إيلينا قد رتّبتها أولًا بأول، وفقًا لأحجامها وأنواعها، وكانت تغذّيها، وبالتالي ماتت هذه القواقع من الجوع بعد أن ماتت إيلينا، لأنها لم تتمكن من الخروج من العلب التي وضعتها فيها إيلينا. بعد هذا الاكتشاف كان قلبي قد امتلأ بفرح غامض، إذ أدركت كم كانت إيلينا حريصةً على كل قوقع وضعتْهُ في يدها.

(٥)

بعد موت إيلينا أصبح بيبينو ابن باسكوالي، هو صديقي الوحيد الذي يمكنني أن أدعوه إلى حجرتي، حيث كنت أعطيه كل ما يريده من ألعاب الأطفال، التي كانت لديّ منها تشكيلة كبيرة، لكنه في كل مرّة كان يفضّل أن يحصل على المزيد من تماثيل جنود المشاة المصنوعة من معدن الرصاص، وهي التماثيل الصغيرة الدقيقة، التي كان لديّ منها العشرات. في النهاية كان بيبينو قد حصل منّي عليها كلها، ولم يعد لدي منها تمثال واحد. في الحقيقة لم أكن أحب هذه التماثل، ولا أحب كذلك أي نوع من أنواع ألعاب الحرب، التي تثير رغبات الأطفال في التقاتل، رغم أنني لاحقًا سأكون مضطرًّا إلى الانضمام إلى جيش فرنسا، في أثناء الحرب العالمية الأولى.

بعد أن انتهيت من إهدائه كل الجنود، تحوّل إلى عربات السكّة الحديد واحدة واحدة، حتى حصل عليها كلها، ثم حصل كذلك على القاطرة البخارية، التي كانت تدور بالزمبلك، ثم في النهاية حصل على قضبان السكّة الحديدة. هكذا كان يفكّر بيبينو، بالتدريج وعلى المدى الطويل، يمكن للمرء أن يحصل على كل ما يتمنّاه. لم يقل لي بيبينو هذه العبارة الأخيرة إلا بعد أن كنا تخطّينا سن الخمسين وتعدّينا مرحلة الشباب. يا له من طفل ماكر لئيم! إلا أنني في الحقيقة، كنت منذ بداية حياتي قادرًا بسهولة شديدة، على إعطاء الآخرين دون أي شعور بالندم، كلّ ما أملك.

كنت أعطيه كل هذه الهدايا، في مقابل شيء واحد وحيد، وهو أن يحكي لي بالتفاصيل المملة، كل ما يحدث له أثناء عمله اليومي، في جولتهما اليومية هو ووالده على بيوت الحيّ والأحياء المجاورة، خلال ساعات الصباح حتى منتصف النهار، في أثناء توزيع منتجات الألبان على الجيران، بابًا بابًا وهو جالس على ظهر بقرته العزيزة، التي أسماها (بيبينا)، وهو اللفظ المؤنّث من اسمه هو شخصيًا (بيبينو)، الدليل على ملكيّته التامة لها، وهو ما كان يزيد من أحقادي عليه. كانت كل هذه التفاصيل الصغيرة، تلهب خيال الطفل الذي كنته، الطفل المحروم من الخروج إلى الشارع، بل المحروم من كل أنواع الحركة الحرّة، التي يتمتّع بها أطفال العائلات الفقيرة. هذا هو الحلم العزيز على القلب، الذي طالما راودني وأنا طفل، ولم أستطع أبدًا تحقيقه، حلم التسكّع في الشوارع.

t.me/qurssan

كان بيبينو يتجاوب مع أحلامي دائمًا، مما يدلّ على أنه كان يكنّ لي في قلبه معزّةً خاصةً، فكنّا نجلس سويًّا في حجرتي خاصة في صباح يوم الأحد، يوم إجازة والده من العمل، ليحكي لي تفاصيل الشوارع والحارات والبيوت والناس، وكانت لديه موهبة سردية لا شكّ فيها، ولم يكن يبخل عليّ بالتفاصيل. ثم عندما يلمح ميس شارب وهي تمرّ إلى جوار باب حجرتي، أو تأتي برأسها إلى داخل الحجرة، في محاولة منها لالتقاط بعض الكلمات المهموس بها، يسكت فجأة ويقول لي إنه يخاف من أن تأتي لتوبّخه.

كانت ميس شارب في هذه الأثناء قد أصبحت ضائعةً حائرةً، إذ لم تعد تعرف ما هو الدور الذي من المنتظر أن تلعبه، مع هذه المجموعة المتعبة من المراهقين المترفين، الذين يتمتّعون بشكل خاص بقدر كبير من العناد ورفض الانصياع للنصائح، التي كانت في الماضي القريب تأخذ شكلًا أقرب إلى شكل الأوامر. كانت تتحدّث معنا جميعًا، أي مع مراهقي الأُسرتين، محاولةً أن تبدي قدرًا من الحكمة، يسمح لها بتوجيه النصائح، في أمورنا التي كنا قد بدأنا في اعتبارها أمورًا شخصيةً، لا يصحُّ أو لا يحقُّ لها أن تتدخّل فيها. كان شعور ميس شارب باليأس من انصلاح أحوالنا، هو أحد أسباب انصرافها بالتدريج عنّا، ثم مغادرتها المنزل بين يوم وليلة. في ذلك الوقت لم يشعر أيٌّ منا بالندم على رحيلها، بل في الحقيقة شعرنا جميعا بالارتياح.

(٦)

كان من عادة رجال الحيّ -الذي أقيم فيه- اصطياد الطيور باستعمال البنادق والذخيرة الحيّة، أثناء مواسم هجرة هذه الطيور المؤقّتة عبر مناطق السواحل الإيطالية الواقعة على البحر المتوسّط، في ذهاب الطيور من أفريقيا إلى أوروبا في بداية الصيف، وفي عودتها من أوروبا إلى أفريقيا في بداية الخريف. كما كان من الممكن كذلك اصطياد هذه الطيور، باستعمال شباك الصيد، التي تسقط فيها بسهولة الطيور المرهقة، خاصة في بداية الصيف بعد رحلة عبور البحر المتوسّط.

كانت مسألة أن تصيب رصاصة منطلقة من إحدى البنادق إنسانًا فتقضي على حياته، تعتبر مسألة قدرية بحتة، أو إرادة إلهية، لا ذنب فيها على الإطلاق لمن أطلق البندقية، تمامًا مثل مسألة سقوط صاعقة سماوية على رأس إنسان فتحرقه. كان هذا هو المنطق السائد في أوروبا، حتى بداية القرن العشرين، حين بدأ الناس يدركون، أن هناك ما يسمّى شروط الحياة المدنية، وأن هناك حدًّا أدنى لحقوق البشر المقيمين معًا في تجمّعات مدنية، وأن كل إنسان مسئول عن أخطائه، التي يصيب بها الآخرين بضرر، وينبغي أن يعاقب عليه حتى لا يكرّرها الآخرون.

بعد موت إيلينا المفاجئ، توقّفت تمامًا عن هواية جمع القواقع، وبدأت أتفرّغ لمراقبة الشارع. وحيث إنني كنت لا أزال ممنوعًا من

t.me/qurssan

الخروج إلى الشارع، فكان الحلّ الوحيد أمامي، هو الوقوف خلف باب الحديقة المغلق، لمراقبة كل من يمرّ أمامي في الشارع. كان الباب يتكوّن من قضبان حديدية رأسية، يمكنني أن أخرج رأسي كله من بينها، لمتابعة منظر من يمرّ أمامي إلى أحد الجانبين، إلى اليسار أو إلى اليمين، وكانت هذه القضبان الرأسية، تتصّل في أعلاها وأسفلها بقضبان حديدية أفقية، بحيث تسمح الفراغات بينها برؤية كل شيء يمرّ أمامها. هذا هو أقرب ما أمكنني التفكير في فعله، أقرب المتاح إلى حلم التجوّل والتصعلك في الشوارع، الحلم الذي لن أتمكن من تحقيقه إلا بعد بضع سنوات.

وهكذا فعندما كنت في العاشرة من العمر، كنت خلال شهور إجازتي الصيفية، أقف أمام باب الحديقة فترات طويلة، قد تصل في بعض الأيام إلى ثلاث أو أربع ساعات، خلال الفترة الصباحية بعد وجبة الإفطار، أو خلال فترة الظهيرة بعد وجبة الغذاء، ولم أكن أشعر بمرور الساعات، بسبب الشغف الشديد بكل ما أراه يمرّ أمامي، حتى أنني لم أكن أنتبه إلى اقتراب موعد وجبتي الغذاء أو العشاء، بل كان ينبغي أن يحضر أحد الخدم إلى باب الحديقة للبحث عنّي ولإحضاري إلى صالة المائدة. هذا رغم ساعة الحائط الضخمة المعلّقة على واجهة الكنيسة القريبة، التي كانت تدقّ كل ساعة لتعلن عن الوقت، بصوت جرس يدقّ بعدد ساعات الوقت المعلن عنه. كنت في كل مرّة من تلك المرّات، أحصل على قدر من التقريع، يتناسب طرديًّا مع استمرار تدهور الحالة العصبية لوالدتي المسكينة.

(٧)

من المناظر التي لا أنساها، ولم أفهم أبدًا السبب الذي أدّى إليها، منظر زوجة البقّال السمينة، وقد طرحت زوجها الضعيف النحيف أرضًا، عند عتبة باب محلّ بقالتهما وقد جلست عليه، وقد تبهدلت ثيابها وسقط عن رأسها غطاء شعرها، وقد ظهرت هالتان من السواد حول عينيها، كأنها قد تلقّت فيهما ضربتين. كانت ممسكة في يدها اليمنى بعصا مكنسة خشبية، كأنها سلاح تستعدّ للدفاع به عن نفسها، وقد انطلقت من فمها عبارات مختلفة من أنواع السباب، لم أكن قد سمعتها من قبل حتى ذلك الوقت، بالإضافة إلى عبارات أخرى لم أفهمها، عرفت فيما بعد أنها تعتبر تجديفًا انتهكت به بعض الحرمات السماوية. هذه العبارات كانت من بين التراث الشفهي للشعب النابوليتاني، التراث الذي قامت هذه المرأة في ذلك اليوم بتعليمي إيّاه. هذا هو أحد دروسي الأولى في مدرسة الشوارع.

تقع البقالة في مواجهة باب حديقة منزلنا، في الطابق الأرضي من مبنى سكني يتكون من ثلاثة طوابق، في حين كان المبنى المجاور لمبنى البقالة، وهو الآخر من ثلاثة طوابق، مكان حيّرني جدًّا لفترة من الزمن، لأني لاحظت كثرة المتردّدين عليه خاصة من الرجال، الذين يصعدون إلى الطابق الثاني كما علمت لاحقًا، ثم ينزلون بعد ساعة أو نصف ساعة،

t.me/qurssan

ليحلّ محلّهم رجال آخرون. ثم قال لي بيبينو ذات يوم إن هناك ثلاث مومسات يقمن في شقّة الدور الثاني. رغم أنني لم أعرف معنى الكلمة، إلا أنني لم أسأل بيبينو عنها، لأحتفظ لنفسي بالكرامة، التي كانت معارف بيبينو المتنوّعة تعصف بها بشدّة، لكني في الحقيقة استطعت أن أخمّن معنى هذه الكلمة، لكني لم أكن أعرف بعد التفاصيل.

كنت أحيانًا أرى واحدة منهنّ، أو أرى النساء الثلاث معًا، وقد وقفن في شرفة الشقّة المطلّة على الشارع، وهنّ متأنّقات بكامل زينتهنّ، في محاولة منهنّ لجذب انتباه المزيد من الرجال، بغرض تحسين أحوال عملية تسويق بضاعتهنّ. كنّ أحيانًا يحاولن التواصل مع الرجال، أولًا بالنظرات والغمزات، ثم ثانيًا بإشارات الأيدي، ثم ثالثًا عند اللزوم بالهمسات، التي تتحوّل أحيانًا إلى حوار مسموع. كانت الكلمات المتبادلة بين النساء والرجال، تدخل ضمن قوائم مفردات العامية الإيطالية، التي لن أتعرّف عليها إلا بعد سنوات.

لم أكن أثير أي قدر من التساؤلات أو الشبهات، لأني لم أكن أتكلم، بل أكتفي بالمراقبة الصامتة، بعينين تبدوان بريئتين ساذجتين، لذلك كنت أتمكن أحيانًا من مراقبة باب عمارتهنّ، بالوقوف عند أقصى الطرف إلى يمين باب حديقتنا، خاصة عندما يكون وجه الرجل مألوفًا، لأعرف بدقّة الوقت الذي سيقضيه هناك، بالاستعانة بساعة اليد التي أهداها لي والدي في مناسبة عيد ميلادي العاشر، فأسمع صوت أقدام الزبون صعودًا إلى الطابق الثاني، ثم أسمع صوت باب شقّة الطابق الثاني وهو يفتح ويغلق، ثم أسمع صوت ضحكات نسائية وأحيانًا تنهّدات، وبعد أقلّ من ربع

ساعة، أسمع صوتيهما وقد ارتفعا، على ما يبدو أثناء النقاش حول الثمن المطلوب دفعه، مقابل الخدمة التي حصل عليها الزبون.

ذات مرة سمعت صوت صفعات على الوجه، ثم صوت صراخ أنثى تستغيث طالبة الإنقاذ، ثم بعد بضع ثوان، ظهر على باب العمارة، رجل عاري الصدر، ممسكًا في يده اليمنى بسكّين، قفز إلى وسط الشارع، ثم بدأ في العدو السريع، فلجأ الناس الموجودون في الشارع إلى جانبي الطريق، في محاولة منهم لتجنّب التعرّض لطعنات طائشة، من سكّين هذا الرجل المجنون، أو حتى لا يصطدم بهم أثناء عدوه الطائش. بالصدفة البحتة كان شرطي الحيّ حاضرًا بعد بضع ثوانٍ، انتبه وهو في الجوار إلى صيحات الاستغاثة، لكنه لم يستطع أن يقرّر بسرعة، إن كان عليه أن يلاحق الرجل نصف العاري بالجري خلفه، أو أن يصعد لمعرفة سبب استغاثة المرأة؟

ظلّ الشرطي واقفًا ينصت إلى ما يقوله الناس، وهو يلعب بشاربيه بين إصبعيه، لكني لم أتمكن من الإنصات إلى ما يقولونه، وقد بقيت خلف القضبان في محبسي الفخم، الذي يحسدني عليه صبية الشوارع، بينما أشعر أنا بالحسد نحوهم، رغم مشيهم حفاة الأقدام، لأنهم متروكون من قبل ذويهم هكذا أحرارًا في الشوارع، يتحلّقون هكذا حول الشرطي في الشارع، وينصتون إلى كل ما يقوله الناس، ويفهمون أشياء لم أكن أنا قادرًا بعد على فهمها. وددّت لو تمكّنت من القفز فوق أسوار الحديقة لأنضمّ إليهم.

t.me/qurssan

(٨)

كانت مدن إيطاليا معتادة في نهايات القرن التاسع عشر، على أن يشاهد سكّانها في فصول اعتدال المناخ، من منتصف الربيع إلى منتصف الخريف، أي بين شهري أبريل وأكتوبر، حتى لا تسقط الأمطار على رؤوسهم خلال شهور الشتاء، وهم في العراء، حضور المئات من الفنّانين التشكيليين، خصوصًا من رسّامي المناظر الطبيعية اللاند سكيب **landscape**، الذين كانوا في أغلبهم من شباب دول شمال وغرب أوروبا، خاصة ألمانيا وإنجلترا، الذين كنا نراهم في شوارعنا، وفي ميادين مدننا الصغيرة، أمام المباني الأثرية القديمة من كنائس وقصور وقلاع، يختارون الأركان الهادئة، التي يقل فيها حجم مرور العربات أو المشاة، وينصبون حوامل لوحاتهم، ويخرجون أدوات الرسم، ويشرعون في العمل.

كنا كأطفال نعتقد أن مجرّد كون هؤلاء الرسّامين الأوروبيين، قادمون من دول شمال أوروبا الأكثر تقدّمًا عن إيطاليا في ذلك الوقت، وأن كونهم من ذوي الأعين الزرقاء والشعور الشقراء، وكونهم قبل كل ذلك فنانين يتميّزون بحسّ مرهف، فهم بالطبع لكلّ ذلك، لا بدّ وأن يكونوا مهذّبين ظرفاء. إلا أن الشائع في ذلك الوقت، هو أن الكبار من رجال الحيّ، كانوا دائمي التحذير للصغار من أبناء الحيّ، من الاقتراب

من هؤلاء الأجانب، لأنهم حسب قول كبار السن، وهو القول الذي انتقل لي على لسان بيبينو، يميلون إلى الممارسات الجنسية الشاذة، مع الأطفال الذكور أو الصبية المراهقين، وقد أثبتت الوقائع أن هؤلاء الرسّامين الشباب من الأجانب يفضّلون الصبيان والغلمان الإيطاليين، على الفتيات الإيطاليات.

(٩)

من بين الأحداث التي لا أنساها، أن جاء ذات يوم إلى جزء متسّع من الشارع، غير بعد عن بوّابة الحديقة، رجلان وضعا منصّة خشبية بارتفاع متر ونصف متر على الأقل، لم أفهم الغرض منها، حتى جاء رجل وقف إلى جوارها، يحمل على ظهره صندوقًا خشبيًّا ضخمًا أسود اللون، أدركت بعد قليل أنه آلة موسيقية ضخمة، عرفت فيما بعد أنها تُسمّى البيانولا، وضعها على قوائمها وفتح فيها جزءًا كان مغلقا، ثمّ بدأ في إدارتها باليد، بواسطة ذراع قصير مثبّت فيها، فصدرت عنها ألحان موسيقية قصيرة متكرّرة.

ظهرت على الفور مجموعة غريبة الشكل، مكوّنة من خمسة رجال أقزام، بدأوا يتقافزون فوق المنصّة، ثم اتخذوا حركة إيقاعية واحدة، بدت كما لو أنها رقصة، على أنغام إيقاعات البيانولا. كانوا في سن النضج، بدليل عضلاتهم القويّة التي بدت من تحت ثيابهم. ثم جاءت بعدهم مجموعة أخرى، كانت هذه المرّة من خمس نساء قزمات، كنّ هنّ أيضًا في سن النضج، بدليل اكتمال ملامح أنوثتهنّ، من أثداء وأرداف ممتلئة،

t.me/qurssan

وشعور طويلة منسدلة.

كان كل الأقزام من الرجال والنساء يرتدون ملابس الاحتفالات، المزركشة المبهرجة الألوان والتصميمات، مما جذب انتباه جمهور كبير من المشاهدين، الذين كانوا يمرّون كالمعتاد في الشارع، ثم توقّفوا وتجمّعوا حول المكان لمتابعة العرض. لم أفهم أبدًا ماذا كانت هذه المناسبة الاحتفالية، ولكن من الجائز جدًّا أن هذه الفرقة كانت تقدّم عروضها في كل شوارع نابولي وضواحيها طول الوقت، إلا أنه لم يحدث أبدًا أن شاهدتهم مرّة أخرى.

(١٠)

كان أكثر مناظر البوّابة تكرارًا، هو منظر الحمير المحمّلة بالسلال، المليئة بمنتجات الحقول من خضروات، ومنتجات الحدائق من فواكه، وكانت هذه الحمير تمرّ أمام بابي، في ذهابها إلى الأسواق وفي إيابها منها. وحيث إن شارعنا كان في بعض أجزائه شديد الانحدار، قامت الشئون البلدية في مقاطعة نابولي بوضع مجموعات من درجات السلالم، التي تسهّل على المشاة الحركة في مناطق الانحدار الشديد هذه، إلا أن نفس هذه السلالم هي التي كانت تعوق حركة الحمير المسكينة، التي كانت تصعد وتهبط هذه الدرجات بمشقّة كبيرة. هذه الدرجات هي التي، كانت تمنع دخول العربات التي تقودها الخيول والبغال في شارعنا، في ذلك الوقت حوالي سنة ١٨٩٦، ثم هي التي ستمنع أولى السيّارات بمحرّكات، عند ظهورها في أول القرن العشرين، من الدخول

في شارعنا.

أمّا بائع السمك المتجوّل أحول العينين، فهو أول إنسان أحول أراه، وقد شغلتني هذه المسألة طويلًا. كان إنسان العين اليمنى لديه يتجّه إلى أقصى اليمين، في حين كان إنسان العين اليسرى لديه يتجّه إلى أقصى اليسار، وهكذا كنت أثناء حديثي إليه أتحرّك إلى أقصى يمينه أو إلى أقصى يساره، محاولًا أن أقع في مجال رؤية أحد إنساني العينين، معتقدًا أنه دون حركتي تلك لن يتمكن من رؤيتي.

عرفت أنه بسبب هذا الحول كان المسكين قد فقد الأصابع الثلاثة الوسطى من يده اليسرى، بينما كان يقطع بالسكّين ذيول بعض الأسماك. بعد ذلك تضاءل تعاطفي معه، عندما شاهدته ذات مرة، يضرب ابنته ذات الثلاثة عشر عامًا على فخذيها بالعصا الغليظة، لجرم لم أستطع أن أفهمه. كانت الفتاة تعمل مع أبيها، وتدور معه على البيوت، وهي تحمل على رأسها، سلّة مليئة بالأسماك.

(١٠)

الآن وأنا قد تعدّيت سن الستين، أستطيع أن أرى أن أهم ما كان ينبغي تمييزه في ذلك الوقت، هو حجم البؤس والفاقة الذي كان باديًا للعيان في تلك السنوات، ولم تستطع عيناي المرفّهتان رؤيته. عشرات الشحّاذين والشحّاذات كانوا يمرّون أمامي في كل وقت، بأقدامهم الحافية وملابسهم الممزّقة، لم أكن ألاحظهم أو أعيرهم أدنى انتباه، رغم دورانهم اليائس البائس طول الوقت في شوارع الضاحية، على أمل

t.me/qurssan

الحصول على قطعة طعام أو على عملة معدنية. كانوا غالبًا يصطحبون معهم أطفالهم، في نفس الملابس البائسة، كمحاولة منهم لاستدرار عطف القلوب على الأطفال الأبرياء.

أطفال مرضى تخرج من أعينهم وآذانهم وأنوفهم وأفواههم كل أنواع الإفرازات التي تدلّ على حالتهم الصحّية المتدنيّة. كما أن هرشهم المستمر في أجسادهم أثناء مرورهم أمامي كان يدلّ على إصابتهم بالأمراض الجلدية، التي كان الأكثر انتشارًا فيهم بينها هو مرض الثعلبة، بدليل سقوط أجزاء كبيرة من شعور رؤوسهم تاركةً خلفها مساحات بيضاء من الجلد المريض. كان هذا هو دليلي الأكيد على انعدام الحسّ الإنساني في مجتمعات إيطاليا الملكية، عندما بدأت لاحقًا وأنا في الثلاثين من العمر -أي حوالي سنة ١٩١٧- التفكير في ضرورة قيام مجتمعات اشتراكية شيوعية في العالم أجمع، وليس في روسيا القيصرية وحدها.

من الغريب أن أحد رهبان أحد الأديرة القريبة، كان يمرّ بشكل دوري على بيوت الحيّ لجمع التبرّعات لصالح ملاجئ الفقراء من الأيتام والعجزة، مقابل إيصال ورقي باستلام مبلغ التبرّع. كان جسمه ضخمًا وطباعه حادة عنيفة، وقد اعتاد أن ينهر الأطفال السائرين خلفه، رغم أن يسوع قال ذات يوم: «دعوا الأطفال يأتون إليّ ولا تنهروهم؛ لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات». كان من الأشياء المحيّرة هو مشيه حافي القدمين في شوارع قذرة، مما جعله يبدو في مظهر قذر لا يليق برجل دين. ثم فوجئنا بتغيّر في طباعه حتى أنه بدأ في ضرب الأطفال.

أعلنت إدارة الدير بورقة ملصقة على بابه، أن هذا الرجل الشحّاذ -كما قالوا- لا ينتمي إلى الدير، وأن إيصالات استلام نقود التبرّعات التي يوزّعها على المتبرّعين هي أوراق مزوّرة. ثم ظهرت بعد ذلك على الفور الحقيقة البشعة، عندما تكرّرت حالات اختفاء أطفال ذكور لمدّة يوم أو نصف يوم، والعثور عليهم في حالة إعياء شديد في الحقول القريبة وهم يعانون نزيفًا حادًّا من المؤخّرة. قبض على الرجل وسجن بقية حياته، بتهمة الاعتداء الجنسي على الأطفال، الذين كان يلتقطهم من الشوارع، ويضربهم على رؤوسهم بقبضته فيفقدهم الوعي، ثم يضعهم في حقيبة قماشية يحملها على ظهره، ويذهب بهم إلى الحقول القريبة.

(١١)

كذلك عبر بوّابة الحديقة، عرفت للمرّة الأولى في حياتي معنى الإصابة بمرض الجذام. كنت أرى رجلًا يمرّ أمامي، لديه في جبهته ثقب، ثم قيل لي إنه مجذوم. ثم بعد برهة وجيزة سقط أنفه. كنت أخاف منه إلى حدّ الابتعاد عن البوّابة، عند مروره بالشارع أمامها، خوفًا من أن أصاب بالعدوى. بسبب خوفي الطفولي من هذا المرض، ظلّ هذا الرجل أحد كوابيس طفولتي، حتى حصلت فيما بعد على المعلومات العلمية، التي سمحت لي بفهم السبب، في أن يصاب إنسان بهذا المرض الفظيع. لكني ظللت طوال حياتي أشعر بالعطف الشديد على المجذومين. كأني أشعر نحوهم بعقدة ذنب، أو كأنني مسئول بشكل ما عن مرضهم.

كنت بعد ربع قرن، في أثناء إقامتي الطويلة في البرازيل، قد عثرت

t.me/qurssan

على مستعمرة جُذام، يعيش فيها المجذومون منعزلين عن غيرهم من الناس، وكانت هذه العزلة هي بكامل إرادتهم لا بقرارات حكومية، بحيث كان أقرب تجمّع بشري إليهم على بعد ساعات بالسيّارة. عندما ذهبت لزيارتهم وجدت أن بعضهم كان قد فقد كل ملامح وجهه، فلم يعد لديهم أي أنف أو أو أذن، بل كان الميكروب قد قرض هذه الأعضاء، وترك في مكانها فتحات. والبعض الآخر لم يعد لديهم أي أصابع لا في أياديهم ولا في أرجلهم. بل حدث أن شاهدت لحظات سقوط مثل هذه الأصابع المقروضة، بعد أن أكون قد شاهدت هذا الإصبع، معلّقًا بخيط ضعيف من الجلد. يسقط الإصبع على الأرض، فيستأنف الرجل المشي في طريقه، دون حتى أن يلتفت إلى هذا الجزء من جسده، المتروك على الأرض.

من العجيب أنني كلما ذهبت لزيارتهم في تلال بيرابورا حيث يعيشون، وجدتهم يرقصون ويغنّون، احتفالًا بمناسبة ما، فهم كانوا لا يعدمون العثور على مناسبة ما تدعوهم إلى الرقص. في تلك المرّة كان احتفالهم بمناسبة حضور قائدهم العام لزيارتهم، راكبًا على ظهر بغل، قاطعًا مئات الكيلومترات، قادمًا من مناطق الأدغال في وادي نهر الأمازون. كانوا يلقبّونه بالملك، ويقدّمون له فروض الطاعة والاحترام. اكتشفت أنه من أصول أوروبية بلجيكية، وكان في بداية حياته قد سلك طريق الرهبنة المسيحية في أحد الأديرة الأوروبية، إلا أنه في بداية إصابته بالجذام ترك أوروبا، وانتقل إلى هنا ليعيش مع هؤلاء.

من بين مزايا أن تكون ملكًا على أفراد هذه القبيلة، أنه في كل ليلة

من الليالي التي أقام فيها الملك بينهم، كانوا يقدّمون إليه فتاة عذراء جديدة، تقضي الليلة معه، تكون في حدود سنّ الخامسة عشر، ليفضّ هو بنفسه غشاء بكارتها، وهو طقس ديني وفقًا لمعتقدات وثنية برازيلية قديمة، طقس قريب الشبه بمسألة تدشين سفينة، إذ إن هذه الفتاة التي تفقد عذريتها على يد الملك، لا تكون صالحة لأن تتزوّج إلا بعد المرور بهذا الطقس، وبعده في التو والحال، يمكنها في الليلة التالية مباشرة، أن تكون صالحة للزواج، مثلما يحدث مع السفن المصنوعة في أحواض السفن، التي لا تكون صالحة للإبحار إلا بعد طقس التدشين.

من العجيب أن طقس التدشين هذا، يمارس أمام الجميع، فالرجل البلجيكي زعيم القبيلة يمارس الجنس مع الفتيات العذراوات، على مرأى ومسمع من جميع سكّان القبيلة، الذين يبلغ عددهم حوالي ٣٠٠ شخص، إذ يفرشون في وسط ميدان القرية المستعمرة، سجّادة حمراء كبيرة يتحلّقون حولها، تدور عليها أحداث اللقاء بين الزعيم والعذراوات، ثم يبدأون أولًا في التصفيق بأيديهم، ثم ثانيًا في إطلاق صيحات التشجيع والإعجاب، ثم ثالثًا قد تصل الأمور والوقائع أحيانًا إلى حالة من الهياج والجنون الجمعي **collective madness**، فيختار كل منهم أي امرأة تعجبه، ليمارس معها الجنس.

وقد يحدث أحيانًا، أن يتشابك الرجال بالأيدي، في صراع رمزي على النساء الموجودات في محيطهم، وأقول صراعًا رمزيًا لأنني أعتقد أن كل نساء هذه القبيلة كنّ على المشاع، فليس هناك زواج حقيقي بينهم، بل يكون لكل رجل امرأة يبيت معها ليلًا، إلا أن نفس هذا الرجل

t.me/qurssan

في النهار يكون حرًّا في ممارساته الجنسية مع الأخريات.

هم ليست لديهم على الإطلاق أيّ مقاييس أخلاقية مستوحاة من الدين،

فهم قد فقدوا قبل زمن طويل إيمانهم بربّ المسيحية،

بل يمكنني القول إنهم يكرهونه،

فلو أنه فعلًا خالق الكون، فهو كذلك خالق ميكروب هذا المرض،

وبالتالي فهو الذي حرمهم من ممارسة الحياة الطبيعية،

وتسبّب لهم دون أي سبب واضح مفهوم،

ودون أي ذنب جنوه،

في كل هذا العذاب،

إذ تخلّى عنهم تمامًا،

ولم يشعر نحوهم بأي عطف.

إنّهم يقولون ويكرّرون أمامي دائمًا: إنه لو كان فعلًا موجودًا، فهو مما لا شك فيه إله ظالم.

(١٢)

حسب النظام المتبّع في ذلك الوقت، أنه عند بلوغ الطفل بداية مرحلة المراهقة، أي في سن الثانية عشرة، على العائلات الكبيرة أن تضع أبناءها الذكور في عهدة مدرّس مشهود له بالكفاءة العلمية وبحسن السيرة، وهكذا وضعتني أمي في عُهدة آدريان، وهو مدرّس إنجليزي شاب في

الثلاثين من عمره، كان يقوم بإعداد رحلات للمراهقين من سنّي، كل صيف في ربوع جزيرة صقلية، على أن تكون الإقامة بالكامل في العراء، أي في خيام نضربها كل ليلة على حواف الجبال أو الغابات، وننقلها معنا على ظهور الحمير، في أثناء تنقلاتنا بين المدن والقرى والشواطئ، لممارسة الرياضة، ولدراسة كل ما يوجد حولنا في البيئة من طبيعة وآثار قديمة.

استمرّت الرحلة إلى صقلّية لمدّة ثلاثة شهور، من أول يونيو الى آخر أغسطس، كنّا خلالها نتنقّل مشيًا على الأقدام، بين المناطق الساحلية حول الجزيرة، وبين الجبال القريبة من الساحل، لنضرب خيامنا كل ليلة في مكان جديد. كانت هذه الرحلة هي نقطة تحوّل في حياتي لأسباب مختلفة. منها:

١ - أن آدريان كان يجيد الحديث باللغة الإيطالية المعاصرة، وكذلك باللغة الإيطالية الكلاسيكية الميّتة (اللاتينية)، وكثيرًا ما كان يوجّه إلينا ملاحظاته إمّا باللاتينية أو بالإنجليزية، مما ساعدني بشكل معجزي على إجادة هاتين اللغتين، اللغة الميّتة واللغة الحيّة في شهور ثلاثة.

٢- تعلّمت منه لأول مرّة في حياتي معنى الحوار، أي أن تتجادل مع شخص آخر، كل منكما يدافع عن رأيه بوجهة نظر مختلفة، وهو ما أسماه آدريان لاحقًا (مبادئ الحوار الجدلي المنطقي). لأول مرّة في حياتي كنت أفهم معنى كل هذه الكلمات.

٣- بالإضافة إلى كل هذا كان آدريان يعدّ رسالة دكتوراه في إحدى الجامعات الإيطالية، عن تاريخ فنون عصر النهضة الإيطالية، الموجودة

t.me/qurssan

في جزيرة صقلّية، وبالتالي تعلّمت منه قدرًا هائلًا من المعرفة بهذا الموضوع.

٤ - أنا شخصيًّا أعتقد الآن، أن أهمّ ما تعلّمته من آدريان، هي القدرة على قضاء الليل في العراء، في حماية أمّنا الطبيعة **mother nature**، في أي مكان تحت هذه القبّة السماوية السوداء بنجومها اللامعة، باختصار القدرة على التصرّف في مواجهة الظروف المختلفة.

٥ - يجب أن أضيف هنا -ما قد يعتبره البعض تأثيرًا سلبيًّا لآدريان، لكني أعتبره الآن في سن الثانية والستّين علمًا نافعًا- وهو أن آدريان لم يكن يترك حانة نمرّ بها، دون أن يدخل فيها لاحتساء كأس من الخمر. تعلّمت منه كيف أن كأسًا من الخمر يرفع المعنويّات.

في نفس ذلك التوقيت كانت أختي (١٧ سنة) تستعدّ لترتيبات عقد القران، وأخي (١٨ سنة) يستعدّ للالتحاق بجامعة بال في سويسرا لدراسة القانون، لينضم بعد تخرّجه إلى السلك الدبلوماسي. كان أبي قد انتقل للإقامة في لندن، حيث سأذهب لاحقًا لزيارته. أما أمي فقد تركت نابولي، واستقرّت في فينيسيا. عند عودتي من تلك الرحلة إلى صقلّية، كانت هناك بالفعل لوحة معلّقة على مدخل القصر بها كلمة واحدة هي (للبيع). في أول سبتمبر تمّ وضعي تلميذًا داخليًّا في المدرسة الدولية بنابولي، وهي المدرسة التي اعتبرتها سجنًا كبيرًا، يشرف عليه سجّان ألماني قميء هو المدعو دكتور بلوس، ولم أكن أفكّر طوال ثلاث سنوات من الدراسة الثانوية فيها، إلا في أنجح وسيلة يمكنني أن أهرب بها منها.

t.me/qurssan

سن العشرين

(١)

إن الشاعر والروائي روديارد كيبلينج **Kipling**، هو الذي أعطاني الوصفة المطلوبة، التي جاءت في روايته (كيم **Kim**)، وهو اسم بطل الرواية التي قرأتها في سن العشرين. هذا البطل يذهب في سن العشرين، ضمن أحداث الرواية، ليقضي إجازة طويلة، في منطقة جبلية شديدة الارتفاع في التبت **Tibet**، الواقعة في الشمال من الهند، في صحبة معلّمه اللاما العجوز، منعزلين تمامًا عن الدنيا. كان الشاب عند نزوله من الجبل مصابًا بإعياء شديد، فجعله اللاما يستحمّ ثم يرتدي ثوبًا جديدًا، ثم ذهب به إلى حديقة منزل السيّدة النبيلة التي تستضيفهما، وجعل الشاب يحفر حفرة بمقاسات طول وعرض جسم الشاب، على أن تكون هذه الحفرة بين جذور نباتات الحديقة، ليفرد الشاب جسمه فيها، ثم يغطّيه اللاما بالتراب.

يقضي الشاب ليلته نائمًا على ظهره، لا يتقلّب طوال الليل، بل لا يتحرّك على الإطلاق كما لو كان ميتًا، حتى تتمكن التيّارات المغناطيسية

الأرضية، من اختراق جسد الشاب، عند كل نقاط الالتقاء بين الجسد الشاب وبين تراب الأرض، من العنق إلى الكعبين، في عملية أسماها اللاما العجوز (إعادة خلق الكائن داخل رحم أمه الأرض). ثم يدعوه العجوز بعد انقضاء الليلة الأولى إلى البقاء على نفس الوضع ليلة ثانية، ثم ثالثة ثم رابعة، وهكذا يستأنف الشاب الرقاد ثمانية أيّام بلياليها، نعم يظلّ الشاب كيم ممدّدًا في ذلك الوضع ثمانية أيّام بلياليها، في طاعة تامة عمياء لمعلّمه. ثم دعاه اللاما في نهاية الأمر إلى القيام من رقدته.

عند لحظة الوقوف من وضع الرقاد الذي طال، شعر الشاب بنشاط عجيب وطزاجة غير عادية في جسده، كأنه استرد الجسد الذي كان له لحظة مولده، دون أيّ آلام بشرية، وهو ما سبق أن أسماه العجوز (الخِلقة الجديدة)، مستعدًّا لمواصلة السعي مع معلّمه، في التجوّل والارتحال. أما أنا ففي اليوم الثامن من رقادي الطويل في تراب مقبرة الشاعر فيرجيل **Virgil**، في ضواحي نابولي بإيطاليا، كنت لا أزال مرهقًا تمامًا، مثلما كنت في يومي الأول عند وصولي الى المدفن. حدث هذا في سبتمبر ١٩٠٦، عندما كنت أحتفل بالعام العشرين على مولدي. كان سن العشرين هو السنّ الذي يتمّ فيه تجنيد الشباب في فرنسا وإيطاليا في ذلك الوقت، وهما البلدان اللذان كانت تنتمي إليهما عائلتي بالمنشأ وبالإقامة.

كان تجنيد الشاب يتمّ فقط في حالة إذا لم يكن مسجّلًا في دراسات جامعية، لكني لحسن الحظ كنت لا أزال مسجّلًا كطالب في كلية طب برن بسويسرا، فرغم رسوبي تكفّل أبي بدفع مصروفاتي الدراسية، على أمل أن أصل يومًا ما إلى الانتهاء من الدراسة، وأن أصبح طبيبًا. في

t.me/qurssan

الحقيقة كان الأمل في أن أصبح طبيبًا قد أصبح أملًا ضعيفًا جدًّا، لأني كنت أغلب الوقت خلال السنوات الثلاث الأخيرة، بين سن السابعة عشرة وسن العشرين، في تجوال دائم بين البلاد.

فبالقطار انتقلت بسهولة من سويسرا إلى النمسا إلى تشيكوسلوفاكيا إلى بولندا، هذه هي طبعًا الأسماء الحالية للدول بعد الحرب العالمية الثانية، أما عندما اخترقتها بالقطار بين سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٠٤، كانت كلها حتى الحدود مع دولة القياصرة في روسيا، لا تزال تابعةً لإمبراطورية الهابسبورج في النمسا وهنجاريا (المجر). انتهى بي الطريق إلى سان بطرسبورج في روسيا القيصرية، التي اخترقتها لاحقًا مع روجوفين Rogovine بالقطار عبر آلاف الكيلومترات، حتى وصلنا إلى بكين، ومن هناك انتقلنا إلى دول آسيا الوسطى أوزبكستان وطاجاكستان، ومنها إلى إيران.

(٢)

روجوفين هو تاجر المجوهرات الروسي الذي ضمّني إلى معاونيه، عندما أراد التنقّل بين البلاد، بفضل إجادتي للعديد من اللغات؛ الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وهو شيء مفيد جدًّا لتاجر متنقّل، وفيما بعد أراد أن يربطني به برباط دائم، إذ أراد أن يزوّجني من ابنته الوحيدة إستر، التي لم تكن في ذلك الوقت تتعدّى الثانية عشرة من العمر. أنا كذلك كنت صغير السن جدًّا بالكاد في التاسعة عشرة من العمر، لا أفكر في الزواج، ولا أفكّر حتى في اتخاذ تجارة المجوهرات

مهنة لحياتي. لكن بعد بضعة أشهر من العمل معه انفصلت عنه، ولم يكن هذا الانفصال بسبب عدم رغبتي في الزواج من ابنته، لأنه في أثناء تلك الشهور نجح في العثور على تاجر مجوهرات شاب من بين معارفه، رحّب بمشروع الزواج من الابنة. كان سبب الانفصال بيننا، هو موضوع (خنجر أصفهان).

والقصّة تبدأ أثناء رحلتنا إلى بلاد فارس، وأثناء إقامتنا في فندق بمدينة طهران، إذ حدث ذات يوم أن جاء رجلان فارسيان من مدينة أصفهان في جنوب بلاد فارس لمقابلتنا، ثم عرضا علينا شراء خنجر صغير الحجم، أثري قديم مرصّع بالمجوهرات، ومنقوش عليه الكثير من الرسومات النباتية والتصميمات الهندسية، مثل أفرع نباتية تنبثق من جذع أوسط قد يكون لشجرة نسرين، وهي نوع من الورد البرّيّ، وبينها جنيّات أو عرائس بحر، نصفها العلوي بشري، ونصفها السفلي ذيل سمكة. طبعًا لم يكن هذا الخنجر مخصّصًا للقتال، بل في الغالب كان مخصّصًا ليضعه الرجال معلّقًا حول الوسط، أثناء المراسم الشكلية والاحتفالات. بالإضافة إلى أن هذا الخنجر به تجويف يمكن أن يستعمل في إخفاء أشياء ثمينة، وقد فتحه أمامنا البائعان لنجد به عدّة ماسات من أحجام مختلفة، قد تكون هي وحدها كافيةً لإقناع المشتري.

رغبت على الفور في الحصول على هذا الخنجر، في حين رفض روجوفين الموضوع من أساسه، قائلًا إن هذا الخنجر غالبًا مسروق، من مجموعة تخصّ إحدى العائلات الكبيرة في مدينة أصفهان، أو من أحد متاحف تلك المدينة، وهو لا يتاجر في التحف المسروقة. أما أنا فقد

t.me/qurssan

ظللت وحدي أسبوعًا كاملًا، أفاوض هذين البائعين في السعر، حتى حصلت عليه أخيرًا. كان هذا هو سبب الانفصال بيني وبين روجوفين، أنني عصيت أوامره وتمرّدت عليه، وبالتالي لم يعد لي مكان معه. أما أنا فقد اعتبرت أن هذا الانفصال هو صدفة حسنة، ذلك أنني رغبت في أن أجرّب الطيران وحدي.

المشكلة الأولى التي واجهتني هي أنني كنت قد أصبحت مفلسًا تمامًا، لأن إغراء شراء هذا الخنجر كان قويًا، وبالتالي كنت قد دفعت في شرائه كل المبالغ التي تمكنت من كسبها من عملي مع روجوفين، خلال حوالي عام ونصف. إذن السؤال الآن هو كيف سأقيم في فندق؟ وكيف سأدفع مصاريفي اليومية؟ إلا أنني لم أنتظر طويلًا للحصول على إجابة علي هذين السؤالين، فقد كانت المشكلة الثانية التي ظهرت على الفور بعد المشكلة الأولى، قد وضعت المشكلة الأولى على هامش تفكيري، فلقد جاء على الفور من أبلغني أن روجوفين الذي أراد أن ينتقم مني، ذهب إلى مركز الشرطة للإبلاغ عني، وبالتالي كان عليّ أن أختفي فورًا من طهران، إذا كنت أريد الاحتفاظ بهذا الخنجر الأثري.

غادرت على الفور مدينة طهران، بعد أن استطعتُ بقدر كبير من المخاطرة أن أبيع إحدى الماسات، في متجر للمجوهرات في أحد الأحياء الواقعة على أطراف طهران، وكان ثمنها كافيًا لدفع ثمن تهريبي إلى خارج البلاد، أولًا على ظهور الجمال عبر مناطق صحراوية شاسعة، في شمال غرب إيران إلى تركيا، وثانيًا على ظهور الخيول عبر المرتفعات في هضبة الأناضول إلى ساحل البحر المتوسّط، ثم ثالثًا من هناك على

ظهر سفينة بالبحر إلى نابولي، التي وصلت إليها بعد مغادرتي طهران بثلاثة أشهر.

كيف تمكنت طوال هذه الرحلة من إخفاء الخنجر في معطفي الثقيل؟ كيف أن أحدًا ممن صحبوني في هذا الطريق الطويل لم يشك فيَّ ويحاول سرقتي؟ كنت أعرف أن ثمن هذا الخنجر لو بيع في أوروبا، يكفيني أن أتحوّل إلى مليونير قبل بلوغ سن العشرين. كنت أقول لنفسي طوال هذه الرحلة إنني لن أندم أبدًا على تركي الدراسة الجامعية، وإنني كنت محقًّا تمامًا في ترك الحياة الرتيبة، وفي اتخاذ المغامرة أسلوب حياة.

(٣)

في نابولي، ذهبت على الفور من رصيف الميناء، إلى الضواحي الجنوبية حيث منطقة فوميرو **Vomero**. صحيح أن كل أفراد أسرتي قد تركوا فوميرو منذ ثمانية أعوام، ولم يعد لي فيها إلا بعض الأصدقاء، إلا أنني كنت أعوّل كثيرًا على أحد هؤلاء الأصدقاء وهو باسكوالي، الذي كان والده يتنقّل على ظهر حمار، ليبيع منتجات الألبان على عتبات البيوت، ومن ضمنها بيتنا. اعتقدت أنه يمكنه أن يصبح مساعدًا لي في مشروعاتي الجديدة، لأننا كنا قد ارتكبنا معًا بعض الجرائم الصغيرة في زمن طفولتنا، وأصبح بيننا بعدها كما يحدث بين رجال المافيا، قدر من التواطؤ المحبّب.

اعتقدت كذلك أنه يمكنني أن أختبئ في مزرعة كانت لنا هناك،

t.me/qurssan

ولكني لم أكن أعرف إن كانت لا تزال من ضمن أملاك والدي، أو أنها من ضمن أملاك شريكه ريكوردي، أو أنها قد بيعت لأشخاص آخرين. كانت صلتي بوالدي قد انقطعت منذ حوالي ثلاثة أعوام، باستثناء الخطابات المتبادلة بيننا على فترات طويلة، ولم تكن خطوط التليفونات في ذلك الوقت تسمح بعمل مكالمات دولية. هو يدفع لي مصروفاتي الجامعية، ويغدق عليّ بمبلغ شهري معتبر، دون أن يسألني سؤالًا واحدًا عن مشروعاتي المستقبلية. في الحقيقة كان أبًا كريمًا جدًّا.

شيء عجيب جدًّا، لقد تغيّرت المنطقة تمامًا في ثمانية أعوام. فعلى الأرض التي كان عليها بعض البيوت الفقيرة، حيث كان بيت والد باسكوالي، وجدت قصرًا عظيمًا شامخًا، أقرب إلى القلعة المحصّنة، بحديقة تحيط به من كل جانب، بها أشجار فاكهة مثل البرتقال والليمون بالإضافة إلى شجيرات الورد. كان هذا القصر الجسيم هو أول ملامح التغيير الجذري. الأعجب من ذلك هو أن أحدًا من المارة في هذه اللحظة، لم يتمكن من أن يدلّني على مصير عائلة باسكوالي، التي كانت تقيم هنا على هذه الأرض حتى سنوات قليلة.

كانت الخطة التي اتّبعها والدي في تقسيم الأرض في فوميرو إلى ملكيّات صغيرة، قد جاءت بالكثير من العائلات الكبيرة التي تنتمي إلى الأرستقراطية البورجوازية النابوليتانية، لشراء قطع من الأرض، إمّا لبناء قصور وفيلات متفاوتة الأحجام لسكنهم الخاص، أو لبناء مساكن من سبعة أو ثمانية طوابق للاستثمار العقاري السياحي. الميزة الرئيسة في منطقة فوميرو هي قربها من شاطئ البحر. وجدت بنايات كثيرة تحت

الإنشاء، من تلك البنايات المرتفعة المتعدّدة الطوابق، ذات الشرفات الواسعة، التي لم يكن هذا الحيّ يعرفها من قبل على الإطلاق.

كانت كل الفيلات الصغيرة محاطة بحدائق، تشغل أغلب مساحة القطعة الأصلية من الأرض. كان هذا هو القانون الجديد هنا، الذي يحتّم على مقتني قطع الأراضي، أنهم في حالة بنائهم لقصور أو فيلات، أن تكون المباني على مساحة ٣٠ ٪ فقط من إجمالي مساحة الأرض، على أن تشغل الحدائق الباقي، أي ٧٠٪ من المساحة الإجمالية. تبدو بوضوح على هذه الفيلات والقصور ملامح الاستعلاء على بقيّة خلق الله، ومظاهر التكلّف والادّعاء والغرور. يكفي أن نقرأ الأسماء التي أطلقوها على قصورهم وفيلاتهم لنعرف حجم ادّعاءاتهم، (فيلا أقوى رجل في العالم)، و(قصر ملكة جمال الكون)، وهكذا، شيء مضحك وبائس في نفس الوقت.

من المشاكل التي ظهرت في هذه المنطقة من ضواحي نابولي، عندما بيعت في نهايات القرن التاسع عشر، من قِبل مكاتب الإدارة المحلية في نابولي، لشخص واحد كان بالصدفة البحتة هو أبي، نظير رشوة مالية محترمة، دفعها أبي دون تردّد، في وقت كانت أحواله المالية مزدهرة جدًّا، بفضل رواج مخترعاته وابتكاراته المتعدّدة، التي لا أشك أبدًا في أنها تدلّ على نوع من الذكاء الخارق الذي كان أبي يتمتّع به، أن هذه المناطق التي كان يغلب عليها الطابع الريفي، حتى أوائل القرن العشرين، كانت تزخر بآثار الأزمنة الغابرة، من حضارة قدماء الرومان التي يستحيل هدمها والبناء عليها، فنابولي كانت ميناءً عظيمًا في العصر

t.me/qurssan

الروماني، وبالتالي امتدّت بيوت قاطنيها إلى مساحات بعيدة، فأمامي الآن هناك في كل مكان حوائط أثرية مهدّمة، تحيط بمساحات تنمو فيها شجيرات التين البرّي، وسلالم باقية كانت تؤدّي إلى مداخل مقابر لا أعرف ماذا كان مآلها.

(٤)

في هذا الحيّ الجديد لا تزال هناك -على أطراف المكان- بعض بقايا منازل الحي القديم الذي كنت أعرفه، وهي المنازل التي تجد دائمًا على السلالم المؤدّية إلى مداخلها، سيّدات عجائز يجلسن وهنّ يضعن أيديهنّ على خدودهنّ، يراقبن تماثيل القدّيسين والقدّيسات، من ضحايا اضطهادات الرومان الوثنيين للمسيحيين الأوائل، التماثيل المقامة داخل تجاويف حائطية، بامتداد أسوار بعض حدائق القصور، كأن صاحب القصر يريد أن يقول للصوص، إن منزله يقع تحت الحماية المباشرة لهؤلاء القدّيسين.

إذنْ لا تزال هناك بعض ملامح الحيّ القديم، مثل الأطفال الذين يلعبون في الشوارع، ولا تزال هناك بعض الطيور الداجنة وأربع عنزات صغيرة، تسعى في هذه الشوارع، مع وجود حمارين أو ثلاثة في الخلفية، قد يكون وجودها هنا هو لاستعمالها في التنقّل أو في حمل البضائع. هذا هو ما يثبت أن الأصل الريفي لهذا الحيّ قد ترك بعض ملامحه. لا شكّ في أن بعض سكّان المنازل القديمة، لا يزالون يعملون في فلاحة الأرض الزراعية التي لا تبعد عن هنا كثيرًا. في الزمن القديم كان الرجل

في فترة القيلولة ينام على حصيرة مصنوعة من عيدان الذرة، قبل أن يعود إلى حقله من جديد حتى غروب الشمس.

أما زوجة هذا الرجل، فكانت غالبًا من الصباح وحتى المساء تذهب يومًا بعد يوم إلى الأسواق القريبة، لتبيع منتجات الحقول، وقد وضعتها في سلّة تحملها فوق رأسها، وهي تحاول طول الطريق أن تحافظ على توازن السلّة فوق رأسها، بأن تمدّ إليها إحدى يديها، في حين تكون اليد الأخرى مشغولة بحمل الميزان ذي الكفّتين، الثقيل بسبب وجود وحدات من أوزان النصف كيلو جرام والكيلو جرام، الموضوعة بداخل تجويفه، اللازمة لوزن مشتريات الزبائن من خضروات الحقول. كان من عادة السيّدات الريفيات في الزمن القديم المشي حافيات الأقدام.

في السوق كانت السيّدة الريفية تجلس أولًا على الأرض، ثم على قطعة من الأرض أمامها، تفرش قطعة من القماش، تكون قد حملتها معها من منزلها لهذا الغرض. ثم تبدأ بعد ذلك في إطلاق النداءات التقليدية، بأسماء الخضراوات أو الفاكهة المعروضة أمامها للبيع، من باذنجان وفلفل أخضر وبقدونس وطماطم وكرنب وفول، وفي بعض المواسم يمكنها أن تنادي على الفاكهة، من عنب وتين وخوخ ورمّان وبرتقال وليمون حلو.

أما في مواسم الصيف التي ينمو فيها محصول البطّيخ بكثرة، فكانت الزوجة تغيّر طريقها، فبدلًا من الذهاب إلى السوق، تذهب إلى الطريق الموازي لشاطئ البحر، وهنا لا مفرّ من اصطحاب الحمار، محمّلًا بالبطّيخ فوق ظهره، أو فوق عربة خشبية يجرّها، حسب كمّية

t.me/qurssan

البطّيخ. كان البطّيخ هنا يباع أحيانًا بالواحدة، وأحيانًا بالشريحة، فيتوقّف المصطافون إلى جوار العربة الخشبية لأكل شرائحهم، قبل استئنافهم المشي في اتجاه البحر. قد تجلس الزوجة فوق العربة، وقد يحدث في حالة انتظار الزبائن الرجال إلى جوارها، لفترة تطول أو تقصر، أثناء تناولهم الشريحة، أن تتعرّض الزوجة خاصة لو كانت لا تزال في مرحلة الشباب، إلى وصلة من الغزل.

في هذه الحالة قد يعكّر صفو المزاج العام ظهور الأولاد الفقراء، الذين ينتهزون مواسم الاصطياف للشحاذة في الشوارع الرئيسة، فيقفون عند أبواب السيّارات وقد ارتدوا ملابس ممزّقة، يتعمّدون أن تكون أكثر ملابسهم تمزيقًا، في محاولة يائسة لاستدرار عطف الأثرياء، ثم يضعون أياديهم اليسرى فوق الصدور عند منطق القلب، كأنهم يستحلفون الأثرياء أن يعطوهم شيئًا مما أعطاهم الله، ولا تؤثّر كل هذه الأفعال غالبًا في الأثرياء، فحين تغرب الشمس ويعود الأطفال الفقراء إلى أماكن نومهم الليلية، يذهب الأثرياء إلى المطاعم والحانات حتى الساعات الأولى من الصباح.

هذه هي من ملامح أوروبا الرأسمالية في أوائل القرن العشرين. كل شخص معلّق من (وتر أخيل **tendo achilles**) الخاص به، أو كما يقال في البلاد الشرقية (من عرقوبه). بسبب هذا النوع من التأملات كنت دائمًا أقول، إنه لا ينبغي لأحد أن يحاول يومًا ما، أن يعود إلى حدائق طفولته ومراعي صباه، إلى جنة طفولته المفقودة، محاولًا استعادة الماضي.

(٥)

استأنفت السير بطريقة فيها عظمة وخيلاء، وأنا أحمل خنجري تحت معطفي، مثلما يفعل الرجال في إيران، أو كما كانوا يفعلون سابقًا، في مدن الشرق بشكل عام، الرجال الذين يضعون سيوفًا في أحزمة الوسط، فيسيرون بعظمة وخيلاء، كأنهم ملوك أو وزراء. أريد هنا أن أشير إلى ما خطر على بالي في تلك اللحظة، وهو يتعلّق بملاحظة عن البرازيل، التي يعيش فيها حاليًا عدد كبير من مواطنيها السود، من ذوي الأصول الأفريقية، الذين تحرّروا من عبوديّتهم مبكّرًا، وأصبح من المألوف رؤيتهم في الشوارع وهم يحملون على أكتافهم مظلّات، يمكن استعمالها في الوقاية من الشمس. وحتى لو لم تكن هناك شمس، فهم يسيرون حاملين إيّاها مغلقة على أكتافهم، لأن هذا الفعل أصبح رمزيًّا، في إشارة إلى أنهم تحرّروا من عبوديتهم، ذلك لأنهم في زمن العبودية في الماضي، كانوا ممنوعين من استعمال المظلاّت، التي كانت مسموحًا باستعمالها فقط للبيض، بسبب ما كان معروفًا هناك من ظلم وافتراء وتعنّت رجال الاحتلال الإسباني.

مشيت في الطريق المنحدر المتجه نحو شاطئ البحر، الذي كانت تسير عليه قبل ثمانية أعوام فقط لا غير، الحمير حاملة البطّيخ، وبدلًا من أن أشمّ روائح الزهور والفواكه في الحدائق التي كانت هنا، شممت

t.me/qurssan

روائح المازوت والبنزين المستعمل في السيّارات، التي كانت نادرة جدًّا في طفولتي، ثم أصبحت الآن منتشرة هنا في كل مكان. هذا هو أهم اختراع حتى الآن في القرن العشرين، لكننا ندفع ثمنه باستنشاق الهواء الملوّث بعوادم السيّارات. نحن لا نزال في السنوات الأولى من القرن، ولعل السنوات القادمة تحمل إلينا المزيد من الاختراعات المفيدة.

كلّما اقتربت من شاطئ البحر، ازدادت أشكال المباني تناقضًا مع نفسها، فهناك شاليهات بطرز معمارية مختلفة، لم أكن أراها هنا أبدًا، الأكثر انتشارًا من بينها هو الطراز الأمريكي، فكل ما يأتي من أمريكا أصبحت له الأفضلية. ثم هناك الطراز الإنجليزي، وكذلك هناك الطراز الألماني الذي يطلق عليه اسم (طراز ميونيخ)، بسبب كثرة السيَّاح القادمين إلى جنوب إيطاليا من هذين البلدين، خاصة في فصل الشتاء بحثًا عن الشمس. ثم بدأت أدرك أنني كنت مخطئًا، في اعتقادي بأنه يمكنني الاختباء هنا لبعض الوقت، من الجواسيس الأصفهانيين، بمساعدة بيبينو ابن باسكوالي، حتى أعرف ماذا أنا فاعل بمستقبل أيامي. هنا وقعت لي الحادثة التي ذكرت شيئًا عنها، عندما تحدّثت عن كيبلينج في بداية هذا الفصل.

أمشي الآن في الطريق الموازي لشاطئ البحر، وألمح جزيرة كابري المرتفعة قليلًا فوق المياه الزرقاء، على بعد حوالي ثلاثين كيلو مترًا من مكاني هذا، وهو المنظر الذي نشاهده على البطاقات البريدية (الكارت بوستال)، التي يرسلها زوّار المدينة من السيّاح الأجانب، إلى أصدقائهم في البلاد التي جاؤوا منها، أمريكا وإنجلترا وألمانيا، كدعاية سياحية

لرحلاتهم إلى نابولي. أكتب هذا الكلام سنة ١٩٤٧ وأنا في الثانية والستّين من عمري، وأقول لكم إنني لم أكن أتوقّع أبدًا حجم الشهرة العالمية، التي ستكتسبها هذه الجزيرة لاحقًا، خاصة في فترة السلم النسبي بين الحربين العالميتين.

(٦)

من الغريب أنني أثناء هذه النزهة على الأقدام شعرت فجأة بالاكتئاب، وفكّرت في عدم جدوى الحياة، وفي أن الإقدام على الانتحار، هي فكرة لا بأس بها، رغم سنواتي العشرين وشبابي الغضّ.

١ - فكّرت في جدوى الصراع الذي يمكن أن ينشب بيني وبين أبي، بسبب طول مقاطعتي له ونكراني لجمائله، وهل هو صراع حتميّ لا يمكن تجنّب حدوثه بين الآباء والأبناء، لأنه في الحقيقة صراع أجيال، رغم أن هذا الأب هو الأب الذي نجح في كل مجالات الأعمال التي دخل فيها، وهو الأب الذي وفّر لي ظروفًا جيدةً جدًّا للتعلّم في طفولتي ومراهقتي. ومع ذلك كنت في ذلك الوقت من سنّ العشرين لا أحبّه، أعجب به لكن لا أحبّه، قائلًا بيني وبين نفسي إنه كان غائبًا عن طفولتي ومراهقتي، بسبب كثرة أعماله التجارية. لم تكن لي معه أبدًا علاقة صداقة جيّدة.

٢- فكّرت في أنني من المؤكّد مغرور، وأن غروري هو السبب في سوء علاقتي بأبي، لأنني كنت وقتها في سن العشرين أظنّ أنني أفضل منه، وأنه كان يتعمّد أن يعوق انطلاقي في الحياة، بتكبيلي بالدراسة

t.me/qurssan

الجامعية، لأنه يخشى أن يكون نجاحي أكبر من نجاحه. في الحقيقة أنني لم أبدأ في تقدير القيمة الحقيقية لأبي، أو القيمة الحقيقية للآباء بشكل عام، إلا بعد أن كان أبي قد مات، وكنت أنا قد أصبحت أبًا.

٣- فكّرت أنه بسبب التربية الدينية الكاثوليكية المتزمّتة التي حصلت عليها، بل في الحقيقة التي فرضت عليّ، على الأقل حتى سن الثانية عشرة، تعلّمت في طفولتي شيئًا لا أعرف مدى صلاحيّته في العصر الحالي، وهو أن الغرور خطيئة لا غفران لها، وأنها واحدة من الخطايا الأساسية التي لا غفران لها في نظر آباء الكنيسة، مثل خطيئة التجديف على الله، إذ كان الأب قدّيس هذه المنطقة من إيطاليا وهو (سان فرنسوا الأسّيسي Assisi)، قد قال إن خطيئة الغرور هذه هي السبب في طرد الشيطان من طائفة الملائكة، لأنه تكبّر على خالقه. اعتقدت طوال حياتي فيما بعد مرحلة الطفولة أن الغرور هو خصلة إيجابية، بل قل فضيلة.

٤- فكّرت في أن البشر يتشابهون في كل شيء تقريبًا، فكما قال الفيلسوف توماس الأكويني: البشر كلهم يحتفظون داخلهم بعنصر سمائي نقي، هو النفَس الإلهي الذي نفخه الله في آدم أول خليقته البشرية.

ثمّ إنّ البشر كلهم لهم نفس الملامح الجسمانية الخارجية،

نفس الرؤوس والشعور، ونفس الأرجل الأذرع، ونفس الحواس الخمس،

ونفس الأعضاء الداخلية التي تقوم بنفس الوظائف،

ولهم نفس الجماجم التي تحتوي نفس الأمخاخ، وبالتالي نفس

الإمكانيات الذهنية تقريبًا،

فلم يثبت حتى الآن أن هناك جنسًا بشريًّا واحدًا لا أبيض ولا أصفر، يتفوّق على غيره من الأجناس البشرية في الإمكانيات الذهنية،

كل ما في الموضوع هو تهيئة ظروف أفضل، لدى بعض الدول المتقدّمة،

حتى يحصل أبناؤها على تعليم أفضل، وعلى تغذية صحيّة أفضل، خلال مرحلة بناء الجسم، في فترتَي الطفولة والمراهقة،

هكذا تحصل الدول المتقدّمة على قادتها الفكريين.

وإنه رغم كل أوجه التشابه هذه، إلا أن الأفكار التي تعتنقها هذه الأجناس البشرية تختلف اختلافًا بيِّنًا، بسبب الاختلاف في التجارب والظروف التي تعيشها هذه الأجناس. المشكلة في الواقع هي في أن هذه الأجناس، مستعدّة دائمًا أن تدافع عن أفكارها إلى حد الهوس المجنون، الذي قد يقود البعض إلى قتل أصحاب الأفكار المختلفة. السؤال هو لماذا كل هذا العنف في الدفاع عن الأفكار؟ ألا تستطيع هذه الشعوب أن تتفاهم بطريقة أخرى غير التقاتل؟ كيف يصبح قلب الإنسان مسرحًا لكل هذه المعارك الدموية؟ طبعًا عندما كنت في العشرين من العمر، لم أكن أتخيل أن العالم سيكون مقبلًا على حربين عالميتين، لا يفصل بينهما إلا عشرون عامًا.

فجأة شعرت بالخوف. لم يكن هذا الخوف بسبب خطر خارجي. بل كان الخوف من نفسي. بدأت في الجري في الشارع كأنني كنت أريد

t.me/qurssan

الهرب من خطر ماحق يلاحقني. لكن ليس هناك مَن يجري خلفي. ليس هناك مَن يطاردني. ليس هناك صعاليك خطرون يتسكّعون في الطرقات. لم تكن عصابات المافيا الإيطالية الشهيرة، قد استقرّت بعد في ضواحي نابولي. لم يهاجمني أحد بغية سرقة الخنجر. لم تكن هناك إلا فتاة صغيرة، جالسة في براءة على عتبة باب عمارة سكنية، تتابعني بعينيها.

(٧)

عند انحناء الطريق، وجدت في أحد الأسوار العالية المهجورة بابًا قديمًا لا يزال واقفًا في مكانه منذ عشرات السنين أو مئاتها، أنا أعرفه جيدًا، هو بالكاد يتماسك حتى لا يسقط على الأرض، تمّ تجميعه من قطع خشبية متناثرة، مع بعض ألواح من القصدير، وقد ظلّ باقيًا رغم أن الكثير من الأبواب الحديدية كانت قد ذهبت إلى المجهول، إلى حيث لا عودة. كان هذا هو باب خبيئتي الخاصة، باب جنّتي الخاصة. في الماضي عندما كنت صبيًّا بين السابعة والعاشرة من عمري، كانت حركة واحدة بأحد أصابعي، بالإضافة إلى حركة أخرى من ركبتي تكفيان لفتحه. أقوم الآن بأداء نفس الحركتين لأفتحه وأدخل. أجد أن كلّ الأشياء ظلّت على نفس الحال التي كانت عليها قبل أكثر من عشر سنوات.

كنا أنا وإيلينا نجلس هنا وحدنا في هدوء وصمت. كنت أمسك يد الفتاة الصغيرة في يدي بينما يدقّ قلبانا. هناك لا يزال صوت صرير الحشرات المتعلّقة بأغصان الشجيرات. وهناك لا تزال الديدان الصغيرة خضراء اللون تزحف فوق الطحالب الخضراء. حرارة الجو. الصمت.

أعشاب قليلة متناثرة فوق الأرض. إلى يسار المدخل لا تزال توجد نفس الحفرة في الأرض، التي كنا نعتقد أنها تخصّ الثعابين، تعلوها أغصان كثيفة من شجيرات متشابكة. ثم يأتي جذع سميك لشجرة ورد تحوّلت مع الوقت إلى كتلة ثقيلة من الخضرة الداكنة. إلى اليمين هناك كتل حجرية يبدو بوضوح أنها كانت تنتمي إلى بناء أثري قديم كان هنا، اختفى جزء منه تحت الأرض. ثم تأتي شجرة صنوبر قد يكون عمرها ألف عام.

متذكّرًا كيبلينج بدأت في الحال أحفر بيدي حفرة بمقاسات جسمي، يمكنني أن أنام فيها متمدّدًا على ظهري. كثيرًا ما نمنا هنا على ظهرينا أنا وإيلينا. كنت أصنع لها مخدّة صغيرة من ورق الشجر لتضع عليها رأسها. ثم نظلّ صامتين لا تصدر عنّا أي أصوات، حتى لا نخيف الطيور الصغيرة والعصافير، التي ما جئنا إلى هنا إلا بهدف مراقبتها. اليوم جئت إلى هذا المكان الذي كنت أبحث عنه وكلّي خوف ألا أعثر عليه، أو أن يكون قد زال من الوجود. جئت إلى هذا المكان بغرض الحصول على الشفاء من أمراض الفتور والإعياء والضجر. فأنا مثل كيم بطل رواية كيبلينج، لم أعد أستطيع مواصلة الحياة بهذه الأمراض. أنا مستهلك القوى إلى أقصى حدّ.

لكني في تلك اللحظة قرّرت أنني قبل أن أتمدّد بجسمي في هذه الحفرة التي لم تكتمل بعد، يجب عليّ أن أفعل كما فعل كيم، أن أمارس طقس الاستحمام، أنا في احتياج إلى غسل جسدي بالماء، فلأذهب أولًا إلى شاطئ البحر. ثم في طريق عودتي من البحر، أمرّ بأحد محلّات

t.me/qurssan

البقالة، لأحصل لنفسي على التموين اللازم لغذائي لمدّة أسبوع. خبز وجبن، ولحم بارد مجفّف يحتمل البقاء في العراء بضعة أيام، ونبيذ وماء. لم أفكر في استئجار حجرة في فندق لمدّة ليلة واحدة، ولو من أجل الاستحمام، بل فكّرت في ماء البحر.

ذهبت الى البحر، وعدت من نفس الطريق، الى جنّة طفولتي المفقودة، الى محبسي وصومعتي ومكان نسكي وعبادتي. هكذا كنت أقول لنفسي. ثم بدأت أعدّ نفسي لقضاء ليلتي الأولى. نمت على ظهري ثمّ غطيت جسمي بالتراب حتى مستوى ذقني، واحتفظت بعد ذلك بكل عضلاتي في حالة سكون تام. لم تعد تتحرك في جسمي إلا عضلات تحريك العينين.

كانت عيناي تصعدان مع جذع شجرة الصنوبر الألفي الأعوام، وبدأت ذكرياتي تقفز بين الأغصان، مع طائر الحسّون، من الفصيلة الشرشورية، من رتبة الجواثم المخروطية المناقير. لم أدرس علم الحيوان إلا لاحقًا. هو من بين الطيور النادرة في المناطق الريفية المحيطة بمنطقة ضواحي مدينة نابولي. للأسف الشديد أنه في ذلك الوقت من نهايات القرن التاسع عشر، لم يكن لدينا الوعي الذي لدينا الآن حول منتصف القرن العشرين، إذ كان من الممكن في ذلك الماضي القريب لأي عدد من الرجال أن يطلقوا معًا نار بنادقهم على الطيور، خاصة في فترة بعد الظهر من أيّام الأحد، فيصيبون الطيور في مقتل، دون أي تردّد، أو أدنى شعور بالندم. لم تكن للحياة الطبيعية الحيوانية -المحيطة بالبيئة المدينية في أوروبا- كل هذه الأهمية التي لها الآن.

كان الرجال إذنْ يصطادون هذه الطيور، ثم عند غروب الشمس يشوونها ويأكلونها في صخب كبير، وسط الطبيعة بين الرجال، أو يعودون بها إلى منازلهم، ليأكلوها مع نسائهم وأطفالهم، مع عصيدة دقيق الذرة، ضمن أطباق وجبة العشاء. إلى أن حدثت واقعة -مع غيرها من الوقائع والأحداث المشابهة- جعلت كل الرجال يعيدون التفكير في تلك العادة البربرية. إذ ماتت إيلينا في نفس هذا المكان الذي أنا فيه الآن، بعد ظهر يوم أحد، بطلق ناري في الصدر، جاءها من حيث لا تدري، من بندقية رجل ظلّ مجهولًا، لأنه كان واحدًا من بين عشرات الرجال.

كنا نستلقي هكذا على ظهرينا نتحدّث، كما كنا معتادين أن نفعل، عندما صمتت فجأة دون صرخة ألم واحدة، نظرت إليها فوجدت على قميصها بقعة حمراء تتسّع، فجريت صارخًا أطلب العون. منذ تلك اللحظة قبل عشرة أعوام، هذه هي المرّة الأولى التي أدخل فيها هذه الحديقة المهجورة. إذنْ بدأ كل الرجال بعد هذا الحادث في الشعور بالذنب، ثم بدأوا يتوقّفون واحدًا بعد الآخر، عن ممارسة هذا الطقس في بعد ظهيرة أيام الأحد، ثم صدر قانون بمنع إطلاق نار على الطيور بالقرب من المناطق السكنية.

(٨)

هكذا كانت عيناي تدوران في فراغ المكان، بسبب التشتيت الذهني الذي أحدثته لي الذكرى الحزينة، ثم إذا بهما تستقرّان على لوحة رخامية صغيرة، مثبّتة بالمسامير على جذع شجرة الصنوبر، لم أكن قد لاحظت

t.me/qurssan

وجودها عند دخولي المكان. قمت من رقدتي على الأرض لأقرأ المكتوب عليها. هذا هو المكتوب عليها (قبر الشاعر اللاتيني فرجيل) بالبنط الكبير، ثم ببنط أصغر هناك اسم وعنوان السمسار العقاري، الذي يمكنه أن يبيع لك هذا العقار، وقد تمكّن شخصٌ ما من محو أغلب تفاصيله، بحيث لا يمكن لأي زبون محتمل أن يستدلّ عليه!! هنا لم يعد باستطاعتي أن أتمدّد من جديد على الأرض، وأحاول أن أنام. لن أتمكن من العودة إلى النوم، بسبب المكتوب على هذه اللوحة.

تحرّكت جيئةً وذهابًا في المكان المحدود المتاح للحركة، عشرات المرّات وأنا أفكّر. كانت يداي في جيبي سروالي تعبثان بقطع النقود المعدنية، فيصدر عنها صوت أقرب إلى صوت الأجراس. إذا كان هذا القبر لا يزال معروضًا للبيع، قد يكون بيعي لماسة أو اثنتين من تلك الموجودة في خبيئة الخنجر كافيًا لشرائه. لم أكن أفكر في الشاعر فيرجيل، رغم أهميته في الآداب اللاتينية، لو أن هذا هو حقًّا قبره، بقدر ما كنت أفكّر في استرداد جنّة طفولتي المفقودة.

سأتوقّف هنا لحظة عن سرد وقائع وأحداث نابولي سنة ١٩٠٦، عندما كنت في العشرين من العمر، لأذكر لكم أنني لم أتمكن من شراء القبر، ونسيت الموضوع تمامًا، إلى أن عدت من جديد إلى نفس هذا المكان سنة ١٩٢٦، بعد أن أصبحت في الأربعين من العمر. في ذلك الوقت كنت أقيم في روما، وأعمل في مجال كتابة القصّة والسيناريو والحوار، لبعض أوائل الأفلام الإيطالية الناطقة، التي يمكنكم أن تجدوا اسمي على مقدّماتها بصفاتي تلك. في سن الأربعين، في منتصف عقد

العشرينات من القرن العشرين، الذي عاشته أوروبا لاهية عابثة، لفترة مؤقّتة عابرة بين حربين عالميتين، لاحظت وجود إعلان ظهر في الجرائد عدّة مرّات، يشير إلى بيع قبر فيرجيل، في نفس الموقع المشار إليه أعلاه.

مع ظهور المزيد من التفاصيل، عرفنا من الجرائد، أن الضامن لجدّية البيع والشراء، وأصالة الموقع التاريخي الأثري، هو أكبر مكتب للمحاماة ولتوثيق العقود في روما في ذلك الوقت. ثم ظهرت شهادات من علماء آثار يؤكّدون صحّة هذه البيانات، الدالة على أن هذا القبر هو فعلًا للشاعر فيرجيل. لكني تساءلت هل تسمح الدولة الإيطالية ببيع وشراء الآثار؟ وتساءلت كذلك عن معنى هذه الشهادات؟ وعن جدوى شراء أثر تاريخي؟ هل من سيشتريه سيعيد فتحه للزيارة مقابل تذكرة دخول؟ في الحقيقة كانت قيمة هذه المساحة من الأرض، في سوق العقارات، لو فكّر من سيشتري القبر في استعمال الأرض في البناء، أقل بكثير من الثمن المطلوب في هذه القطعة من الأرض كقيمة أثرية.

الشيء الغريب هو أن هذا القبر لم يُبع، بدليل أنني عدت إلى قراءة نفس الإعلان، بعد تقريبًا عشرين سنة أخرى، في أوائل سنة ١٩٤٤ قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية، هذه المرّة باللغة الإنجليزية في الجرائد الأمريكية، بمناسبة رسو السفن الحربية للأسطول الأمريكي، على شواطئ سالرمو في جزيرة صقلية أولًا، ثم بعد ذلك على سواحل شمال إيطاليا، وبمناسبة إنزال القوّات الأمريكية من سلاح المشاة للالتفاف على هتلر من الجنوب.

الآن وأنا أكتب هذا الكلام سنة ١٩٤٧، ورغم تكرار ظهور الإعلان

t.me/qurssan

طوال كل هذه السنوات، ورغم كل هذا الإلحاح على البيع، الذي لم يتم أبدًا، وكل هذا الاهتمام بإظهار قيمة هذا الشاعر، لديّ إحساس عميق أن هذه العملية من بدايتها إلى نهايتها، لم تكن إلا عملية نصب كبيرة، وراءها مجموعة من النصّابين الإيطاليين غالبًا من رجال المافيا، الذين تزخر بهم شوارع مدينة نابولي، بل تزخر بهم حتى قصور نبلاء المدينة وكنائسها. أصبح لديّ اقتناع عميق بأن هذه القطعة من الأرض لم تكن لها أبدًا أيّ علاقة على الإطلاق لا بالشاعر فيرجيل ولا بأي شاعر آخر.

(٩)

يبدو أنني لست جادًّا في التجربة التي أريد أن أعيشها، فبعد أن عدت إلى الحديقة المهجورة، تذكّرت أنني لم أشترِ السجائر، فأردت أن أخرج من جديد لأعود إلى السوق. ثم وأنا أدخّن السجائر، صعدت إلى قمّة التلّ الأثري الموجود في الحديقة، واستندت بجسمي إلى جذع شجرة الصنوبر الضخمة، أتأمّل البحر الذي يمكنني أن أراه بوضوح من موقعي هذا. كان سواد البحر قد اكتسب لونًا فضّيًّا بفضل قرص القمر الكامل الاستدارة. لم تكن الأضواء الصفراء الهافتة المشتّتة، القادمة من المدينة في هذا الوقت من الليل، قادرة على التأثير في اللون الفضّي الغالب على الصورة. بدت لي الكتلة الجامدة الغامضة، لجبل بركان فيزوف، مثل جسد هائل لبوذا الجالس القرفصاء. هكذا كانت روحي هائمة في الفضاء، عند ظهور أول أضواء الفجر، فبدأت النجوم تختفي واحدة بعد أخرى.

تمكنت من قضاء ثمانية أيام بلياليها، معزولًا عن العالم في هذه الحديقة المهجورة، مثل كيم في رواية كيبلينج، ممدّد الجسم في حفرة ترابية خلال النهار، مع فارقين اثنين، أولهما أنني لم أستطع مقاومة الرغبة العنيفة أثناء النوم، في التقلّب بجسمي على الظهر وعلى الجانبين، وثانيهما أنني كنت أعود إلى الوقوف أعلى التلّ أتأمّل البحر، خلال الساعات الأخيرة من الليل. بسبب قلّة الحركة أصبت مرّات عديدة بتقلّصات عضلية مؤلمة في الساقين، فبقيت أتلوّى في مكاني، أفرد جسمي ثم أثنيه، كما لو كنت دودة أرض. ثم حدثت كذلك تقلّصات في عضلات الفكّين، أدت إلى أن أعضّ لساني. لعنت كيم، ولعنت كيبلينج، ولعنت الوجود كله.

أردت أن أتفوّق على كيم بالبقاء في هذه التجربة ثمانية أو عشرة أيام، بدلًا منه هو الذي اكتفى بأسبوع واحد، لكنني في اليوم الثامن، أدركت أن الوضع أصبح مستحيلًا. إمّا أن ما رواه كيبلينج غير حقيقي، ومن نتاج خياله الخصب، أو أنني غير سليم النفس أو البنية، مصاب بداء ما عضال. أثبتت تجربتي أن فكرة البقاء في قبر من تراب غير مجدية تمامًا، ولم أشعر بأن لها أي تأثير إيجابي، لا على النفس ولا على الجسد.

كان التأثير السلبي الأوضح هو على ذاكرتي، إذ أصبت بحالة من اعتلال الذاكرة paramnesia، وهي حالة تختلط فيها الحقائق بالخيالات، بل ويتعذّر فيها أحيانا تذكّر المعاني الحقيقية للكلمات، فالأصوات التي تخرج من فمي، لا تحمل معاني الكلمات التي أريد أن أقولها. أما جسمانيًّا فقد انتهى بي الحال في اليوم الثامن إلى الإحساس

t.me/qurssan

بأني غير قادر على تحريك أطرافي الأربعة، كما لو أنني كنت قد أصبت بشلل رباعي. ثم انتابني إحساس كما لو أن تيّارًا من الماء البارد يجتاح جسمي، حتى أنني شعرت كما لو أنني سأتحوّل إلى كتلة من الثلج.

كان كل السحرة الذين قابلتهم في رحلاتي إلى دول العالم القديم المختلفة، يقولون إن حضور الشيطان في جسم إنسان، يصاحبه شعور ببرودة تجتاح الجسم. قد يحدث هذا كذلك لبعض الأشخاص عند زيارة منطقة مدافن. هناك شهادات عديدة مكتوبة في هذا الموضوع. أما أنا فأكتب لكم عن مشاعري النفسية وأحاسيسي الجسدية، بالترتيب الذي ظهرت به في حالتي: الإحساس بالدوار والغثيان/ المعاناة من الإمساك/ حركات غامضة في الأمعاء الرفيعة/ دوالي الساقين/ احتقان في أوردة الشرج (بواسير؟)/ الإحساس بديدان تزحف تحت الجلد/ كما لو أن هناك عقدًا عصبية تتراكم في مسالك الأعصاب/ رغبة في التقيّؤ/ انتفاخ في منطقة البطن/ شلل في الأطراف الأربعة/ اجتياح الإحساس بالبرودة. انتفضت واقفًا في مكاني خوفًا على نفسي من الموت.

(١٠)

عندما قابلته لاحقًا وسألته بخصوص قبر فيرجيل، قال باسكوالي:

١ - (إن هذه الحديقة المهجورة حيث القبر المزعوم، كانت دائمًا أرضًا سيّئة السمعة، بسبب الألعاب الشيطانية التي تحدث فيها منذ الزمن القديم وحتى الآن، إذ حدث في الزمن القديم أن لجأت ساحرة شرّيرة إلى الاختباء فيها، في زمن العبادات الوثنية الذي كانوا يقتلون فيه

الساحرات).

٢- (هذا هو السبب في أن أحدًا لم يُقبلْ على شرائها رغم عرضها للبيع لمدة عشرات السنوات، وقد تدنّى ثمنها جدًّا مؤخّرًا، ورغم موقعها المتميّز على حافة الطريق الرئيس المؤدّي إلى نابولي، حيث تمرّ كل يوم مئات السيّارات والعربات المحمّلة بالبضائع، إلا أن أحدًا لم يفكّر في استغلالها كمخزن للبضائع، تبيت فيه البضائع ثم تعود صباح اليوم التالي إلى الأسواق في نابولي، ولم يفكّر حتى في استغلالها كمستودع للوقود).

٣- (هناك حلّان محتملان، فإمّا أن فيرجيل هذا كان ملحدًا ملعونًا من السماء، بسبب أشعاره التي تطاول فيها على السماء، أو أن يكون الشياطين راضين عنه ويقومون بحمايته، لذلك لم يندهش أحد عندما ماتت الطفلة المسكينة إيلينا هنا، إذ أصابتها لعنة المكان، وقد تساءل الكثير من سكّان الحيّ والأحياء المجاورة كيف أن عشرات القدّيسين والقدّيسات الذين يملؤون كنائس الحي والأحياء المجاورة، لم يستطيعوا حماية إيلينا من الشيطان؟).

t.me/qurssan

ليلة العيد

(١)

كل عواصم العالم ومدنه الكبرى، تحتفل بيوم يطلق فيه العنان لكل الغرائز والرغبات، أو بليلة يسمح فيها بكل أشكال الجنون. يحدث هذا في مونمارتر بباريس، وفي نيو أورليانز في جنوب الولايات المتحدّة على سواحل الكاريبي، وفي شيكاجو على سواحل بحيرة ميتشجان، وفي شنغهاي على بحر الصين. في البارات وصالات الرقص المضاءة حديثًا بالكهرباء، حتى في أثناء ساعات النهار.

١ - في أمريكا الجنوبية، هناك مثلًا يوم الاحتفال بالكرنفال في ريو دي جانيرو، حيث ترقص بعض الراقصات شبه عاريات طوال الليل في الشوارع، مما يولّد موجة من الجنون لدى شباب المدينة. وهناك كذلك الأيام الثلاثة للاحتفال بالقدّيس بدروس في مكسيكو سيتي، فرغم الطابع الديني لهذا الاحتفال، إلا أن الجنون والمجون يغلبان على تصرّفات الجميع، بفضل كمّيات الخمور المندلقة في الأجواف، والمتاحة مجّانًا

على نواصي الشوارع.

٢- في ليلة الاحتفال بالعام الميلادي الجديد في نيويورك، حيث يغزو زنوج حيّ هارلم شوارع برودواي، بأجراسهم التي تردّد ناطحات السحاب أصداءها، يحدث أن تدخل مجموعات منهم بشكل مرتجل إلى البارات وصالات الرقص، وهم يحملون أسطال الماء المثلّج، يقذفونه على الراقصين، كنوع من الانتقام من مجتمع البيض العنصري.

٣- في نفس تلك الليلة يغزو سكان الحي الصيني في نيويورك (تشاينا تاون **China Town**) المدينة كلها، بكل أنواع الأعشاب المخدّرة، بحيث تصل روائح هذه الأعشاب إلى كل حواري المدينة وأزقّتها، ثم يخرج الصينيون إلى المناطق الريفية في أطراف المدينة، حيث يطلقون مناطيدهم في السماء، التي تتخذّ أشكال التنّين الصيني دراجون **dragon**.

٤- أما في شيكاجو، عاصمة الجريمة في الولايات المتحدّة، يخرج رجال العصابات إلى الشوارع وهم يرفعون مسدسّاتهم في أيديهم، يطلقون الرصاص في الهواء، وهو المناخ العام الذي يحبس الناس التقليديين في بيوتهم، ويشجّع اللصوص الصغار تحت التمرين على ارتكاب سرقاتهم الأولى، ويشجّع كذلك مدمني المخدّرات وفتيات الليل على النزول الى الشوارع في ضوء النهار، دون محاولة للتستّر.

٥- وفي أوروبا هناك مثلًا في إيطاليا ليلة المغارة جروتا **Grotta**، ليلة الاحتفال بمهرجان الغناء في بيا دي جروتّا، وهو اسم مغارة حقيقية تقع في مدينة نابولي، يتجمّع حولها الآلاف للمشاركة في مسابقة للغناء

t.me/qurssan

طوال الليل، في احتفال شعبي يزخر بكل أشكال المواكب، التي ترقص فيها الفتيات رقصتهنّ المميّزة المعروفة باسم التارانتيللا، ويطوف الرجال فيها بالمشاعل، ويستغلّ بعضهم هذا التزاحم، في اختلاق شجارات يكون المقصود منها هو تصفية بعض الحسابات القديمة.

٦- وفي مارسيليا تكون ليلة الجنون والمجون هي عندما يتمّ الاحتفال بليلة الجمعة الحزينة، وهي جمعة صلب المسيح. فرغم الطابع الديني القديم لهذه الليلة، إلا أن شعب مارسيليا يحتفل بها في لهو عظيم، يبدأ بالمآدب التي تمتدّ في كل مكان، إذ يقوم القصّابون بذبح مئات الذبائح، مما يتيح لآلاف البشر تناول وجبة دسمة من اللحوم، مع احتساء كميّات هائلة من الخمور والأنبذة، ثم الانطلاق طوال الليل في الشوارع لارتكاب كل ما يخطر أو لا يخطر على البال من الموبقات. في تلك الليلة يختفي رجال الشرطة، ولا عزاء للكنيسة.

(٢)

في ليلة الاحتفال بعيد الميلاد، عند وصولنا إلى روتردام في هولندا، دعاني كاتب السفينة وهو من أهل المدينة، إلى الخروج معه إلى المدينة، قائلًا: «سنذهب للاحتفال بالعيد عند أختي، ولكن عليك أن تحضر مسدّسك معك، وتتركه في جيبك محشوًّا بالرصاص، لأننا عند عودتنا أثناء الساعات الأولى من الصباح، سنضطرّ إلى المرور بالحيّ الذي يكون سكّانه مطلقي العنان في الشوارع، وفي حالة من غليان المشاعر».

ثم شرح لي بعد ذلك كيف أنه من المتعارف عليه في هذه الليلة،

أن يتعارك الناس ويتشاحنون في الشوارع، دون أن يكون هناك أي سبب واضح، إنها فقط ما يسمّونه (عراك عيد الميلاد)، أو (المشاجرة الكبرى)، وربّما سيكون علينا أن نقاتل، حتى نتمكّن من العودة إلى ظهر السفينة.

كنت قد قرّرت مسبقًا أن تكون تلك الرحلة الأخيرة عبر الأطلنطي، على السفينة فولتورنو، هي رحلتي الأخيرة التي أحصل بعدها على إجازة طويلة من السفر عبر البحار، على أن أعود بعد الإجازة إلى السفر من جديد، أو قد لا أعود أبدًا بعد ذلك إلى السفر من جديد، كل ما كنت متأكّدًا منه، هو رغبتي في البقاء أطول فترة ممكنة، على الأرض الثابتة.

كانت سفينتنا في تلك الرحلة الأخيرة، هي آخر سفينة تخرج وحدها إلى بحر البلطيق، لأنه بعد ذلك مباشرة أصبح من المعتاد، أن تسير السفن معًا في قوافل من بضعة سفن، خلف كاسحات الجليد الروسية، توفيرًا للنفقات وتحسّبًا لأي طوارئ قد تحدث لأيّ سفينة منها. كان من المفترض أن نرسو في ميناء ليباو **Libau** بلاتافيا، لكن اضطررنا إلى الذهاب إلى روتردام، بسبب الجليد في بحر الشمال، الذي كان يعوق تمامًا تقدّم سفينتنا.

عند وصولنا إلى روتردام، بدونا للجمهور الواقف على الرصيف كما لو كنا شبحًا هائلًا يخرج من الضباب الكثيف، أو كما لو كنا سفينة تابعة لإحدى البعثات العلمية، التي تجري أبحاثها في منطقة القطب الشمالي، فكل عتاد السفينة كان مغطّى بطبقة من الجليد، الذي يتعلّق في الهواء، أو يسقط في شكل رواسب هابطة رأسيًّا على أرضية السفينة، وهو ما يسمّيه علماء الجيولوجيا الستالاكتايت **stalactite**.

t.me/qurssan

بالإضافة إلى البضائع المشحونة على السفينة، كان عليها كذلك العشرات من المهاجرين البولنديين، العائدين إلى أوروبا بعد أن رفضتهم مكاتب الهجرة في أمريكا، غالبًا بسبب تقدّمهم في السن، وكان من بينهم بعض العجائز، الذين تعرّضوا لحوادث كسور عظام الأذرع أو الأرجل، بسبب وجود طبقة الجليد الكثيفة التي تغطّي أرضية السفينة، وتؤدّي إلى تزحلق السائرين عليها، أو أنهم قد تجمّدت أطرافهم من شدّة البرد مع قلّة الحركة، لذلك كان هناك على الرصيف محفّات لنقل المصابين إلى مستشفيات روتردام.

(٣)

كانت الساعة قد أصبحت الرابعة بعد الظهر، وهذا هو موعد حلول الظلام في هذه المناطق من شمال أوروبا، خاصة خلال فصل الشتاء الذي يختصر فيه النهار بين شروق الشمس وغروبها إلى سبع ساعات. إذنْ في الساعة الرابعة مساءً بدأت بلدية روتردام في إضاءة مصابيح الشوارع، شارعًا شارعًا في كل أحياء المدينة واحدًا بعد الآخر، فينتشر في كل مكان صوت أزيز الكهرباء في الأسلاك الهوائية.

كان عمّال الفترة المسائية قد صعدوا إلى سطح السفينة ليبدأوا عملهم في تفريغه من البضائع، ثم في الغوص داخل تجويف بطن السفينة لتفريغه هو الآخر من البضائع. كانوا عند النزول إلى بطن السفينة يضطرّون إلى حبس أنفاسهم، بسبب الروائح النتنة التي تخرج من التجويف، لذلك كانوا يدخلون فيه ثم يخرجون منه بسرعة، قبل أن

تصيبهم هذه الروائح بالإغماء.

كنت أرى عمّال الشحن والتفريغ وهم يتدافعون مسرعين، وهم يعرّضون أنفسهم لاحتمال فقد التوازن على سلالم الهبوط والصعود، بين السفينة ورصيف الميناء، لأنه كان من المعروف كذلك أنه من بين أسباب ضرورة الإسراع في تفريغ السفينة من بضائعها، هو أنه كان على هذه السفينة أن تعاود الإبحار في الرابعة من صباح اليوم التالي، لتترك مكانها على الرصيف لسفينة أخرى ستصل في هذا التوقيت. لم تكن طاقة الميناء الاستيعابية تكفي الحاجة المتزايدة إلى مزيد من الأرصفة.

عندما نزلت إلى الرصيف لم أكن أرى إلا صواري السفن وروافع شحن وتفريغ الحاويات الضخمة. إلا أنه بابتعادي التدريجي عن الرصيف أمكنني أن أرى مداخن المصانع الواقعة في المنطقة الصناعية، على أطراف مدينة روتردام، وكذلك رؤية الأسطح المرتفعة لبعض المباني الحديثة بالمدينة، ويعلو فوق المصانع والمساكن، أمكنني أن أرى طبقة من الضباب الكثيف، الذي يميل إلى اللون الأصفر، بلون طبق البطاطس المهروسة مع البازلّاء. لا شكّ في أنني كنت أشعر بالجوع.

عند مغادرة الرصيف كنّا -أنا وكاتب السفينة- نتعثّر وتتخبّط أرجلنا في الوحل، عند المشي فوق طبقة الطين المبتل بماء المطر، أو بماء ذوبان الثلوج في بعض المواقع. ورغم المعاطف الواقية من المطر (ووتر بروف)، وأغطية الرأس الصوفية، إلا أننا كنا نشعر بالبرد وبالبلل، إذ لم تكن السحب السوداء المنخفضة تتشتّت، إلا بعد أن تتبول ماءها علينا.

روتردام هي بالنسبة لي أكثر المدن الأوروبية كآبة وعبوسًا وسوداوية.

t.me/qurssan

مدينة متجهّمة منفّرة كريهة، وأستطيع أن أجد المزيد من نفس هذه النوعية من الصفات. الوحيد من أهل هذه المدينة التي بدت على وجهه ملامح ابتسامة، هو زميلي كاتب السفينة، وذلك لسبب بسيط، وهو أن قدميه لم تكونا قد وطأتا تراب مدينة مسقط رأسه هذه منذ سنوات طويلة، لأنه في كل مرة كانت سفينته تصل إلى هذا الميناء، كان يرفض مغادرتها. أما باقي أهل المدينة فوجوههم دائمة العبوس.

كان يحدث أحيانًا أنه عندما نكون أنا وكاتب السفينة في آنتويرب، وهي على مسافة قصيرة من روتردام لا تزيد عن سبعين كيلو مترًا، وبينهما خط للسكّة الحديد يقطع المسافة في أقل من ساعة، أن يفكر في الذهاب لرؤية أهله وزيارة ذويه، إلا أنه كان دائمًا ما يتراجع عن تنفيذ هذه الفكرة، لسبب كان يبدو لي تافهًا، إذ كان يقول لي: «كيف له وهو البحّار العظيم أن يعود إلى مسقط رأسه بالقطار لا بالسفينة؟». إذ كان يعتبر هذا هو نوع من المهانة والإذلال. كان بيتر كاتب السفينة قد ترك روتردام وهو في الرابعة عشرة من العمر، ليبدأ جولات الطواف حول العالم عشرات المرّات خلال عشر سنوات، دون أن يعود مرّة واحدة إلى روتردام.

(٤)

لذلك قال لي بيتر في ليلة الاحتفال تلك بعيد الميلاد: «أنت تفهم طبعًا صعوبة الموقف الذي أجد نفسي فيه، فأهلي لم يروني منذ عشر سنوات، وقد مات خلال تلك الفترة عدد من عجائز العائلة ومن بينهم والدي ووالدتي، ولم يعد لي في روتردام إلا أخت واحدة فقط لا غير،

وقد تزوّجت من رجل يعمل في السكك الحديدية، وأصبح لديهما عدد من الأولاد، أعتقد أنهما قد أنجبا نصف دستة أولاد، في الحقيقة أنا لا أعرف العدد بالضبط، وفي كل مرّة توقّفت فيها السفينة في ميناء روتردام، كنت أشتري لأولاد أختي الكثير من الهدايا، إلا أنني لم أجد أبدًا الشجاعة للذهاب إلى زيارتها، حتى جئت أنت معي اليوم وشجّعتني، وأنا متأكّد أنهم اليوم سيحسنون استقبالنا، وذلك لأن حقيبتي مليئة بالهدايا لكل فرد منهم».

ثم ظلّ يعدّد أصناف الهدايا: «لو كانت هناك فتاة صغيرة فلها مني عرائس مكسيكية ويابانية، ولو كانت الفتاة أكبر سنًّا فلها مني حليّ من الأصداف البحرية، ولزينة المنزل لديّ تماثيل وأقنعة من جزر المحيط الهادئ ومن إفريقيا، يمكن أن تعلّق على الحوائط، وكذلك لديّ عصافير حقيقية محنّطة، يمكن تعليقها في السقف بخيوط خفيفة غير مرئية، وطائر البومة الميكانيكية وهو أحدث اختراعات نيويورك في مجال لعب الأطفال، بالإضافة إلى تماثيل صغيرة لضفادع تقفز من مكانها وهي من جواتيمالا، بالإضافة إلى الكثير من الهدايا الأخرى التي تعجب الصبيان».

مرّرنا بأحواض السفن، ثم تجاوزناها إلى أسوار الميناء، التي خرجنا من إحدى بوّاباتها، ثم عبرنا جسرًا فوق قناة مائية، لنصل إلى الحيّ القديم بروتردام، إلى القلب التاريخي للمدينة، بشوارعه الضيّقة الدافئة نسبيًّا، لعدم وصول تيّارات الهواء البارد إليها. لم يكن هذا الحيّ القديم مشتعلًا بالمعارك مثلما جعلني بيتر أتوقّع، أو أن ساعة المعارك لم تكن قد حانت بعد.

t.me/qurssan

كانت الأجزاء السفلية من المنازل تبدو متآكلةً، كما لو كانت مصابةً بداء البرص، بسبب أن أحجارها السفلية تغوص في ماء القنال الأسود، أما الواجهات بنوافذها الثلاث أو الأربع، فيبدو عليها بوضوح أن الأحجار المستعملة في بنائها لم تكن متساوية في الحجم، ولم تكن موضوعةً في أماكنها بطريقة متناسقة. كل هذه المباني كانت ترتفع فوقها الأسقف الجمالونية الهرمية الشكل، التي يفضّلها معماريو هذه المناطق حتى لا تتراكم مياه الأمطار فوق مبانيها، بل تنزلق منها بسهولة إلى الشوارع. كانت هناك رائحة سرطانية عفنة تفوح في الأجواء، بسبب مياه القنال الراكدة المائلة إلى الاخضرار.

(٥)

من أبواب الخمّارات نصف المفتوحة كانت تصلنا موسيقى عصبية متشنّجة من آلة بيانولا أوتوماتيكية، لم تكن تحتاج إلى عازف عليها، بل كانت تذيع وتعيد إذاعة عدد محدّد من المقطوعات الموسيقية، بالإضافة إلى ضوضاء إيقاع مئات الأقدام في القباقيب الخشبية السميكة، التي لا يضعها البشر في أقدامهم إلا في هولندا، فهي تقاوم برودة الجوّ وابتلال الطرقات بالماء، هذه القباقيب تقرقع طول الوقت على أرضية الشوارع شبه الممهّدة وعلى الأرصفة.

كان المئات من البشر يتسكّعون في الشوارع الضيّقة، حول العربات الخشبية التي يضع أصحابها عليها، الأنواع المختلفة من الأسماك التي يبيعونها، بالإضافة إلى الخضراوات والفواكه من فصول السنة الأربعة.

ورغم أننا في ليلة عيد الميلاد إلا أن السيّدات لم يكنّ متأنّقات في ملابسهنّ بشكل خاص، وإنما هنّ كنّ في ملابسهنّ العادية، من تنّورات صوفية طويلة تكرمشت بفعل ماء المطر، وشرابات سيقان تكرمشت هي الأخرى وسقطت فوق الأحذية التي تلطّخت بالطين. لن يكون تأنّقهنّ إلا بعد أن يقمن بإعداد وجبة العشاء. لكنهنّ بسبب برودة الجو، كنّ يضعن على أكتافهنّ وصدورهنّ أقمشة ذات وبر كثيف، وبسبب المطر كانت خصلات من شعور رؤوسهنّ قد التصقت بجباههنّ. كنّ يمسكن في أيديهنّ بحافظات النقود، ويعلقن على أكتافهنّ السلال القماشية التي يضعن فيها المشتريات من المؤن الغذائية.

لم تكن هناك طوابير إلا أمام محلات بيع لحوم الخنازير المتنوّعة، المقطّعة والمغلّفة في أوزان صغيرة، وقد تضطرب هذه الطوابير بسبب الأطفال الذين يقفون فيها إلى جوار أمّهاتهم. لحوم الخنازير هي الوجبة الرئيسة على المائدة الأوروبية طوال فصل الشتاء، التي تؤكل مع أطباق الشوكروت التي تتكوّن في الأساس من الكرنب المسلوق المملّح بعد أن يضاف إليه الخلّ. ورغم أن الكرنب هو من محاصيل خضروات شهور الصيف، إلا أن التخليل والتمليح يسمحان بالاحتفاظ بالكرنب في برطمانات، صالحًا للأكل طوال شهور فصل الشتاء. بالإضافة إلى أنواع مختلفة من فطائر الشوفان، المحشيّة بسجق ومقانق الكبد.

كانت واجهات محلات بيع لحوم الخنزير، قد غمرتها الأضواء الكهربائية، حتى يتمكن الزبائن بسهولة من قراءة البطاقات المكتوبة عليها أسعار البضائع، مع بطاقات أخرى مكتوبة بحروف ذهبية أو فضّية كبيرة،

t.me/qurssan

كل بطاقة منها بلون مختلف، تتمنى للجميع (عيد ميلاد سعيد). أتعجّب ماذا كانوا يفعلون قبل اختراع الكهرباء قبل بضع وعشرين عامًا فقط لا غير، بالمناسبة لقد ولدت في نفس العام الذي اخترعت فيه الكهرباء، لكنها احتاجت بضع سنوات حتى وصلت إلى شوارع روتردام. يقدّم المحل تماثيل صغيرة من الفخّار تمثّل خنازير ضاحكة، كهدايا مجّانية إلى أطفال عميلات المحل.

لاحظت أن أسعار البضائع مبالغ فيها جدًّا، بسبب رغبة أصحابها في تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب المالية، خلال أكبر موسم للأعياد في السنة، الذي يعتبر أفضل مواسم البيع، الذي يبدأ قبل أسبوع من يوم ٢٥ ديسمبر، وينتهي صباح الاحتفال باليوم الأوّل من العام الجديد. لهذا السبب يكون التجّار ودودين جدًّا نحو زبوناتهم من عميلات المحلّ، في محاولة من التجّار أن يجعلوا الزبونات لا يتردّدن طويلًا، ويقتنعن بالشراء. وبقدر ما يكون سكان الحيّ من الفقراء، بقدر ما يكون التجار لطفاء. تناسب طردي.

(٦)

في كل الشوارع كنا نقابل بحّارةً من سفينتنا، ومن غيرها من السفن الراسية في الميناء، الذين كنا نعرفهم بفضل ارتدائهم لأزياء البحّارة الموحّدة، الزرقاء اللون للبحرية الأمريكية، والمعاطف القصيرة للبحرية الفرنسية. كان أغلب البحّارة ضخام الأجسام طوال القامة، يبدون عمالقة أقوياء بالمقارنة بمتوسّط الطول لدى رجل الشارع الهولندي. كان هناك

في سلوك البحّارة قدر من الرغبة في العبث والتعابث، مع قدر آخر من البجاحة والصفاقة، وهو ما يبدو واضحًا في كل تصرّفاتهم. قد يكون هذا السلوك بسبب تفاخرهم بضخامتهم وبكثرتهم العددية في أزيائهم الموحّدة، أو قد يكون بسبب طبيعة المناسبة التي يحتفلون بها هذا المساء، أكبر أعياد السنة أهمية بالنسبة للجمهور الأوروبي.

لاحظت أن الرجال المحلّيين الواقفين في أركان الشوارع، أو على أبواب الخمّارات نصف المفتوحة، يتلصّصون بأعينهم نصف المختفية تحت قبّعاتهم، يحاولون متابعة البحّارة السائرين في الشوارع. يبدو توتّرهم من الحركات العصبية لأفكاكهم السفلية، كأنهم يرتعشون بسبب البرد، رغم التلفيحات الصوفية التي يلفّونها حول أعناقهم. تبدو أسنانهم وضروسهم الذهبية، عندما يفتحون أفواههم ويقذفون ببصقات كبيرة على أرضية الشارع، يمكن لهذه البصقة أن تبدو كما لو كانت موجّهةً إليك أنتَ، خاصةً إذا تمّ ربطها بالطريقة المزدرية، التي ينظرون بها إليكَ، كما لو أنهم يقيسون قامتك، لمعرفة إمكانية أن يصارعك أحدهم في حالة نشوب قتال. في هذه اللحظات فقط أدركت أن بيتر زميلي كاتب السفينة محقٌّ فيما أنذرني به وأخافني منه.

كنت على وشك أن أشعر بالاستفزاز، فأنت تستفز بسهولة عندما تكون في بداية عشريناتك، لكن بيتر جذبني من ذراعي لنبتعد عن مكان البصقة. كانت البارات والمطاعم تمتلئ بالرجال بالتدريج، وكانت الأضواء القويّة المؤذية للعيون تملأ جنباتها. دخلنا أحد هذه البارات، وذهبنا إلى حاجز الكاونتر الخشبي، الذي تجمّع أمامه عدد من البحّارة،

t.me/qurssan

ووقف خلفه النادل يقدّم لزبائن البار طلباتهم من المشروبات الكحولية، التي يستهلكونها وهم وقوف، ففي مثل هذه البارات يكون سعر نفس المشروب إذا أخذته واقفًا، أقلّ من سعره لو أخذته جالسًا.

ظلّ بعض الزبائن واقفين إلى جوار الكاونتر، في حين فضّل آخرون الالتجاء إلى زوايا القاعة وجدرانها، لتجنّب زحام الزبائن وتدافعهم عند كاونتر البار. هم يجرعون مشروباتهم من إكسير الحياة في دفعة واحدة، لأنه يباع في كمّيات صغيرة، في أكواب صغيرة الحجم. أمّا لاحتساء البيرة فإن الأكواب تكون غالبًا إمّا سعة لتر واحد، أو سعة نصف لتر، وبالتالي يتمّ تجرّع البيرة على مهل. كانت هناك ضوضاء هائلة بسبب أصوات صراخ زبائن البار الذين يعرفون بعضهم بعضًا، بالنداءات بعضهم على بعض. وجدنا حول إحدى الموائد، بعض زملائنا على نفس السفينة، الذين أرادوا أن ننضمّ إليهم، إلا أن بيتر رفض قائلًا لي: «يجب علينا أن نرحل الآن، حتى نتمكن من اللحاق بآخر ترام، وذلك لأنه دون أخذ الترام يصبح الوصول إلى منزل أختي مستحيلًا».

(٧)

في بداية مشوارنا على الأقدام، مشينا على رصيف يسير بمحاذاة إحدى القنوات المائية، وما أكثر القنوات المائية في هولندا، وعلى هذا الرصيف يوجد صفّ من أشجار الدلب، التي عرّتها الرياح من أوراقها، وقد وقعت هذه الأوراق متراكمة على الرصيف رغم استمرار دفع الرياح لها، فتزيحها من مكان على الرصيف، إلى مكان آخر على نفس

الرصيف، مع بعض أوراق الجرائد، وأكياس تغليف البضائع المهملة في أركان الشوارع، ومع بعض تبن المواشي وقشّ الأسقف، ونبات أخضر خفيف يقذفه البحر. أصبحت أقدامنا تخوض في كل هذا ونحن نسير.

بدت لي الرياح أحيانًا كما لو كانت حلزونية الشكل، وبالتالي بدأت أخشى تحوّلها إلى أعاصير، قد يحدث أن نقع في عينها، فتحملنا في الهواء وتقذف بنا إلى عمق بحر الشمال. أما إلى الجهة الأخرى من الطريق، فكان هناك صفّ من المنازل الصغيرة، الأقرب شبهًا بالأكواخ الخشبية البسيطة، التي تقام بشكل عشوائي لتقيم فيها العائلات الفقيرة. كانت الرياح الشديدة تعبث بهذه الأكواخ، حتى أنني خشيت عليها من أن تطير في الهواء، فيجد ساكنوها أنفسهم دون أسقف.

عندما ألقيت نظرة على القناة، وجدت أنها تمتلئ بالتدريج، بصف واحد من الصنادل العائمة فوق مياه القناة، التي تتكوّن كلها من طابق واحد، لا تعلوه طوابق أخرى، يسير أغلبها بقوّة دفع الرياح، لذلك ترتفع فوقها الصواري والأشرعة، التي كانت الرياح تضربها بقوّة، فنسمع صوتًا قريب الشبه بلفحات الضرب السياط. بعض الصنادل الحديثة الكبيرة الحجم، كانت تدار بآلات بخارية. لم تكن المحرّكات الكهربائية قد وصلت بعد إلى صنادل قنوات هولندا. أغلب هذه الصنادل كانت علب ليل تقدّم فقرات من الرقص والغناء، أو مسارح متنقّلة تقدّم فصولًا كوميديةً قصيرةً، يصعد إليها سكّان المدن للاحتفال بالأعياد، مثل ليلة عيد الميلاد، وليلة الاحتفال بالعام الجديد. كان هذا هو سبب تزاحم هذه الصنادل هنا بالقرب من روتردام في هذا الوقت من العام.

t.me/qurssan

كانت مصابيح غاز الآسيتايلين acetylene، المعلّقة على أسقف الصنادل، تهتز بشدّة فتميل من جهة إلى أخرى، وكانت الممرات الخشبية التي تربط هذه الصنادل برصيف القناة، تصدر أصواتًا تدلّ على احتكاكها المستمر بأحجار الرصيف. عبر بعض النوافذ الخشبية المستديرة للصنادل، أمكننا رؤية رؤوس بعض الناس من المتردّدين عليها، الذين حجزتهم الأمطار داخلها، بحيث باتوا مضطرّين إلى البقاء فيها، على الأقل حتى تهدأ العاصفة.

(٨)

أثناء مرورنا أمام أحد هذه الصنادل، لم تظهر في نوافذه المستديرة إلا رؤوس فتيات، بعضهنّ بشعور شقراء والأخريات بشعور سوداء. ثم عند مرورنا بباب الصندل المفتوح، وجدنا أنهنّ يقفن بالقرب من الباب في ملابس خفيفة، لا تتناسب مع هذا الجوّ القارس البرودة، رغم وجود نار مدفأة تبدو في تمام اشتعالها في خلفية منظر وقوفهنّ بالباب. إنه بيت دعارة متنقّل، تتوقّع موظّفاته أن يستقبلن في هذه الليلة المفترجة، ليلة عيد الميلاد، الكثير من الزبائن. تتفاوت الأجسام بين النحافة والبدانة، لإرضاء الأذواق المختلفة للزبائن.

كان هناك كذلك بعض الرجال المحظوظين، يجلسون مع الفتيات في الدائرة الواسعة للجالسين والجالسات حول النار. كل الفتيات يرتدين معاطف سميكة لحمايتهنّ من البرد القارس، إلا أنهنّ أسفل هذه المعاطف لم يكنّ يخفين عريهنّ. بين الجالسات حول النار هناك

عدد من الفتيات قد فتحن أزرار معاطفهن ومددن سيقانهن وأفخاذهن للاقتراب من النار قدر الإمكان. الواقفات أمام أو إلى جوار الباب لم يغلقن أزرار معاطفهنّ، حتى يمكنهنّ كلما مرّ رجل أن يعرضن عليه البضاعة ليعاينها قبل الدخول، على أمل أن تجذب واحدة منهنّ انتباهه فيقرّر دخول البيت. منظر الأجسام العارية في هذا الصقيع، جعل بدني أنا المتلفّح في الملابس يقشعر.

كل هذه الأجساد العارية تنبعث منها شهوات جنسية عارمة، مثلما هو حال كل الفتيات العاملات في هذه المهنة في كل مدن العالم، في مارسيليا أو في الإسكندرية أو في كريستوبال. كل الفتيات العاملات في هذه المهنة مصابات بالشبق الجنسي، لذلك فهنّ لسن بائسات تمامًا كما قد يبدو عليه وضعهنّ، فهنّ أيضًا يستمتعن أثناء عملهنّ، إلا أنهنّ في الغالب لا يقبلن أن تكون الواحدة منهنّ مجبرة على زبون معيّن. أغلب فتيات الدعارة ينتجن عن اختلاط أجناس، ولا أعرف تفسيرًا لهذه الظاهرة، إلا أن يكون اختلاط الأجناس هو سبب إحساسهنّ بعدم الانتماء أو بالتمزّق العاطفي.

لاحظت كذلك أن أغلب هؤلاء الفتيات لديهنّ مشاعر سلبية عدائية تجاه المجتمعات التي يعشن فيها، أو تجاه البشر بشكل عام. لاحظت كذلك أن مستوى الذكاء لديهنّ، هو دون المتوسّط العام لمستويات الذكاء في مجتمعاتهنّ، قد يكون هذا بسبب انشغالهنّ تمامًا بأجسادهنّ، وانصرافهنّ تمامًا عن كل ما له صلة بالتفكير. إذا وقع بحّار شاب في هوى واحدة منهنّ فهي عادة لا تريحه بل تستنزفه تمامًا، ولا تشعر نحوه

t.me/qurssan

بالعطف، فهنّ لم يعدن يصدّقن الوعود بالزواج. حتى لو كان الشاب مخلصًا في عرض الزواج، فإن أسرته سترفض الفتاة. الوقوع في هوى واحدة منهنّ هو أكبر خطر يمكن أن يتعرّض له بحّار شاب.

عندما ابتعدنا قليلًا عن الباب نادتنا أكثر من فتاة، لدعوتنا إلى الدخول، وكانت واحدة منهنّ أو أكثر تمسك في يديها بإبر خياطة لعمل ملابس خاصة صدريّات من التريكو الصوف. يبدو أن هذا هو أكثر ما تفعله فتيات الليل في أوقات فراغهن من العمل. هذا هو ما كانت فتيات بيت جوليا يفعلنه كذلك. لم نستجب لهنّ. يبدو أن موعد قدوم زبائن المساء لم يحن بعد.

(٩)

وصلنا إلى محطّة ترام الضواحي الشمالية للمدينة، الذي من المفترض أن يقودنا إلى حيث تقيم أخته، في إحدى الضواحي الريفية الواقعة خارج المدينة. كان في البداية بطيئًا تئنّ عرباته، ثم ازدادت سرعته بالتدريج، ثم بدا لي شديد الاندفاع في هوجائية مفاجئة، لا يعرف أين يضع قدمه في هذا الريف الشاسع الممتدّ، الذي يبدو كما لو كان بلا نهاية، وقد ازداد إحساسي بالتوهان بسبب الظلام والضباب والمطر والرياح. كنت أشعر أن كل ملابسي تنضح بالماء، حتى ملابسي الداخلية.

قطع بنا الترام مسافة طويلة لم أتمكن من معرفة كم تبلغ من الكيلو مترات، ولم أكن أتوقّع أن يكون علينا بعد مغادرة الترام، أن نمشي المزيد من الكيلومترات إلى حيث يقع منزل أخته، بعيدًا تمامًا عن أي عمران.

بعد أن غادرنا الترام، وجدت -ضمن تجمّع سكني صغير في مواجهة المحطّة- متجرًا يبيع حلويّات في عبوّات صغيرة، فاشتريت بعضها منها لأهديها إلى أبناء الأخت. في بداية مشوارنا على الأقدام، عاد المطر من جديد إلى السقوط بغزارة، فتوقّفنا لحظة لإحكام وضع القبّعات على الرؤوس، وحبك المعاطف حول الأجساد، والتلافيح الصوفية حول الأعناق. كانت الرياح تصفع أفرع الأشجار بقوّة شديدة، فتجعلها تتخبّط في بعضها.

ظلّلنا نمشي بنفس الخطوة السريعة، وكنا نحتاج بين لحظة وأخرى، إلى أن ننحني إلى الأمام، لمواجهة قوّة الرياح التي كانت تدفعنا إلى الخلف. مشينا في طرق ريفية لمدّة حوالي ساعة، ثم قال لي بيتر: «إن عائلة عامل بالسكّة الحديد ستكون حتمًا عائلةً فقيرةً، ولكننا سنجد لديهم على الأقل، أحد الخنازير الصغيرة التي يمكن أن يذبحوها لنا ويقدمونها لنا على العشاء، لأن أختي تقوم بالإشراف على مزرعة صغيرة للحيوانات ورثتها عن والدينا، ولم يتبقّ من الورثة إلا أنا وهي، فقد مات كلّ إخوتنا الآخرين... قد لا يكون لديها الآن بالإضافة إلى الخنازير إلا بعض النعاج».

سكت قليلًا، ثم قال: «إن المنزل الذي تقيم فيه أختي ليس إلا كوخًا خشبيًّا، من طابق واحد قليل الارتفاع، يتوسّط حديقة ليس بها إلا ثلاث شجرات تفّاح، دهنت أجزاؤها السفلية باللون الأزرق لحمايتها من ديدان الأرض، التي تزحف فوق الجذوع لتصل إلى الثمار. في الحقيقة إننا فقراء، وقد أحسنتُ صنعًا بالرحيل المبكّر باحثًا لنفسي عن باب

t.me/qurssan

رزق، حتى أترك لأختي حق الانتفاع بما يتبقّى من إرثنا، الذي لم يكن كافيًا لكلينا، فهو بالكاد يكفيها هي وعائلتها. لكني ما زلت لا أعرف كم لديها من أطفال.... يبدو أنني أخطأت بعدم إرسال حوالات بريدية بالنقود إليها بشكل منتظم، ولا أعرف إن كانت تتوقّع مني هذه المساعدة المنتظمة؟... في الحقيقة أنا لا أعرف إن كانت ستستقبلني بحرارة لقاء أخ مع أخته بعد كل هذه السنوات العشر من الغياب؟ أم أنها ستقابلني ببرود؟».

(١٠)

عند وصولنا إلى البيت كان أول من قابلنا هو طفل في حدود العاشرة من العمر، يضع على ركبتيه طفلًا رضيعًا، لم يتم بعد عامه الأول، هو أصغر إخوته، آخر مواليد أمه. سأله بيتر: «ما اسمك؟»، قال: «جاني». «وما اسم هذا الطفل الرضيع البريْء؟»، قال: «سجانكي»، واستمر بيتر في سؤال الأطفال الذين تجمّعوا حولنا خارج البيت عن أسمائهم، فونس.. بيار.. فيليب، إلا أن أكبر الأولاد سنًّا هو يان في الثانية عشرة من العمر، وألطفهم هو طفل في الثانية من العمر اسمه جوست، كان ينظر إلينا بابتسامة كبيرة على وجهه، ويتابعنا بعينيه أينما تحرّكنا، وهو يقف داخل صندوق كبير من الكارتون، عليه العلامة التجارية لأحد أنواع الصابون.

سألت الأكبر سنًّا: «كم هو عددكم بالضبط؟»، ولم أنتظر الإجابة، بل بدأت على الفور في عدّهم، وأنا أستعمل إصبع سبابة يدي اليمنى،

وأحاول استعادة كل الأسماء التي ذكرت أمامي للتوّ، حين اكتشفت في أحد أركان الحجرة، وجود توأمين كانا ينظران إلينا أنا وبيتر، بنظرة تبدو فيها على الفور المشاعر العدائية. سألتهم: «من منكم يريد أن يصبح بحّارًا مثل خاله؟»، ردّ الكبير: «ولا واحد؛ لأن العمل في البحر هو مهنة خطرة»، فسألته: «وأنت ماذا تريد أن تصبح في مستقبل حياتك؟»، قال: «لا أعرف بعد، كل ما أعرفه هو أنني أريد مغادرة هذا المنزل في أول فرصة سانحة، لأهرب من العمل المفروض عليّ كخادم لكل إخوتي الصغار». قلت: «إذنْ فأنت تريد أن تعمل في السكك الحديدية مثل والدك؟»، قال: «لا؛ فإنه عمل مرهق وعائده قليل».

بعد أن توقّف الحوار للحظة سألته: «إذنْ فأنتم ستّة صبيان؟»، قال: «لا. فهناك سابع لم تره بعد، فبمجرّد حضوركما اختبأ مثل الثعبان في شقّ في الحائط، يمكنك أن تعثر عليه خلف حزمة الحطب تلك»، وأشار بيده إلى الموقع. اسمه تانجي، وقد ظهر برأسه من خلف كومة الحطب، عندما نادى عليه أخوه الكبير، فإذا به الوحيد من بين إخوته بشعر أسود وبشرة سمراء وعينين سوداوين، فكل الباقين شعورهم شقراء، ببشرات بيضاء ناصعة، وأعين زرقاء. فهمت على الفور السبب في انعزاله عن إخوته، وفي إحساسه بالغربة عنهم. بالإضافة إلى أنه صاحب جسم خفيف صغير الحجم، بأطراف تميل إلى النحافة، في حين أن كلّ الآخرين هم أصحاب أجسام ثقيلة، بأطراف تميل إلى الامتلاء.

كان كلّ الأخوة متشابهين تمامًا باستثناء تانجي، كأنهم قد قدّوا كلهم من نفس الخامة الطينية المحلّية، على نفس عجلة الفخراني،

t.me/qurssan

باستثناء تانجي الذي بدا كما لو كان مستوردًا من الخارج، من طينة أجنبية مستوردة من بلد أجنبي. هو يشعر نحو إخوته بمشاعر عدائية، بل هو شعر نحوي كذلك، بنفس هذه المشاعر العدائية، فعندما انحنيت عليه لأمسك به صرخ، عضنّي في يدي التي كانت قد اقتربت منه، ثم ضربني في ساقي بقبقابه الخشبي. كان الإخوة يتجمّعون حول نار وضع فوقها إناء به ماء يغلي.

(١١)

في تلك الأثناء كان صديقي بيتر قد دخل إلى المنزل، ثم عاد إلى الخروج منه، وقال لي إن زوج أخته قد أخبره أن أخته هانّا في حالة وضع، فقلت في نفسي إنها صدفة غريبة أن نصل إلى هنا في الليلة التي ستضع فيها طفلها الثامن. قال: «وزّع عليهم الحلويات، في حين سأعود أنا إلى الداخل للحديث مع أختي». كان زوج الأخت قد ذهب إلى فناء الكوخ، ليقطع بالمنشار المزيد من الألواح الخشبية، اللازمة لتشغيل المدفأة.

ازدادت حدّة العاصفة، التي لا تجد أمامها في هذا الفضاء الفسيح إلا هذا الكوخ المتواضع لتضربه بكل عنفوانها، وبعزم ما فيها من قوّة وجبروت. أدركت أن هذا الكوخ يقع تحت تأثير العواصف البحرية العنيفة، التي تضرب خلال الشتاء الهولندي كل الأراضي القريبة من السواحل البحرية، التي كان الهولنديون قد تمكّنوا من عزلها عن البحر بسدود ضخمة، واستصلاحها لتصبح أرضًا زراعيةً. إذنْ فإن هذا الكوخ يقع تحت مستوى سطح البحر. هذا هو السبب في تسمية هولندا

بالأراضي المنخفضة، لأن أغلب أراضيها الحالية تقع تحت مستوى سطح البحر.

كان الأولاد يصرخون، فحاولت إسكاتهم بأن بدأت في توزيع هدايا خالهم عليهم، فأعطيت سيّارة المطافئ النيويوركية الحمراء بسلمّها المعدني الجانبي إلى تانجي، والضفادع التي تصدر عنها أصوات النقيق إلى فيليب، والقناع الإفريقي المخيف إلى بيتر، والقوس والأسهم الخشبية إلى فونس، ولعبة الميكانو إلى أكبر الأبناء الذي قلت له: (ستكون هذه الهديّة بكل ما فيها من مفاتيح إنجليزية بمقاسات مختلفة، وملاقط ومشابك ومفكّات ومطارق ومثاقب، ومسامير من كل الأحجام، وآلة لحام كهربائي صغيرة، مفيدة لك تمامًا في تعلّم كيفية فكّ الأجهزة وإعادة تركيبها».

كنت قد نجحت تمامًا في الاستئثار باهتمامه، إذ يبدو بوضوح أن الهدية تعجبه، وهو القدوة بين إخوته، لذلك قرّرت إضافة المزيد من التوابل التي أنجح عادة في العثور عليها، فأنا لا يغلبني أحد في اختيار الكلمات، فما بالك لو كان منافسي هو صبي في الثانية عشرة من عمره، قلت: «يمكنك بهذا الميكانو أن تصنع نماذج صغيرة من الروافع الصناعية الميكانيكية، وعربات السكك الحديدية، والكباري واللواري والسيّارات والسفن والطائرات». كنتُ أبالغ قليلًا، ولكنه لن يكتشف هذا إلا بعد أن تكون اللعبة قد استنفذت أغراضها، بعد مرور وقت طويل نسبيًّا.

ثم طلبت من الأطفال الانتباه من جديد، وبدأت في إخراج التماثيل الصغيرة لمغارة ميلاد الطفل يسوع، ووضعها معًا في شكلها التقليدي،

t.me/qurssan

الطفل في مزود البقر، ومريم ويوسف إلى يمينه وإلى يساره، ثم بعض الملائكة خلفهم، ثم تأتي الحيوانات مثل الحملان والماعز والخرفان والأبقار، وبقيّة رعاة الغنم في الخلفية. تجمّعوا كلهم حول نموذج مغارة الميلاد لمشاهدة التفاصيل، وكانت تلك هي اللحظة المناسبة لتوزيع الهدايا من الحلويّات.

هنا حدث هياج لا مثيل له، إذ يبدو أنهم لم يكونوا قد ذاقوا أبدًا هذه الأنواع من الحلويّات، فكنت كلّما أخرجت صنفًا مختلفًا منها، ذكرت لهم اسمه، فكانوا يردّدونه خلفي، كأنها كلمات جديدة يتعلّمونها من لغة أجنبية عليهم: «فطائر بالكريمة/ فطائر بالقرفة/ فطائر بالفانيليا/ حبّات كريز محشوّة بالشوكولاتة/ قطع الباباز بشراب الروم المسكر قليلًا/ قطع من حلوى الفواكه المسكّرة/ قطع من الشوكولاتة المحشوّة بالبندق»، ومع ذلك فإنني كنت أشعر أنهم يكنّون لي مشاعر عدوانية لا أعرف سببها، أو على الأقل هناك قدر كبير من الشكّ المريب في نظراتهم إليّ، وذلك لأنني كلّما حاولت الاقتراب من أحدهم، لأضع يدي على كتفه أو على رأسه، ابتعد عني بشكل سريع مفاجئ. لم يكونوا يرغبون في أن ألمسهم.

لكني احترت ماذا أفعل بالعرائس القطنية والعقود البلاستيكية والخواتم والأساور والمناديل النسائية والشال، سألتهم: «أليست لديكم أخت؟»، قالوا كلهم بقدر من الاحتداد الذي لم أفهم سببه: «ليست لدينا واحدة، ولا نريد أن تكون لدينا واحدة». أفرغت كل ما تبقّى في الحقيبة على الأرض، ووضعت العرائس معًا في صفّ واحد، وبقيّة الهدايا

النسائية في كومة واحدة، وطلبت من الابن الأكبر الاحتفاظ بها لحين عرضها على الأم.

كان الأولاد قد أقبلوا بحماس شديد على تجربة الألعاب واحدة بعد أخرى، عندما خرج بيتر من داخل الكوخ قائلًا لي: «ينبغي أن نذهب على الفور»، وجريت خلفه حتى ألحق به: «ماذا حدث؟»، قال: «للأسف لم أكن أعرف أن زوج أختي إنسان نذل وقح، فهو لا يعاونها على الإطلاق في وضعها الحرج، ولا يريد أن يحضر لها من تستطيع معاونتها، بل يجلس أمام فراشها ساخرًا منها، قائلًا إنها اعتادت على أن تضع أطفالها وحدها دون معاونة من أحد». كان بيتر قد خرج من منزل أخته دون أن يلتفت إلى تحيّة أطفالها أو توديعهم، كأن تصرّف زوج أخته الكريه قد أنساه أن الأطفال لا ذنب لهم.

t.me/qurssan

معركة شوارع

(١)

أخذنا نفس الترام في طريق العودة إلى روتردام، ولم يفتح بيتر فمه بكلمة واحدة طوال الطريق. كانت أنوار واجهات المحلات الكهربائية الحمراء قد انعكست على لون السحب القريبة. وكانت السماء مستمرّة في فتح أهوسة قنواتها المائية، ودلق كميّات هائلة من المياه على أهل الأرض المبتلّين حتى النخاع. دخلنا في أول بار قابلنا على الطريق، لنحظى باحتفال بعيد الميلاد مع غيرنا من البشر الذين لا عائلات لهم في هذه الليلة المفترجة. اسم البار هو (تانجو منتصف الليل). وحيث إن سفينتنا لن تعود إلى الإبحار إلا في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي، ونحن لم نكن عند دخولنا إلى البار إلا في التاسعة مساءً، فقد قلنا في أنفسنا إن أمامنا سبع ساعات من اللهو والمتعة الخالصة. وهكذا انشغلنا أولًا بوليمة فاخرة احتفالًا بعيد الميلاد.

كان ملهى ومطعم (تانجو منتصف الليل)، هو أحد أحدث وأفخر

الأماكن من هذا النوع في روتردام.

ملحوظة أولى: كان داخل المطعم مقسّمًا إلى وحدات منفصلة عن بعضها بحواجز خشبية مرتفعة نسبيًّا، مما يتيح لشاغلي الوحدات قدرًا لا بأس به من الخصوصية. فلو كنت واقفًا فإن هذه الحواجز تصل إلى مستوى صدرك، أمّا لو كنت جالسًا فإنها تصل إلى مستوى قمّة رأسك، بحيث إن الزبائن الجالسين لا يستطيعون رؤية رؤوس جيرانهم في الموائد المجاورة. أعتقد أن هذا يتفّق مع الروح الهولندية المحافظة التي تميل إلى العزلة. كما أن الطابق الأرضي الذي جلسنا في إحدى وحداته، ينقسم إلى جزئين رئيسين، فإلى يسار المدخل هناك القسم الذي يكتفي روّاده بتناول المشروبات والمأكولات الخفيفة، وإلى يمين المدخل هناك القسم الذي يتناول روّاده الوجبات الدسمة.

ملحوظة ثانية: وهي أكثر غرابةً من الأولى، إذ عرفنا بعد جلوسنا أن (تانجو منتصف الليل) يشغل كل الطوابق الستّة من هذا المبنى الحديث، وأننا كلما ارتفعنا إلى أعلى زادت أناقة المكان، وزادت أثمان وجباته، بحيث يقتصر الدخول إلى الطابق السادس، على أثرياء المدينة المعروفين بالاسم لصاحب المكان، الذي يبقى غالبًا في الطابق السادس لاستقبالهم بنفسه وللإشراف على خدمتهم. من بين مزايا الطابق السادس، أنه الطابق الوحيد الذي يرتفع عن كل الطوابق الأخيرة من المباني المحيطة به، ما يتيح لروّاده منظرًا جميلًا للميناء بأضوائه الليلية، وبما فيه من قنوات وسفن.

ملحوظة ثالثة: وهي أكثر الملحوظات غرابةً، إذ كان للمبنى الذي

t.me/qurssan

يشغله (التانجو) مصعدان كهربائيان، أحدهما صغير الحجم يسمح لعشرة زبائن على الأكثر بالصعود فيه، والآخر كبير الحجم جدًّا، بحيث إنني لم أكن قد رأيت حتى ذلك الوقت من حياتي مصعدًا آخر يضاهيه في حجمه. في البداية لم أفهم السبب في وجود المصعد الكبير الحجم، حتى كانت الساعة العاشرة، عندما جاء حوالي عشرين شخصًا، وفي أيديهم آلات نفخ نحاسية، من الساكسوفون والترامبيت والكورنو، وخشبية من الكلارينيت والأوبوا والبيكولو، واصطفوا وقوفًا في المصعد الكبير وبدأوا في العزف.

طبعًا هذه الآلات عالية الصوت جدًّا، بحيث كان من الممكن لأي شخص في المبنى، أن يستمع إلى موسيقى الجاز الصادرة من هذه الفرقة بوضوح. لكن الشيء الغريب والجديد، هو أن المصعد الكبير كان في حركة دائمة بين الطابقين الأرضي والسادس، في عملية صعود وهبوط مستمرّة طوال ساعات الليل، بحيث يتمّ توزيع الصوت بالتساوي طول الوقت بين الطوابق الستّة.

يبدو أن صاحب هذا المحل كان عبقريًّا، أو كان انتهازيًّا شيطانيًّا، إذا كانت هذه هي فكرته هو، في الاكتفاء بفرقة موسيقية واحدة، تعزف لزبائن الطوابق الستّة، بدلًا من أن تكون هناك فرقة موسيقية لكل طابق. كان العازفون مندمجين تمامًا في عزف مقطوعاتهم، بصرف النظر عن الطابق الذي يمرّون به، وهذا هو الملمح الديمقراطي الوحيد في هذا المكان، الذي يجمع بين الطبقات الاجتماعية المتفاوتة الحظ من الثراء.

كان (التانجو) ممتلئًا عن آخره في هذه الليلة، ففي تمام العاشرة

مساءً لم تكن هناك مائدة واحدة خالية. تابعت بنظراتي المتسلّية العابثة روّاد الطابق الأرضي، الذي شغلنا أنا وبيتر إحدى موائده، في الجزء الخاص بالوجبات الدسمة. كان هؤلاء الزبائن يبدون لي مسالمين، وقد ارتدوا جميعًا أفضل ما لديهم من ملابس، ثم انهمكوا في التهام ما يوضع أمامهم من طعام. لم أكن أسمع إلا أصوات ارتطام الملاعق بالأطباق، إذ لم تكن هناك حوارات كثيرة تتفق مع عدد الأشخاص الموجودين في الصالة.

في وسط القاعة كانت هناك حلبة رقص صغيرة المساحة نسبيًّا، يقوم إليها بعض الأزواج والزوجات لممارسة رقصة قصيرة بين طبقي طعام، دون أي رشاقة في الحركة، مع انعدام الإحساس بالإيقاع. كنت أمنع نفسي بصعوبة عن الانفجار في الضحك، عند متابعتي بالنظر لهؤلاء البدناء والبدينات وهم يحاولون بلا جدوى إدراك الإيقاع الذي ينبغي الرقص عليه. بعد الانتهاء من محاولة الرقص، يعيد الفرسان زوجاتهم إلى الموائد، ويعيدون وضع مفارش الموائد أسفل الذقون، لحماية الملابس مما قد يتساقط عليها من طعام، ينهمكون من جديد في التهامه.

(٢)

مع كل هذا الجوّ المتسامح، بدأت أشكّ فيما سبق أن ذكره لي بيتر عن المعركة الكبرى التي ستنشب هذه الليلة. صحيح أن الليلة لم تنته بعد، ولم نخرج بعد إلى الشوارع، إلا أن مسدسي في جيبي كما طلب مني بيتر، استعدادًا لأي طوارئ قد تحدث. إلا أن بيتر كان محقًّا تمامًا

t.me/qurssan

في ما قاله. فقد حدث فجأةً ودون أي إنذار أو أيّ مقدّمات منطقية، أن تحوّل هذا المناخ الهادئ المستسلم، إلى ميدان قتال في معركة ضارية. في لمحة عين تحوّل هذا الجمع الراقي إلى وحوش تتصارع فيما بينها، وفي دقائق معدودات تمّ تحطيم نصف مقاعد وموائد وأطباق وكؤوس الطابق الأرضي.

لم أفهم أبدًا كيف بدأ الشجار، لكنه بدأ في مكان ما لسبب قد يكون تافهًا، مثل إسقاط طعام على ملابس سيّدة دون قصد، أو اصطدام جسدين في حركة فقدت توازنها أثناء الذهاب إلى حلبة الرقص، لكنه أدّى إلى انفجار شجارات متتالية في أماكن مختلفة من هذا الطابق الأرضي، ومن كل الطوابق الأخرى التي تعلوه.

كأن كل هذا العنف مشْحون ومتراكم داخل نفوس هؤلاء البشر، لينتهز أول فرصة متاحة له للتعبير عن نفسه. عرفت لاحقًا أن هذا العنف وهذه الوحشية قد أدّيا إلا ثلاثة قتلى في هذا المطعم وحده، وإلى بضع عشرات من الجرحى نقلوا إلى مستشفيات المدينة، بعد أن كان جميع زبائن المطعم قد خرجوا جريًا إلى الشوارع.

كنت في الرابعة العشرين من العمر، ما زلت أحتفظ بقدر كبير من اللياقة البدنية ومن القوّة العضلية، ومن الرغبة في التشاجر باليد، حتى لو لم يكن هناك سبب واضح للتشاجر، ولكن فقط لإثبات هذه اللياقة والقوّة، كلما كانت الفرصة سانحة، وهو ما يتفّق تمامًا مع أخلاق البحرية.

بالإضافة إلى هذه العناصر التي أتشارك فيها مع بيتر، كانت لبيتر كذلك أسبابه الخاصة في تلك الليلة، إذ كان مشحونًا تمامًا بالمشاعر

السلبية التي بثّها فيه زوج أخته، بدناءته وبذاءته، التي كان يريد تصريفها في ناس الشوارع، كأنهم كانوا كلهم مسؤولين عن الظلم الواقع على أخته.

عندما نجحنا لاحقًا في الوصول إلى أرصفة الميناء، بعد ثلاث ساعات من الصراع مع الرجال في جميع الشوارع التي مررنا بها، اكتشفت أن جراح بيتر قد تستدعي نقله إلى المستشفى، لأن رسغَي يديه كانا قد أصابتهما الشروخ بسبب شدّة اللكمات التي وجّهها إلى من كانوا قد قطعوا علينا الطرق.

إلا أن طبيب السفينة رأى أنه يمكنه أن يضمّد جراح بيتر، دون الحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى، وقد أبحرنا كما كان مقدّرًا لنا في فجر نفس يوم وقوع معركة الشوارع، وقد ظلّ بيتر حوالي أسبوع لا يستطيع أن يمسك القلم بيده لتسجيل يوميات السفينة، وهو أهم جزء في عمله ككاتب سفينة، ملء سجلّات السفينة بالأرقام وبالأسماء، وعندما وصلنا إلى نيويورك بعد ثلاثة أسابيع، كنّا أنا وهو لا نزال نحتفظ ببعض التورّمات في الرأس، وببعض الأغطية اللاصقة للجروح القطعية. وقد احتفظت بذكرى العراك الدامي للوصول إلى رصيف الميناء في تلك الليلة، لبضع سنوات لاحقة من حياتي، إذ ظلّت واحدة من ندبات تلك الليلة تشغل الجزء الذي يعلو الشفة العلوية.

(٣)

وكما أن رعاة البقر في الغرب الأمريكي، يعرفون أن الليالي التي يفرقع فيها الرعد تؤدّي إلى حالة من توتّر الأعصاب، ليس فقط للبشر

t.me/qurssan

وإنما كذلك لقطعان المواشي، حين يضطرّ رعاة البقر إلى امتطاء جيادهم والدوران طوال الليل حول قطعانهم، التي تتكوّن عادة من آلاف الرؤوس من المواشي، كذلك فإن كلّ بحّارة العالم يعرفون كم تكون ساخنة وملتهبة الأحياء السكنية القريبة من أرصفة الموانئ، في المدن التي تقع بها هذه الموانئ، وكم تكون هذه الأحياء السكنية الساخنة قابلة بسهولة للاشتعال، دون أن يعرف أحد الإجابة على السؤال، كيف يحدث هذا ولماذا يحدث.

ليست حالة السكر هي السبب، رغم ما قد يحدثه البحّارة من شغب وتلفيّات في حالات سكرهم، وهو ما يرجع في الغالب إلى حياتهم الشاقة في البحار، محرومين من النساء ومن أفراد أسرهم ومن المشاعر الإنسانية لفترات طويلة. وعادة لا يختلق هذا الشجار من بين البحّارة، من هم معروف عنهم التمرّد والرغبة في إثارة المشاكل، من بين صغار السنّ سريعي الاشتعال، القابلين للإصابة بحالات من الجنون المؤقّت، بل قد يكون العكس هو الصحيح. إن هذه الحالات تنفجر فجأةً دون سابق إعداد، كما لو كانت أعاصير تهبّ فجأة من السماء، وهو ما يتولّد عنه شرارات كهربائية تلتهب معها أعصاب الجميع.

وغالبًا ما تكون الأحياء المحيطة بالميناء، هي أفقر أحياء المدينة، فإذا ظهر فيها بحّار بمفرده، فهو لن يخرج منها حيًّا، إذ يتعرّض فورًا إمّا للضرب بالآلات الحادة القاطعة، أو للخنق بالحبال، ثم الاستيلاء على نقوده مهما كانت قليلة، والإلقاء بجثّته داخل شوال في مياه البحر. يحدث هذا في كل مكان سواء كنّا في شنغهاي أو في ساوباولو. يعرف رجال

الشرطة في هذه المدن كل هذه الحقائق، ولكن لأن الأهالي يتواطؤون مع القاتل، فلا تؤدّي التحقيقات أبدًا إلى الكشف عن الجناة.

أغلب الناس يعتقدون أن وراء جريمة قتل أي بحّار، هناك بالضرورة قصّة غرام تجمع بينه وبين امرأة محلّية، قد تكون زوجة خائنة لرجل ارتكب هو جريمة القتل انتقامًا لشرفه المهدور، ويحدث هذا الاعتقاد غالبًا بسبب الحكايات التي يختلقها الصحفيّون بغرض الترويج لصحفهم. قد يكون هذا حقيقيًّا في عشرة بالمئة من الحالات، إلا أن تسعين بالمئة من جرائم قتل البحّارة في مدن مثل روتردام، هي بسبب العنف المتراكم داخل نفوس السكّان المحليين، الذين لا يزيدهم بؤس حيواتهم إلا عنفًا على عنف.

ففي (تانجو منتصف الليل) في ليلة عيد الميلاد هذه، توقّفت الأوركسترا عن عزف الموسيقى قبيل منتصف الليل بدقيقة، فقام كل زبائن المطعم من رجال ونساء في أماكنهم، صامتين تمامًا للإنصات جميعًا، إلى دقّات أجراس الكنائس احتفالًا بعيد الميلاد، كما هي العادة في أغلب المدن الأوروبية في هذه الليلة. في هذه اللحظة بالذات، لحظة الصمت للإنصات إلى الأجراس اندلعت المشاجرات.

إذ مدّ رجل يده والتقط كأس الشراب من على مائدته، ليقرعه مع كأس المرأة التي تصاحبه وليبادلها الأنخاب، في نفس اللحظة التي تحرّك فيها رجل ثانٍ يقف خلفه واصطدم به، فاهتزّ الكأس في يد الرجل الأول، وخرج المشروب من الكأس ليقع على وجه المرأة وعلى فستانها، فصرخت بصوت مرتفع. وفي ثانية واحدة، في نوبة الغضب،

t.me/qurssan

كسر الرجل الكأس الذي في يده على حافة المائدة الرخامية، وجرح به وجه المرأة الواقفة أمام الرجل الثاني.

قذف الرجل الثاني وجه امرأة الرجل الأول بطبق الطعام، ليسقط على وجه امرأة ثالثة تجلس خلفها، وهكذا في دقيقة واحدة، بدأت كل أدوات الموائد الزجاجية والخزفية والفضّية من كؤوس وأطباق وشوك وملاعق وسكاكين، في التطاير بين الموائد. ثم حدث لسبب مجهول، قد يكون محاولة إجبار الزبائن على الخروج إلى الشوارع، أن قطع أحدهم التيّار الكهربائي، فانفجرت زمجرة هائلة من البشر الذين لم يعد أحدهم يرى الآخر، وانفجرت بالتبعية المعركة بين الجميع.

وقف بعض الرجال فوق الموائد، فتحطّمت قواعد تلك الموائد وسقطت على الأرض وتكسّرت أرجلها، فاستعمل الرجال تلك الأرجل الخشبية كأدوات قتال، وتحطّمت أسطحها الرخامية إلى أجزاء عديدة، فاستعملتها النساء كقذائف موجّهة إلى غيرهنّ من النساء، ثم بدأت الكراسي وأواني الزهور هي الأخرى في التطاير، وأصاب بعضها الثريّات المعلّقة في الأسقف، التي سقطت متحطّمة فوق رؤوس الجميع. وقعت بعض النساء على الأرض في حالة إغماء، فتعرّضن للدهس بأقدام الرجال المتصارعين، وانطلقت صرخات ألم من أفواه عديدة.

(٤)

لم أعرف كيف أمكننا أنا وبيتر الخروج إلى الشارع دون إصابات بالغة، وقد اعتقدنا أننا بخروجنا إلى الشارع قد وصلنا إلى برّ الأمان،

فإذا بكل الشوارع المحيطة بـ(تانجو منتصف الليل)، وقد تحوّلت هي الأخرى إلى ساحات قتال. على ما يبدو لي الآن أن دقّات أجراس الكنائس معلنة الثانية عشرة ليلًا، كانت هي علامة البدء في هذه المعركة الكبرى.

سقطت بعض أعمدة الإضاءة بعرض بعض الشوارع، مما منع العربات من اجتياز تلك الشوارع، وكأنها كانت حواجز طرق تسمح لقاطعي الطرق بسرقة سائقي العربات. كما تحطّمت الواجهات الزجاجية للكثير من المتاجر، وانشغل الصِّبية بسرقة محتوياتها، الصبية من أوباش المدينة، الذين كانوا كأنهم قد خرجوا من جحورهم، ليملؤوا فجأة كل شوارع وحواري المدينة.

حاول البحّارة أن يتجمّعوا معًا في أركان بعض الشوارع، على أمل أن تكون كثرتهم العَددية هي وسيلتهم لإنقاذ أنفسهم في مواجهة حرب الشوارع. كانوا يجرون بعضهم خلف بعض متتابعين في الشوارع الرئيسة، وكان ينضمّ إليهم كل من يرتدي الأزياء البحرية، فانضممنا إليهم. كنت أراهم على طول الطريق إلى الميناء، يخرجون عند رؤيتهم لنا، من المباني إلى يسار وإلى يمين الشوارع الرئيسة، حيث توجد الخمّارات وبيوت الدعارة. بدأت ألاحظ كما لو أن هذه المظاهر العدوانية من ناحية شعب المدينة، تصبّ في الأساس على البحّارة الأغراب عن المدينة.

أدركت أن المعركة لم تبدأ كما اعتقدت في (تانجو منتصف الليل)، بل في الحقيقة لم تكن هناك بؤرة صراع، بل كانت هناك بؤر عديدة لصراعات عديدة، في أماكن مختلفة من المدينة. كنا نجري فوق

t.me/qurssan

عدد لا حصر له من قطع الزجاج المكسور، كما لو أن كل زجاج نوافذ المدينة قد تحطّم. بالإضافة إلى أن أغلب أبواب المنازل الخشبية كانت هي الأخرى قد تحطّمت، ليستعملها المتقاتلون كمطارق قتال. اكتشفت أن العراك في أحيان كثيرة لا يكتفي بإحداث إصابة في الخصم، بل إن الهدف غالبًا هو القتل.

عندما شاهدتنا فتيات بيوت الدعارة من نوافذهنّ، ونحن البحّارة بكلّ ما ندّعيه من رجولة وخشونة، نجري في الشوارع، انطلقت من أفواههنّ صيحات سخرية، ثم بدأن في إلقاء كل ما يصل إلى أيديهن من أدوات معدنية أو خشبية أو زجاجية، في اتجاه طابور البحرية، كأنهنّ هنّ أيضًا يردن الانتقام منًّا. كان السؤال الذي دار في خيالي هو لماذا يفعلن ذلك والبحّارة هم أغلب زبائنهنّ؟!

عند كل تقاطعات الشوارع التي مرّرنا بها، كان يعترض طريقنا رجال يقصدون مباشرة إما رأس الطابور أو ذيله، حيث يمكنهم الانفراد ببعض البحّارة، لأن بحّارة منتصف الطابور سيحاول بحّارة الرأس أو الذيل الاشتراك معهم في الدفاع عن الطابور. وقد حدث أكثر من مرّة أن توقّف تقدّم الطابور تمامًا، واضطررنا إلى الهروب المؤقّت، لاجئين إلى الشوارع الجانبية. مع الاقتراب من موقع أرصفة الميناء، كان عدد المتقاتلين من أهل المدينة، وكذلك من طابور البحرية، قد وصل إلى مئة مقاتل على كل جانب. هكذا يمكن للقارئ أن يتصور حجم المعركة. معركة حقيقية.

مع عمليات التحرّك المستمر، إلى الأمام أو إلى الخلف، في لحظة

ما كنت قد وجدت نفسي في مقدّمة رأس الطابور، في مواجهة حائط بشري من صدور المقاتلين، فاستعملت رأسي في ضرب تلك الصدور، في حين كان بيتر إلى يساري يستعمل قبضتي يديه في توجيه لكمات إلى الذقون. إلى يميني كان هناك بحّار أمريكي عملاق، يمسك في يديه بقطعتي حجر مسنّنتين، يستعملهما كسكّينتي قتال، محرّكًا ذراعيه الطويلين حركة كاملة الاستدارة، حول محور جسمه الذي يدور به في دورات كاملة، كما لو كان طاحونة بشرية تطحن الوجوه التي تمرّ بها، فتجدع الأنوف وتنزع الخدود وتقطع الآذان، فتنبجس الدماء في كل اتجاه. هذا الشخص هو الذي نجح أخيرًا في الوصول بنا إلى رصيف الميناء.

t.me/qurssan

بار (مزيّفي النقود)

(١)

عندما شعرت بالملل من باريس، بسبب كل أولئك البشر الذين يتبعونك كظلّك أينما حللت، بدعوى مبرّرة وهي الإعجاب بعملك الأدبي، أو الرغبة من طرف الأصغر سنًّا في اقتفاء أثرك والاقتداء بك، كنموذج وقدوة أدبية. في البداية حاولت أن أهرب منهم إلى الريف المحيط بباريس، ولكنهم تبعوني إلى هناك. ثم إذا بهم يتبعونني أحيانًا حتى إلى مئات الكيلومترات بعيدًا عن باريس، إذ إنني عندما قرّرت أن أترك بصفة دائمة سكني في العاصمة، وأن أذهب لأسكن في واحدة من المناطق الريفية، المحيطة بواحدة من مدن الجنوب، تبعوني إلى هناك. هؤلاء الناس الذين يدّعون أنهم قد أصابهم مرض الأدب وداء التأدّب يجعلونك تفقد وقتك الثمين الغالي، دون أن يكون لهذا الفقد أي داعٍ.

هم لا يعرضون عليك من إنتاج قرائحهم إلا إبداعات خنازيرية قديمة، سبق إبداعها مرّات عديدة قبل ذلك، ولكنهم لا يدركون. بالإضافة إلى ما يملؤون به أذنيك من ثرثرات مضجرة مليئة بالسموم

المميتة، ويفعلون ذلك أحيانًا بقدر من البراءة. ثم يقول لي أحدهم بوقاحة منقطعة النظير:

- إن فلانًا يقصّ علينا حكايات مرعبة عنك.

- هذا يدهشني أن يكون آتيًا من فلان كما تقولون، فهو صديق مخلص قديم، ماذا يقول عنّي إذنْ؟

- يبدو أنك كنت قويًا جدًّا في شبابك مسيو سُندرار، لدرجة أن فلانًا هذا يدّعي أنه لم يعرف أي شخص آخر على نفس هذه الدرجة من القوّة، بحيث يكون قادرًا مثلك على أن تكون له أَسِرَّة مخصّصة باسمه، ومحجوزة لاستعماله هو وحده في البيوت المشبوهة، مثلما كانت هي الحال معك أنت. هل حقًّا أنك كنت تستهلك بالحساب الآجل وتسدّد فقط في نهاية كل شهر؟

عند هذا الحدّ ألقيت بذلك الخسيس في الشارع، وكتبت إلى فلان المقصود بالكلام؛ لأعرف منه حقيقة ما قاله عنّي. وفلان هذا بالمناسبة هو أحد أقدم الأصدقاء الذين أتبادل معهم بصفة دائمة مراسلات منتظمة.

(٢)

ردّ عليّ بخطاب في أقرب فرصة، ذكّرني فيه بأنني كنت قد حكيت لهم أنني بين عامي ١٩١٢ و١٩١٣، كنت أتردّد على بيت دعارة في شارع مازيه، وأنني كنت أستعمل كل فتياته في أي وقت مجّانًا لي وحدي فقط. في هذا الحديث بعض الارتباك، فأولًا- حدث هذا سنة ١٩١٠. ثانيًا- كان هذا في بيت جوليا لا في شارع مازيه. ثالثًا- لم تكن هناك الكثير

t.me/qurssan

من الفتيات الدائمات، بل هي امرأة واحدة، كان اسمها مادلين وكانت جميلة، لذلك كان الطلب عليها كثيرًا. كانت يهودية وكانت عرجاء، ومع ذلك فإنها كانت جميلة كما لو كانت إلهة جمال إسبانية. لكنها كذلك كانت ماديةً، ولديها ميول انتقامية. ثم كان من عيوبها، بسبب كثرة الطلب عليها، أنها كانت تقوم بأدائها الجنسي بشكل آلي فيه قدر من الاستعجال.

لم يكن لديها الكثير من الوقت لتضيّعه، فعند وصول زبون جديد يطلبها بالاسم، كان لديها في حجرتها جهاز تنبيه، بوصول هذا الزبون الجديد، في شكل جرس يدقّ، وبالتالي تبدأ منذ تلك اللحظة، في محاولة إنهاء المضاجعة التي كانت مشغولة بها حتى لحظة دقّ الجرس، وهكذا بين كلّ دقّتي جرس، لم تكن لديها رفاهية أن تستريح ولا لحظة واحدة، وكان هذا يستمر أحيانًا لبضع ساعات. وأحيانًا كان الجرس يدقّ عدّة مرّات متتالية في دقائق معدودات، بحيث كانت تعرف مقدّمًا، أنها ستكون مشغولة لمدّة زمنية تستطيع تحديدها، وتستطيع بالتالي على أساسها، تقدير متوسّط الوقت الذي يمكن والحالة كذلك، أن تسمح به لكل زبون.

ولم يكن كل زبائنها من الرجال الذين يريدون مضاجعتها، بل كان من بينهم في أحيان كثيرة عدد من الرسّامين الذي يريدون تخليد ذكراها في لوحاتهم، فيحضرون إليها لعمل تخطيطات مبدئية لأعمالهم. ورغم أنها كانت على قدر من الثراء، إلا أنها كانت على ما يبدو تدّخر أغلب ما تكسب لزمن شيخوختها، ولذلك كانت تبخل على نفسها بالثياب

الجديدة، ولا يمكنك أن تراها إلا في ثياب قديمة بالية، كما لو كانت شخصية شعبية فقيرة في إحدى لوحات الفنّان الإسباني فرنشسكو جويا.

إلا أنه من العجيب أن ألاحظ الآن -بعد مرور حوالي أربعة عقود من الزمن على هذه الوقائع- كيف أن منزل جوليا في آنتويرب **Antwerp** في شمال بلجيكا، سنة ١٩١٠، كان منزلًا هادئًا، لا يتصارع فيه الرجال، ولا يتعجّلون بعضهم بعضًا، أثناء انتظارهم الطويل في بعض الأحيان، بل كان كل الرجال يتحلّون بالصبر وطول البال. دون تدافع ودون ضغط. لم يكن الزبون -مدفوعًا بضيق الوقت- يتعجّل الحصول على لذّته ويتعجّل الرحيل.

كان من الممكن للرجال أن ينشغلوا بالثرثرة، مع الفتيات الأخريات اللائي لم يكن عليهن نفس الإقبال، أثناء انشغالهنّ بالحياكة بأشغال الإبرة والتريكو وبكرات الصوف. كانت بيننا وبينهنّ صداقات، ورفع تكليف يسمح بالهزر، حتى أننا كنا نخرج أحيانًا، مع الفتيات غير المنشغلات بالعمل، في نزهات خلوية إلى المناطق الريفية القريبة، أو إلى ساحل البحر عند أرصفة ميناء المدينة، أو إلى الشوارع التجارية في وسط المدينة.

(٣)

سأذكر لكم الآن السبب الذي من أجله قال صديقي هذا ما قاله عني، ونقله إليّ شخص ثالث لا أعرفه، فيما يتعلّق باعتقاده أنني كنت مقيمًا في بيت الدعارة، وأنني كنت أستعمل فتيات البيت كيفما شئت دون أن

t.me/qurssan

أدفع سنتيمًا واحدًا. ولأبدأ القصة بذكر أنني في أحيان كثيرة، كنت أجد نفسي بلا سنتيم واحد في جيبي، بالإضافة إلى أنني لم أكن أملك مكانًا، أستطيع أن أضع فيه رأسي وأنام، عندما يحلّ الظلام. لهذا قامت صاحبة البيت مدام جوليا ملاك الرحمة بوساطة من إحدى الفتيات بتخصيص حجرة لي في منزلها، حجرة دائمة يمكنني أن أذهب إليها في أي مساء إذا أردت النوم، ولم يكن لي أي مكان آخر ألجأ إليه.

لكن المدام كانت مضطرّة إلى أن تقول أمام الفتيات الأخريات أنني أدفع إيجارًا شهريًّا لهذه الحجرة، حتى لا تطمع في كرمها الأخريات. وهكذا كان الناس يشاهدونني وأنا أدخل بيت الدعارة كل ليلة، دون أن يعرفوا أنني فقط أسكن واحدة من حجراته، وهذا هو ما جعل الشائعات تدور حول فحولتي الجنسية، رغم أنني في أغلب الليالي كنت أقضي الليل وحدي في فراشي.

إن أفعال الخير في العالم أجمع التي يمكن لفتاة أن تقوم بها قد تشمل توفير فراش لصديقها، إلا أنها لا تشمل على الإطلاق أن تهبه جسدها كعمل من الأعمال الخيريّة، حتى أن الفتاة التي توسّطت لي لدى مدام جوليا، كانت عندما تنام معي، تجعلني أدفع الأجرة المقرّرة لها، والمعلن عنها عند مدخل البيت، دون أي خصومات أو تخفيضات، كما لو كنت زبونًا عاديًّا ليست بينها وبينه أدنى معرفة. كما يقولون» إن الشُغْل شُغْل»، ولا مجال لخلط المشاعر العاطفية بالمكاسب الاقتصادية.

هذا هو أحد المبادئ التي تتمسّك بها الفتيات في هذا النوع من الأعمال. ويجب أن تكون شخصًا في مثل إنسانية تولستوي إذا كنت

تعتقد خلاف ذلك. سُحْقًا لأولئك المؤلّفين من أصحاب الرسالات الإنسانية، وتعسًا لخيالاتهم التي ضلّلت أجيالًا من البشر. أقول لك يمكنك أن تمارس الجنس مع أي سيّدة أو فتاة، مجّانًا في أي مكان في العالم، إلا إذا كانت الفتاة عاملة محترفة في بيت دعارة، باستثناء وحيد هو أن تكون أنت قوّاد الفتاة، الذي تدفع له لحمايتها، في هذه الحالة فقط، قد تفكّر الفتاة في توفير أجرك، بأن تهبك نفسها، فقط لو أنك أنت أردت ذلك. وهذا هو ما لم أكنه أنا، ولم يكنه صديقي الحميم في ذلك الوقت المدعو كورساكوف.

كنا قد ذهبنا أنا وصديقي كورساكوف إلى بلجيكا سنة ١٩١٠، بغرض التسكّع والصعلكة. في ذلك الوقت كنا ثرثارين غير جادين، متمرّدين على كل شيء، ساخرين من كل شيء، وكنا نفضّل احتساء زجاجة كونياك على الذهاب إلى بيت دعارة. مع ذلك ففي بلجيكا قرّر صديقي أن يتركني أستأنف الصعلكة وحدي، واختار امرأةً واستقرّ معها.

أما أنا فبعد أن استمتعت قدر الإمكان بحجرتي الشهيرة لدى جوليا، كان يجب عليّ أن أبحث عن عمل في شركة البواخر (أورانيوم)، التي كان مقرّها في آنتويرب، وتعمل في نقل المهاجرين البؤساء من مرفأ ليباوا ببولندا إلى نيويورك. وهو ما جعلني أقضي ليلة رأس السنة ١٩١٠/ ١٩١١، في مرفأ القدّيس يوحنّا، في الأرض الجديدة على الساحل الشرقي لكندا، لكن تلك هي حكاية أخرى ليس هنا مجال لروايتها الآن.

هذه هي المتعة التي يحصل عليها كل من يعمل في البحرية، سواء التجارية أو نقل الركّاب، إذ يمكن للسفن التي تعمل عليها أن تقودك

t.me/qurssan

إلى أي مكان في العالم، حتى إلى أكثر الأماكن بُعدًا بعضها عن بعض، كأن تذهب في سفينة من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، مرورًا بالمحيط الأطلسي بامتداد آلاف الكيلومترات، أو أن تدور حول الكرة الأرضية من الأرجنتين إلى الصين عبر المحيط الهادئ، ثم عبر رأس الرجاء الصالح عائدًا إلى الأرجنتين، حتى تصل إلى نفس الفنار الضوئي، الذي انطلقت من أمامه قبل بضعة أشهر، لتجد حوله نفس أفراد العائلة مجتمعين، لم يتغيّر في أيٍّ منهم أي شيء، في حين تكون أنت في نفس ذلك الوقت قد درت حول العالم.

(٤)

كان كورساكوف في البداية بحّارًا من العاملين فوق مياه البحر الأسود، ثم اشترك في التمرّد الذي حدث على ظهر البارجة بوتمكين، التي سيخلّدها المخرج الروسي آيزنشتاين في فيلم سنة ١٩٢٥. ثم حدث أن هجر كورساكوف المهنة. ثم حدّثني لاحقًا عن النقيب شميدت، وعن سيّدة أحبّها كانت تُدعى ماريا سبيريدونوفا، كان يحمل لها صورة فوتوغرافية في جيبه طول الوقت.

كان هذا النقيب من بين من شاركوا في الثورة الروسية بين عامي ١٩٠٥ و١٩٠٨، لكن دعوني هنا أتساءل: من هو الروسي الذي لم يشارك أو لم يتورّط بشكل من الأشكال من قريب أو من بعيد في هذه الثورة؟ فيما بعد كانت صورة هذه البطلة الشهيدة سبيريدونوفا تباع على البطاقات البريدية، لصالح صندوق مساعدة المهاجرين الثوريين الاشتراكيين.

أما كيف تعرّفتُ إلى كورساكوف، ثم تعلّقت به وأصبحنا خير صديقين، فالقصة تبدأ في بار كوجاس، حيث كان أحد أعمدة المشرب المشهور بأنه مكان التقاء مزيّفي النقود في المدينة. كنت أنا نفسي أحد الأعمدة الأخرى للمكان. كان إجمالي عدد المتردّدين شبه اليوميين على المكان يتعدّى المئة شخص، وكنا كلّنا تقريبًا باستثناءات قليلة موضع شبهات وشكوك، بتردّدنا على هذا المكان صباحًا ومساءً، دخولًا وخروجًا طول الوقت. يأخذ كلٌّ منا مكانه المعتاد، وقوفًا في الصالة الجانبية، وكلٌّ منا قبّعته على رأسه كما لو كنا في أحد المعابد اليهودية. هذا التشبيه جاء من حقيقة أن أغلب المتردّدين اليوميين على المكان -النسبة الأكبر- كانوا من الطائفة اليهودية.

كانوا يقفون حول الموائد التي إمّا أن تدور عليها ألعاب الورق= الكوتشينة، أو أن تدور حولها المناقشات الفوضوية الأناركية **anarchism** أو العدمية النهيلية **nihilism** ، التي تندلع كل حين، مثل النار التي لا تخمد، بل تظل جذوتها متّقدة تحت الرماد. كان هذان التيّاران الفكريان هما السائدان في أوروبا ما قبل الحرب العالمية الأولى.

أمّا السيّدات المتواجدات داخل البار، فإذا لم يكنّ من فتيات جيش الخلاص الكاثوليكي، اللائي يدخلن المشارب بغرض الدعوة إلى الخلاص من خطايا العالم باتباع خطى يسوع، أو من السيّدات العرّافات المتكهّنات الوثنيّات من مدّعيات قراءة الطالع، فهنّ في الغالب يكنّ من النساء الظريفات المتدلّلات، اللائي سيحاولن حتمًا أن يجعلنك تشعر بمدى معاناتهنّ من التهاب مناطق أعضائهنّ التناسلية.

t.me/qurssan

عدا كل هذه النوعيّات من البشر، هناك كذلك الرفاق الذين يدورون بين المشارب، لبيع النشرات التي تدعو إلى مذهب مالتوس الاقتصادي. والفتيات الصغيرات في منتصف العقد الثاني اللائي يردن الاحتفاظ بأجنّتهن، رغم عدم معرفتهنّ بآباء الأجنّة، ويبحثن عنهم بين روّاد المشارب. هناك كذلك المتجوّلون ليلًا في الشوارع الكبيرة وهم شبه نيام، تفوح منهم روائح مشروب الأبسنت **absinthe**، العالي الكحولية الثقيل الأثر، الذي منعته الحكومات لاحقًا لتسبّبه في حالات وفيات.

ورغم أن من كانوا يشربونه كانوا فعلًا يهدفون إلى الموت، إلا أنهم في الغالب لم يكونوا يموتون به، بل كانوا يموتون بسبب الجوع أو الفقر المدقع، وهم كانوا في شوارع آنتويرب أكثر عددًا، من أولئك الذين كانوا قادرين سنة ١٩١٠ على دفع ٢ سنتيم فقط لا غير، مقابل صحن مليء بوجبة الشوكروت المراكشية، أو طبق من فواكه البحر، أو طبق حساء البصل، أو النقانق الحارة بالبهارات، أو طبق من البطاطس المقلية. كان أغلب مشرّدي الشوارع لا يمتلكون ٢ سنتيم في جيوبهم.

ناهيك عن أولئك غير القادرين على شراء التبغ، فيضطرون إلى الوقوف إلى جوار أبواب المشارب، لاستنشاق الهواء المشبّع بالتبغ الخارج منها. ثم هناك أولئك المرهقون البؤساء، مستنزَفو القوى، الذين أمضوا نهارهم وجزءًا كبيرًا من ليلهم، مشيًا تحت وابل من المطر، في طرقات المدينة التي تبدو بلا نهاية، الذين بمجرّد دخولهم إلى جو المشرب الدافئ، يتبوّلون في ملابسهم وقوفًا. كان المشرب هو خلاصة البؤس المجسّم، المكوّن من المادة البشرية المعلّقة في الهواء. أمّا

سائقو سيّارات الأجرة الذي يقفون ليلًا في انتظار خروج الزبائن، فكانوا يتجمّعون حول بعضهم البعض، ويتحدّثون بصوت خفيض كما لو كانوا يدبّرون مؤامرة غامضة.

(٥)

على باب بار مزيّفي النقود كان يقف بصفة دائمة أحد أكثر الأفراد إثارة للشك والريبة، وهو من أطلقت عليه لاحقًا لقب سقراط. كان هذا هو الشخص الذي يقوم بتوليد كل نساء الحيّ، اللائي لا يعرفن من هم آباء أولادهنّ، ويقف في موقعه هذا حتى ساعات الصباح الأولى، مستعدًّا للتدخّل على الفور عند الاحتياج إليه، مرتديًا مريلة زرقاء، ممتلئة عن آخرها ببقع من قاذورات مختلفة الألوان والأشكال.

كان يقف خلف باب البار، ثم بين لحظة وأخرى، يزيح ستارة الباب بإصبعه، ملقيًا بنظرة على خارج المكان، وبمجرّد أن يرى رجلًا وامرأة يخرجان من المطعم المجاور ويسيران معًا، بشرط أن تكون المرأة فاخرة الثياب، تفوح منها روائح العطور، وأن يكون الرجل مخمورًا تمامًا، حتى يندفع نحوهما ويتبعهما لمسافة ما، وهو يقدّم لهما عرضا بالحصول على أحد هؤلاء الأطفال الرضّع المساكين مجهولي الأب، المولودين للتوّ في إحدى الحجرات المخصّصة لبوّابي العمارات القريبة، فإذا لم ينجح في عقد هذه الصفقة، يعرض عليهما اقتناء كلب لولو، مولود هو الآخر للتوّ، تقريبًا في نفس حجرات البوّابين.

في الحالتين تغطّي وجه هذا الحقير، الذي لا تظهر عليه أي علامات

t.me/qurssan

الاحترام، ابتسامته البشعة التي تدلّ على كم هو حقير. فإذا فشل في عقد الصفقتين، عاد إلى موقعه من الباب، وظلّ واقفًا هناك، موزّع النظرات بين الداخل والخارج، حتى تزوغ الحمامات الضالات، في اتجاه محطّات قطار الضواحي، ويغمر الكون الضوء الأزرق الباهت لفجر جديد.

في هذا البار كانت لصديقي كورساكوف سمعة سيّئة جدًّا، إذ كان معروفًا عنه أنه نصّاب سيّئ النيّة، وأنه يغشّ في أوراق اللعب. على كل الأحوال كانوا يخشونه لضخامة جسمه، ولأني أشعت عنه أن دماغه به خللٌ ما، وكنت أتهامس مع الآخرين، مشيعًا أنه كان على علاقة بامرأة خانته، وهو ما حوّله إلى هذا المتوحّش الحالي، وأنه بسبب ذلك أدمن الكوكايين، ولم يعد قادرًا على أن تكون له من جديد أي علاقة طبيعية متوازنة بأيِّ امرأة.

لكنه مع ذلك كان يحظى بقدر من الاحترام، لأني أشعت عنه كذلك أنه كان قبل الإدمان طالبًا جامعيًّا يدرس الكيمياء والفيزياء الكهربائية، ولهذا دارت الحوارات بين جماعة الفوضويّين العدميّين عن إمكانية الاستفادة منه في صنع القنابل والمتفجّرات اللازمة لتحقيق أهدافهم الفوضوية العدمية. ثم دار التساؤل حول احتمالية ضلوعه -قبل فترة زمنية وجيزة- في تزييف الجنيه الذهبي الفرنسي، الذي كان يحمل على أحد وجهيه صورة لويس ملك فرنسا، وهي القصّة التي كانت قد أهاجت الحيّ اللاتيني في باريس.

عند الخوض في مثل هذه المسائل المثيرة للشبهات، كان المتكلّمون يحرصون قبل الكلام على التدقيق في وجوه كل من يحيطون بهم، وعلى

خفض طبقة الصوت قدر المستطاع، إذ إنه عند امتلاء البار بزبائنه، كان يحدث أحيانًا أن يندسّ بين الجمع أحد المرشدين العاملين مع شرطة المدينة، وكان عددهم في ذلك الوقت كبيرًا. لكم كنت أتحرّق شوقًا لمعرفة نوعية الإشاعات التي كانت تدور حولي أنا، وفي الحقيقة ما زلت حتى الآن، أتمنى لو عرفت ماذا كان يقال عنّي في ذلك الحين.

(٦)

في باريس كانت قد استعانت بي ذات مرّة -دون أن تكون قد عرفتني معرفة وثيقة- فتاة روسية جميلة، كانت تريد أن تتخلّص نهائيًّا من عشيقها اللحوح، فنصحتها بضرورة الاختفاء قدر الإمكان، من كل الأماكن التي يمكنه أن يتواجد فيها، وساعدتها في العثور على سكن جديد، في مجمّع حجرات كان معروفًا باسم البرج الخشبي. زينيا **Zenia** المقدّسة... كم كانت جميلة!

كانت الساعة الحادية عشرة مساءً، وكنت واقفًا أنتظر في ميدان بانتيون، على بعد خطوتين اثنتين من قسم الشرطة، حين جاء كورساكوف ومعه نصف دستة بحّارة، وهم يجرّون ثلاث عربات خشبية تجرّ باليد، ركنوها فوق الرصيف، ثم اندفع هذا الفريق إلى داخل فندق الرجال العظماء، ثم بعد لحظة حدثت قرقعات متتالية، قادمة من طوابق الفندق المختلفة، إثر الفتح العنيف للدرفات الخشبية لعدد من النوافذ، وبالتالي ارتطامها بجدران الفندق، كما أضاءت بعض الحجرات مصابيحها.

في لحظة تالية بدأ هذا الفريق المكوّن من سبعة رجال في زحلقة

t.me/qurssan

حقائب زينيا المربوطة بالحبال، على الجدران الخارجية للفندق، حيث يقف زميل آخر على الرصيف، يتلقّف الحقائب ويضعها كيفما اتفق في عربات اليد. بدا لي كل هذا كما لو كانت عملية سطو على محتويات الفندق. في لحظة تالية ظهر كل الرجال معًا على الرصيف، وبدأوا في جرّ عربات اليد المحمّلة بالحقائب، في اتجاه متجر يبيع في نفس الوقت، أكياس الفحم وزجاجات النبيذ، وهي أهم وسائل التدفئة في المجتمع الفرنسي المعاصر، ويقع المتجر خلف مباني مدرسة الطبّ.

وقف كل فرد من أفراد الفريق وفي يده كوب نبيذ، حتى وصلت زينيا وعلى وجهها ابتسامة عريضة، وهي جالسة في مقعد عربة يجرّها حصان، تقودها بنفسها، هنا اندفع الفريق معًا من جديد، لشحن هذه العربة بالحقائب، وترتيبها بنظام يسمح للمساحة المحدودة المتاحة في العربة، باستيعاب كل الحقائب. ثم على الفور قفز كورساكوف إلى مقعد قائد العربة، إلى جوار زينيا، وأمسك بمقود الحصان، وطرقع السوط في الهواء، فاندفعت العربة في سرعة مفاجئة، حتى اختفيا في عمق الشارع، باتجاه ميدان دانتون.

بدا لي واضحًا أن كورساكوف هو عشيق زينيا الجديد، وبدت لي هذه العملية كلها -التي لم تستغرق إلا نصف ساعة فقط لا غير- كما لو كانت أقرب إلى شغل الهواة أو السحرة المشعوذين، أو أنها كانت كذلك نوعًا من التمثيل الصامت، حيث إن أحدًا من أفراد الفريق لم ينطق بكلمة واحدة بصوت مرتفع، بل تمّت كل الحوارات الجانبية بأصوات هامسة، حرصًا على السرّية، مع ضرورة أن أصرّح لكم أنني لم أشاهد أبدًا طوال

حياتي، مسرحية صامتة على هذا القدر من الإتقان.

بعد لحظة أزاحنا صاحب متجر الفحم والنبيذ إلى خارج متجره، وأطفأ المصابيح التي كانت مضاءة على واجهة المتجر، ثم أغلق الباب خلفنا، ومشى مبتعدًا عنا، وفي لحظة واحدة تشتّت هذا الحشد الصغير، وتفرّق البحّارة الستّة في كل الاتجاهات، كما لو أنهم لم يتقابلوا أبدًا من قبل، أو كما لو أنهم لم يروا أو يسمعوا عن عملية الاختطاف السريع هذه. بقيت وحدي في الممر الصغير المجاور للمتجر، وجاءت قطّة صغيرة تواسيني، بعد أن شعرت بوحدتي، بأن حكّت رأسها الصغير في ساقي.

بعد ثلاثين عامًا من تلك الواقعة، عثرت عليها من جديد، زينيا المقدّسة، وهي تعمل في متجر بحيّ الإيتوال (النجمة)، عند نهاية شارع الشانزليزيه بباريس، لبيع لوحات الفنّ الحديث. ثم اكتشفت أنها صاحبة المتجر، وهذا كان يدلّ في ذلك الوقت على ثراء فاحش، حين بدأت لوحات بعض فنّاني فرنسا الجدد، تصل في أثمانها إلى مئات الآلاف من الدولارات، عملة العصور الحديثة. كانت لا تزال في خمسينياتها تحتفظ بنفس العينين المغويتين، وبنفس الصوت الدافئ، النابع من الأعماق، الذي يميز الروسيّات، فلا نملّ من الإنصات إليهنّ، حتى لو لم نكن نفهم لغتهنّ.

t.me/qurssan

صديقي الروسي

(١)

كانت معرفتي بكورساكوف مبكّرة جدًّا في حياتي. كنت قد ذهبت بالقطار إلى سان بطرسبورج، وتقابلت معه هناك، وحضر معي إلى باريس، لأنه اعتقد أنني ثريّ جدًّا، بفضل النقود التي كان والدي لا يزال يرسلها إليّ. تركته في باريس وعدت وحدي إلى روسيا حيث قابلت روجوفين، وعملت معه لبعض الوقت. لذلك كنت قد افترقت عن كورساكوف بضعة أعوام، ثم تقابلنا من جديد، إذ إنه كان لا يزال يعيش في باريس، حتى أن لغته الفرنسية تحسّنت جدًّا. تمكنّت من إقناعه بترك باريس، والذهاب معي إلى أنتويرب. في ذلك الوقت كنت لا أزال مسجّلًا كطالب في العام الرابع، بكلية طبّ برن بسويسرا، ومن المفترض أنني كنت متابعًا للدراسة هناك.

المشكلة التي واجهتني في ذلك الوقت، ومنعتني من استئناف دراسة الطب، هي أن كل شيء في هذا العالم، كان قد بدأ يثير اهتمامي، فمنذ ذهابي إلى الصين لأول مرّة سنة ١٩٠٤، حيث اختبرت معنى الحياة

الحرّة، المستقلّة تمام الاستقلال عن كل شيء عداي، وحيث تنقّلت بين البلاد والمدن دون عمل أيّ حساب لأيّ شيء. ذهبت من روسيا إلى الصين إلى فارس ثم عدت إلى روسيا، خلال جولتي الأولى في عامي الأول من الحرية، دون أي إحساس بأي عوائق تعيقني عن حرّية الحركة. ثم حدث أن نجحت بسهولة في جمع المليون الأول، من العمل في تجارة المجوهرات، الذي أنفقته كله لاحقًا على رحلاتي حول العالم، وعلى حياتي الصاخبة في الملاهي الليلية في عواصم العالم.

نتيجة لهذا لم أعد أبدًا قادرًا على أن أخضع نفسي لنظام عمل واحد في مكان واحد، أذهب إليه كل صباح وأعود منه كل مساء، ولم أعد حتى قادرًا على متابعة الدراسة في الجامعة، رغم وجود كتيبة كاملة من الطالبات الفاتنات الروسيّات، اللائي كان من بينهنّ من هنّ جديرات، بأن يكرّس المرء حياته كلها لواحدة منهنّ، وهو ما لم أمنع نفسي عنه تمامًا، بل فقط جزئيًّا. كانت الحياة المنتظمة الرتيبة تلك، التي يعرف فيها المرء مقدّمًا، كل ما سيحدث له حتى مماته، قد بدأت تصيبني بملل قاتل.

كان كل شيء إذنْ يصيبني بالملل، إلا القراءة التي كنت طوال حياتي متعطّشًا لها، وزاد هذا التعطّش بشكل حاد منذ سنّ العشرين. لكن هذه الفوضى وهذا الاضطراب، اللذين أصابا حياتي المادية منذ زمن مبكّر، أضافت إليهما قراءاتي المبكّرة النهمة، نوعا آخر من الاضطراب، هو الاضطراب النفسي، وهكذا عندما حدث أن أصابني الملل من الدروس والمحاضرات في قاعات الدرس، ومن قراءة المراجع الطبية السميكة في صالات القراءة في المكتبات الجامعية، ومن الجثث في قاعات التشريح،

t.me/qurssan

ومن المرضى في عنابر المستشفيات، ومن الامتحانات الدورية التي تبدو كما لو أنها كانت بلا نهاية، قذفت بنفسي في مياه البحار العميقة الدافئة عند خطّ الاستواء، حيث تشرق الشمس كل صباح.

بدأت في سن العشرين العمل كبحّار. لم أحمل معي أبدًا خلال رحلاتي الطويلة أي شيء آخر باستثناء الكتب، التي كنت أقرأها كلما أتيحت لي فرصة الحصول على وقت فراغ خلال إقامتي على السفن. كنت دائمًا أشتري كتبًا جديدةً في كل موانئ العالم التي توقّفنا عندها، إذ لا أعدم العثور على مكتبات فيها كتب بواحدة من اللغات التي أتقنتها. امتلأت الحقائب بالكتب واحدةً بعد أخرى، حتى وصل عدد الحقائب المليئة بالكتب إلى عشر حقائب. وكان من عادتي أن أتنقّل بحقائبي تلك من سفينة إلى أخرى، ولم يكن هذا يحدث كثيرًا، إذ كنت أقيم أحيانًا على بعض السفن طوال عام كامل، في رحلات جيئةً وذهابًا بين أوروبا وأمريكا، أو بين أوروبا والصين.

كان كورساكوف قد عاد إلى روسيا، عندما عدت إلى لقائه، أثناء توقّف السفينة التي أعمل عليها في سانت بطرسبورج. أقنعني كورساكوف بضرورة التخلّص من هذه الحقائب، بإرسالها على سفينة شحن بضائع إلى آنتويرب. وفيما بعد عندما كنت أعود إلى آنتويرب، خلال سنوات استمراري في العمل كبحّار دائم التنقّل، لم تكن لديّ أبدًا نيّة استرداد الحقائب، لأنه لم يكن لديّ منزل في آنتويرب، ثم بعد ذلك لأنه لم تكن معي أبدًا نقود كافية لدفع قيمة الجمارك المقدّرة على هذه الكتب، ولا لدفع رسوم تخزينها في مخازن البضائع المتروكة على أرصفة ميناء آنتويرب.

هكذا وصلتني ذات يوم رسالة تبلغني فيها إدارة الجمارك البلجيكية بأنها مضطرّة إلى التخلّص من حقائبي ببيعها في المزاد العلني الذي يعقد كل بضعة أشهر، حيث تعرض للبيع كل أنواع البضائع التي تخلّى عنها أصحابها. كان المبلغ المطلوب لاسترداد الحقائب قد تضاعف عدّة مرّات، بسبب ارتفاع قيمة شغل أرضية المخازن، بعدد عشر حقائب كبيرة الحجم.

هنا خطرت في بالي فكرة حضور هذا المزاد، لوجود احتمال القدرة على استرداد هذه الكتب، بمبلغ أقل من ذلك الذي كان من المفروض دفعه للتخليص عليها جمركيًّا، حيث إنني لم أعهد أن يكون هواة الكتب من بين الزبائن المعتادين لتلك المزادات. وهكذا أقنعت كورساكوف بالذهاب معي إلى آنتويرب، بعد أن وجدت أن بريق عينيه ازداد تألّقًا، على أمل أن يحصل منّي على نصيب طيّب من المال، من بيع هذه الكتب لمكتبات المدينة، وهو المال الذي كان كلٌّ منا في ذلك الوقت، في أمس الحاجة إليه.

(٢)

كنت قد تركت السفينة التي عملت عليها، وذهبت إليه في عنوانه في سانت بطرسبورج، حيث تركنا الحجرة التي توقّف عن دفع إيجارها، وعشنا أسابيع نتسكّع على أرصفة مينائها، إذ لم نتمكّن من الحصول على أي عمل، باستثناء بعض عمليات النصب والتحايل، التي أساءت إلى سمعتنا على أرصفة الميناء، خصوصا وأن سمعتنا كانت قد تدهورت

t.me/qurssan

بسبب إقاماتنا على الأرصفة، وبسبب قضاء الليل على الأرصفة، لعدم قدرتنا على دفع ثمن حجرة في فندق، ولو لليلة واحدة، وبالتالي لم نكن قد اغتسلنا منذ بضعة أسابيع، وكانت رائحتنا قذرة. كل هذا طبعًا بالإضافة إلى الذقن غير المحلوق، والمعدة الخاوية، والأقدام المرهقة.

لم نكن نقبل العمل الوحيد المعروض علينا، في تفريغ وشحن البضائع، لأنه كان مرهقًا جدًّا. لا أعرف ماذا كنا نتوقّع. كنا ننتظر الفرص غير المتوقّعة، للحصول على العمل المناسب المجزي المريح. كنا قد استنفدنا رصيدنا في كل حانات الميناء، بل في الحقيقة في كل حانات المدينة، حيث لم نعد نجد من يقبل أن يدفع لنا ثمن مشروباتنا، حتى نساء تلك الحانات كنّ يسخرن منا، خاصة نساء حانة جوليا **Julia**. وهكذا فبالإضافة إلى المعدة الخاوية، أصبح الدماغ هو الآخر خاويًا.

كنا دائمي السخرية من أنفسنا ومن العالم كله، متوجّهين إلى كل شخص نقابله، بكل أنواع السباب الممكنة، إذ لم نتمكّن من السيطرة على ألسنتنا المندفعة نحو الآخرين بكل قذاراتها. تلك هي الفترة التي أتقنت فيها الروسية. في الحقيقة كان إطلاق الكلمات هكذا دون توقّف هي حيلة كنا نحاول بها أن نصرف أذهان الآخرين الذين ينصتون إلينا، عن التفكير في حقيقة أوضاعنا البائسة. هذه الحيلة هي نفسها التي استعملناها خلال جزء من رحلتنا الطويلة، من سانت بطرسبورج إلى آنتويرب، الذي كان جزء منها قد تمّ على ظهر سفينة بخارية، مبحرة فوق مياه نهر الفولجا، ببطء ممل رتيب طويل.

كانت الحوارات بيننا أنا وكورساكوف تدور حول بعض موضوعاتنا الأثيرة، مثل مقدار حجم المشيئة الإلهية في كل ما يحدث للبشر كل يوم في كل بقاع الأرض، ومثل الهدف الحقيقي من عملية خلق الكون، التي قام بها هذا الإله الغريب، لأسباب كانت تبدو لنا غير واضحة. في الحقيقة إن الرحلة عبر الأراضي الشاسعة للإمبراطورية الروسية التي تبدو ممتدّة إلى ما لا نهاية، تجعل أي مغامر أوروبي -خاصة لو كان قادمًا من بلد ضئيل الحجم جدًّا مثل سويسرا- يتساءل مثل هذه التساؤلات، لأي غرض أنشأ الربّ كل هذه الأراضي الشاسعة والغابات اللانهائية، التي تغطّيها الثلوج تقريبًا طوال العام؟ ماذا كان يريد أن يفعل بالضبط؟

هذه الفكرة كانت في الأساس قد جاءتني من القبطان الروسي روجوفين، رئيسي السابق الذي كان فيلسوفًا، الذي علّمني أسرار تجارة المجوهرات، ثم أشركني معه فيها، وذهبت معه ثلاث مرّات إلى أسواق المجوهرات في نوفجورود **Novgorod**.

(٢)

خلال الرحلة البريّة بين سانت بطرسبورج وآنتويرب، كنا نقيم في المباني القديمة المهجورة، أو على أطراف المزارع الريفية عندما يكون الجوّ دافئًا نسبيًّا. كنت أثناء هذه الرحلة أحمل في جيبي كتاب الشاعر الفرنسي فيلون المعنون (العهد الكبير) **Le Grand Testament**، والمطبوع لأول مرة سنة ١٤٦١، وكنت أقول في نفسي إن هذا الكتاب هو الشيء الوحيد الذي يجعلني مختلفًا ومتميّزًا عن كورساكوف، الذي

t.me/qurssan

لم يكن يهتم بالكتب. كنت حتى ذلك الوقت أعتبر كورساكوف واحدًا من الأوغاد السوقة الأوباش، بسبب ما كان يتميّز به من نذالة وحقارة. لكني كنت في الحقيقة أحاول أن أتعلّم منه بعض هذه النذالة.

أقول في نفسي الآن لعلّي كنت مخطئًا في حكمي عليه، لأننا -أنا وهو- في الحقيقة مصنوعان في الأساس من مادتين أوّليّتين مختلفتين، وبالتالي فمن الطبيعي أن تكون النتيجتان مختلفتين. ثم لأن النذالة لم تكن هي وحدها من بين صفاته الرئيسة؛ لأني خلال رحلتنا الطويلة تلك أدركت أنه يتميّز بثلاث ميزات هامة.

أولًا- خلو البال التام من أي قلق أو هموم أو وساوس، بحيث إنه لا تدور في باله على الإطلاق مثل هذه الأفكار، بل هو دائمًا في حالة لا يمكن تعكيرها من المزاج الرائق، إذ تنطلق منه فجأة الضحكات الرائقة التي تجلجل في المكان.

ثانيًا- استعداد تام لمواجهة أيّ عوارض طارئة، بحيث إننا عندما نضطر إلى تغيير خططنا، فهو لا يمانع أبدًا.

ثالثًا- ليست لديه أيّ تطلّعات بورجوازية، مثل الرغبة في الحصول على ملكيات خاصة، أي الرغبة في امتلاك منزل أو قطعة أرض أو حتى أي شيء آخر، وهو ما كان يتناسب تمامًا مع الشيوعية الوليدة في زمن نهاية روسيا القيصرية.

أكتب هذا رغم أنني في نهاية صداقتنا سيتغيّر رأيي عنه بخصوص ثالثًا.

سأحاول أن أضيف المزيد من التفاصيل عن شخصيته، التي تبيّنتها بالتدريج فيما بعد:

١- هو في حالة من السكر الدائم، والرغبة في العربدة والصعلكة، حتى لو لم يكن قد تناول قطرة واحدة من الخمور، فطريقة تفكيره دائمًا هي طريقة تفكير شخص في حالة سُكر. وقد اكتشفت بعد طول عشرة أنه الشخص الوحيد الذي عرفته، وكان قادرًا على منافستي في احتساء الخمور، من حيث الكميّات التي تبدو لا نهائية، التي يمكن لشخص واحد أن يحتسيها في جلسة واحدة.

٢- قدرة هائلة على ممارسة فنون الصعلكة، التي ينبغ فيها بشكل خاص الرجال الشباب من أفراد الشعب الروسي، ومن بين هذه الفنون بشكل خاص القدرة على قضاء الليل في العراء، حتى في برد الشتاء الروسي، ومعرفة كيفية إشعال نار التدفئة من أي كمّية ولو صغيرة من الحطب. لا شك في أن صحتّه الجيّدة وبنيانه القويّ ساعداه في ذلك.

٣- قدرته على السخرية من كل مواقف الحياة، وتحويل أصعبها إلى موقف يدعو إلى الضحك. وهذا لم يكن ناتجًا عن دراسة فلسفة معيّنة، بل كانت هذه الموهبة تبدو أقرب إلى الغريزة الطبيعية في الإنسان، مثل غريزة أن يقوم عضو الرجل الجنسي بقذف السائل المنوي عندما يستثار جنسيًّا.

٤- كانت لديه قدرة واضحة على التصرّف التلقائي مع كل أصناف النساء على الأرض، بحيث يمكنه أن يحصل من أيٍّ منهنّ على كل ما يريد، وهنا لا أعني فقط الرغبات الجنسية، بل كذلك المبالغ النقدية

t.me/qurssan

ووجبات الطعام، التي كان يحصل لنا عليها من نساء المزارع الريفية، التي توقّفنا عندها أثناء سفرنا معًا على الطريق بين سانت بترسبورج وآنتويرب.

٥- أما عن صفاته الجسمانية بالإضافة إلى قوّته الجسدية، فلا شك في أن عمله السابق كبحّار في الأسطول الإمبراطوري الروسي، جعل من يديه المشعرتين الضخمتين شبه المشوّهتين، أداتين استثنائيتين لأيّ ممارسات مهما كانت شاذةً. كانت رأسه ضخمة وقبيحة، مثلما تكون عادة رؤوس المصارعين المحترفين، كما أن أسنانه لم تكن منتظمة، وكانت لديه بعض الندبات على بشرة وجهه، مما يدلّ على إصابات سابقة بأمراض جلدية. وبالرغم من ضخامته تلك كان خفيف الحركة مثل صبيّ صغير.

(٤)

حكّ كورساكوف رأسه بأصابع يده، ثم أعاد حبك القبّعة فوق الرأس، ثم سألني: ماذا سنفعل لنخرج كتبك القذرة تلك من هذا المكان؟ كنا نقف دون أيّ حركة، أمام الواجهة المنفّرة الكريهة للمبنى، الذي يقع في نهاية رصيف الميناء، ويحتوي المخازن الخاصة بالبضائع، التي لم يتمكن أصحابها من دفع المستحقّات الجمركية عليها. كنا منذ بضعة أيام قد وصلنا إلى آنتويرب، واعتدنا على الذهاب إلى رصيف الميناء، والوقوف بهذه الطريقة حتى موعد غروب الشمس.

كانت البوّابة مصنوعة من شبكة من الحديد المطروق، التي كان

يمكننا من خلال فتحاتها أن نرى حرّاس المبنى وهم يتناولون وجبتهم المسائية، جالسين على الأرض حول مائدة منخفضة، في وسط الفناء المفتوح على السماء، إذ كان الجوّ لا يزال دافئًا. ثم يشعلون سجائرهم وهمّ يحتسون أقداح البيرة الكبيرة الحجم، ويتبادلون أطراف الحديث.

كانت هناك فوق لوحة الإعلانات السوداء أوراق عليها البيانات الخاصة بالمزادات، مثل مكان وزمان انعقادها، والتفاصيل الخاصة بقوائم البضائع المعروضة للبيع، وقرأت في إحدى القوائم على ورقة منها هذا البند (عشر حقائب كبيرة مليئة بالكتب)، بين مجموعة كبيرة من البنود متعدّدة الأغراض، والموعد هو نهاية هذا الشهر. إذنْ لم يعد لديّ المزيد من الوقت لإضاعته.

كانت الشمس عندئذ تغيب عند خطّ أفق بحر الشمال. مشينا إلى الطرف الآخر من رصيف الميناء، نبحث بأعيننا عن مأوى يمكننا أن نقضي فيه الليلة كيفما اتفق حتى صباح اليوم التالي، وهي مسألة كان مشكوكًا فيها تمامًا. لم يكن معنا سنتيم واحد، وكنا قد بلغنا حدًّا من الجوع لم نعد معه قادرين على التفكير. إلا أن الأكثر إيلامًا كان هو إحساسنا الشديد بالعطش. لكم تمنيّت لو أن هذه الكمّية الهائلة من مياه البحر، القذرة المشبّعة بالوقود والزيوتّ، وبكل أنواع السوائل الأخرى المتسرّبة من السفن، هي مياه مشروبات كحولية، من النبيذ أو الأبسنت absinthe. ليس من الممكن لهذا الوضع أن يستمر هكذا.

صباح اليوم التالي تركنا رصيف الميناء، ومشينا في اتجاه ميدان حلقة بيع السمك، حيث وقفنا إلى جوار صنبور مياه عمومي، ثم قلت

t.me/qurssan

لكورساكوف: «نظّف نفسك وهندم ملابسك قليلًا، لأني سأرسلك في مهمّة إلى وسط المدينة». خلعنا نصف ملابسنا، ثم وقفنا بصدور عارية، نستعمل الماء المتاح لنا مجّانًا، في تنظيف رؤوسنا وأعناقنا وأكتافنا وأذرعنا، وكان كورساكوف مشعرًا جدًّا في صدره وظهره، بالإضافة إلى عدد لا حصر له من الوشم على ذراعيه. هكذا انطلقت أصوات مرتفعة، بكل أنواع التعليقات العلنية، من أفواه بائعي السمك على أطراف الميدان، وكذلك من النساء المارات في الميدان، التي حاولنا ألا نلقي بالًا إليها.

ذهبت بعد ذلك بكورساكوف إلى ميدان محطّة القطار، حيث وقفنا أمام باب مطعم فاخر. وكان حي اليهود يقع إلى الجهة الأخرى من المحطّة، وهو لم يكن حيًّا فقيرًا بل على العكس تمامًا، إذ كان هو الحيّ الذي يسكن فيه الأثرياء من تجّار المدينة، خاصة من بائعي المجوهرات والألماظ والتحف القديمة. قال: «ماذا بك؟ هل ورثت مبلغًا من المال دون أن أدري؟». قلت: «لا تشغل بالك بالمال فلقد قرّرت أن نأكل أولًا، قبل أن نفعل أي شيء آخر. ثم سأذكر لك لاحقًا ما هي المهمّة التي سأكلّفك بأدائها».

دخلنا إلى المطعم، وطلبت من النادل وجبات طعام وزجاجات نبيذ تكفي أربعة أشخاص، ظللنا نأكل ونشرب فيها لمدة أربع ساعات، كانت كافية بالكاد لتسكت جوعنا إلى حين. أصبحت الساعة الآن الثالثة بعد الظهر، فطلبت فنجاني قهوة نحتسيهما، وسيجارين ندخّنهما على مهل، كما طلبت من النادل ورقةً وقلمًا. قال: «أشعر الآن بأنني في حالة

أفضل، ماذا سنفعل الآن؟ ألم يحن الوقت بعد لنقفز مندفعين في اتجاه باب المطعم؟».

(٥)

كانت قاعة المطعم الرئيسة قد أصبحت ثلاثة أرباع خالية، بعد انتهاء أغلب الزبائن من وجباتهم، وكان النادل في المطبخ، وفتاة الخزينة منحنية في صندوقها الخشبي، غالبًا مشغولةً بعدّ النقود ولا ترانا، ومدير المطعم مشغولًا بالحديث مع زبون يجلس في أحد أركان القاعة لا يلاحظنا. لو اندفعنا الآن لن يلحقوا بنا. كان الطريق بيننا وبين الباب خاليًا آمنًا، وكان الزبون الوحيد الذي يجلس في طريقنا إلى الباب رجلًا عجوزًا. غمز لي كورساكوف بعينه في اتجاه الباب المفتوح، وهو يعود بكرسيه إلى الخلف، ليتيح لجسمه مساحة تسمح بحريّة الحركة.

قلت: «لا. لن أغادر المكان، سأبقى أنا فيه وحدي، وستذهب أنت بهذه الرسالة التي أكتبها إلى شخص ما، وسنرى ماذا سيحدث بعد ذلك». عاد النادل بالقهوة والسيجارين، اللذين أشعلناهما وبدأنا في تدخينهما، واستأنف كورساكوف الحديث مع النادل عن إحدى علب الليل الباريسية التي يعرفها كورساكوف، وكان النادل يتردّد عليها أثناء دراسته في المدرسة الفندقية بباريس.

قلت لكورساكوف: «خذ هذه الورقة إلى الرجل الذي ستجد اسمه وعنوانه مكتوبين عليها، إنه على بعد خطوتين من هنا، إذ يقع متجره في الحي اليهودي، وحاول أن تجتهد في أن تعود إلى هنا، إمّا بالنقود

t.me/qurssan

أو بالرجل نفسه، وسيقتنع الرجل بمجرّد أن تقدّم له هذا الكتاب». ثمّ أخرجت من جيبي كتاب العهد الكبير لفيلون، وكان النادل قد ابتعد، فانحنيت في مقعدي لأقترب من أذن كورساكوف قائلًا: «هذا الكتاب يساوي ٢٠٠٠ فرنك، فليس هنام داعٍ لمزيد من الأسئلة، وأسرع الخطو».

نظر كورساكوف إليّ مندهشًا، وهو يقلّب الكتاب الصغير بين يديه الكبيرتين. كان الكتاب هو نسخة من طبعة قديمة جدًّا، عليها تاريخ هو سنة ١٥٣٢. قلت: «ضعه في جيبك واذهب على الفور». فوضع قبّعته على رأسه وخرج. سألني النادل: «هل يطلب سيّدي شيئًا آخر؟»، قلت: «نعم، أعطني سيجارًا آخر، ثم أليست لديكم جرائد اليوم؟». فذهب النادل وعاد وفي يده الجرائد. ظننت لوهلة أن النادل بدأ يتابع حركاتي بطرف عينيه، فغرقت في الجريدة برأسي، وقد مددت ساقي لآخذ راحتي تمامًا في هذا الكرسي المريح، وآخذ نفسًا عميقًا من السيجار، لأنفخ دوائر من الدخّان الأزرق في الهواء.

لم ألاحظ إلا متأخّرًا أنني باسترخائي هكذا في الكرسي، كنت قد فضحت نفسي، بكشف منظر حذائي القذر الممزّق أمام عيني النادل. تساءلت هل سيعود كورساكوف، أم أنني سأقضي هذه الليلة في السجن؟ كانت لديّ رغبة عنيفة في أن أغفو قليلًا، فوق هذا الكرسي المبطّن بمادة طريّة، والمكسو بمادة ناعمة الملمس، وهو ما يختلف تمامًا عن كل المواد التي نمت عليها خلال الأسابيع الأخيرة. ثم جاءت ساعة الحساب، إذ جاء النادل ووقف أمامي طالبًا دفع ثمن الوجبة والطلبات الإضافية.

كانت الساعة قد أصبحت الخامسة مساءً، وهي الساعة التي ينبغي فيها تفريغ صالة المطعم من زبائن وجبة الظهر، لترتيبها استعدادًا لاستقبال زبائن وجبة المساء من التجّار والمضاربين في البورصة، الذين ينهون عملهم في الخامسة مساءً. وبالطبع لأن كورساكوف لم يكن قد عاد بعد من المهمّة التي كلّفته بها، لذلك كنت مضطرًّا إلى مواجهة حقيقة أنني لن أتمكن من دفع ثمن الوجبة.

(٦)

مررت بنفس هذا الموقف المحرج بعد ذلك بعشر سنوات، في نفس هذا المطعم، وذلك رغم أن أوضاعي المادية كانت قد تحسّنت جدًّا خلال العشر سنوات، حتى أنني في ذلك اليوم من سنة ١٩٢٠ ، كنت أقيم مأدبة عشاء، استأجرت من أجلها الطابق العلوي للمطعم بأكمله، لدعوة الأبناء الأربعة لأحد أكبر ملاّك السفن من تجّار آنتويرب، مع زوجاتهم والأصدقاء من مدعوويهم، وهو رجل الأعمال الذي كان يتولّى بنفسه مسئولية شحن وتفريغ أسطول سفن يمتلكه، ويتكوّن من ثلاث سفن تذهب إلى الصين محمّلة بالبضائع الأوروبية، وتعود من الصين محمّلة بالبضائع الآسيوية. كنت قد اشتريت منه شحنة مكوّنة من تسعة ملايين بيضة، قادمة من الصين محمّلة على سفنه الثلاث.

كان الأخوة الأربعة ومدعووهم يقومون بالرقص مع نسائهم، على أنغام موسيقى الجاز المنبعثة من آلات الفرقة الموسيقية المكوّنة من عازفين أمريكيين سود البشرة. وكان الجميع يستمتعون بهذه السهرة،

t.me/qurssan

رغم ورود أنباء عن وقوع السفن الثلاث في قبضة عواصف شديدة، وكانت واحدة تعبر بحر القنال الإنجليزي (المانش)، وكانت الثانية تعبر خليج جاسكونيا بين شمال إسبانيا وجنوب فرنسا، وكانت الثالثة تعبر مضيق جبل طارق. لم تكن أي من هذه السفن تجيب على رسائلي التلغرافية إليها، بطلب تحويل وجهتها من آنتويرب إلى لندن، حيث كان يمكنني أن أكسب سنتيمًا واحدًا عن كل بيضة، أي فرنكًا واحدًا عن كل مئة بيضة، وهو ما يعني إجمالي مكاسب تقدّر بتسعين ألفًا من الفرنكات.

كان كل أفراد طاقم المطعم يكرّسون أنفسهم لخدمتي ولخدمة ضيوفي، وكانت السيدة المسئولة عن استلام وتسليم الحقائب والمعاطف عند باب مدخل المطعم هي التي تجري لي المكالمات التليفونية في محاولة للاتصال بمكتب لندن، وكان أحد الخدم صغار السنّ هو الذي يقوم بعملية الذهاب والإياب المتكرّرة، بين المطعم وأقرب مكتب تلغراف في محطّة القطارات. لم نصل إلى الاتفاق النهائي إلا قرب منتصف الليل، عندما نجحت في الاتصال بالسفن الثلاث، وفي تحويل وجهتها إلى لندن. كان هذا هو أكبر مبلغ من المال، تمكنت من وضعه في جيبي، منذ سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى.

تنفّست الصعداء فقط في نهاية السهرة، عندما عدت إلى السيّارة المرسيدس التي كانت في انتظاري أمام باب المطعم، وهي التي أعارني إيّاها أحد أصدقائي من تجّار المدينة المعجبين بذكائي، وهو نفسه الشخص الذي أعارني المال، الذي دفعت به في آنتويرب ثمن شحنة البيض.

لم يكن هذا الصديق من أمراء ألف ليلة وليلة، بل لم يكن إلا تاجرًا هاويًا اكتشف التجارة مؤخّرًا، عندما جاء من أمريكا إلى آنتويرب للعمل في حاناتها ومشاربها، في إعداد المزيج من المشروبات الكحولية وعصائر الفاكهة، المشهور في العالم باسم (ذيل الطائر المتعدّد الألوان) وهو ما تعنيه كلمة cocktail كوكتيل، التي اشتهرت بارات أمريكا بتقديمه، ثم وجد أنه يمكنه أن يحقّق ثروات طائلة من العمل في مجال الوساطة التجارية.

عدت إلى باريس صباح اليوم التالي، لأقدّم إلى صديقتي الجديدة إيفون جورج هديّة من مجوهرات آنتويرب، وهي المغنية التي اشتهرت لاحقًا بصوتها المثير للعواطف، وكانت ستغني في نفس الليلة في صالة الأوليمبيا بباريس لأول مرّة في حياتها. وسيحدث يومًا ما أن تحكي لي تفاصيل قصّة حياتها الدرامية العنيفة. إلا أن هذا يعتبر قصّة أخرى من المؤكّد أنني سأحكيها يومًا ما، ولكن ليس هنا. كانت مدينة مسقط رأس إيفون هي آنتويرب، ولذلك عندما علمت مني أنني في المدينة، طلبت مني لقاء والدها، الذي كان بالصدفة البحتة من بين مدعوي أبناء التاجر الأربعة.

(٧)

إن الرجل الذي كنت قد أرسلت كورساكوف إليه، كان واحدًا من المثقّفين الحقيقيين، الذين يقدّرون قيمة الكتب القديمة، مع العلم بأن الثقافة وحبّ الكتب ليستا من الصفات النادرة لدى تجّار المجوهرات.

t.me/qurssan

وأنا لا أقصد بالمثقّفين هنا الشباب من خرّيجي الجامعات، بل أقصد الأجيال المتتالية خلال قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان، من صاقلي الألماظ، الذين يمارسون مهنة الأجداد، ويتقنونها جيلًا بعد جيل، وفي نفس الوقت يمارسون أساليب المنطق وجدل التفكير العقلاني، بسبب رغبتهم في الاحتفاظ بأرواحهم الحرّة، وفي الوصول إلى الحقائق التاريخية خلف أحداث التوراة والتلمود.

هذا هو ما أدّى بهم على المدى الطويل إلى فقدان إيمانهم بالمعتقدات الموجودة في الديانة اليهودية، رغم أن أغلبهم كان قد درس في المدارس الدينية، التي يشرف عليها أحبار اليهود، في بولندا وجنوب روسيا، حيث كانت المماحكات قد بدأت تدور، حول مصداقية الأحداث التاريخية الوارد ذكرها في الكتب الدينية، فتوقّفوا عن قراءتها، ثم توقّفوا بالتدريج عن ممارسة طقوس الديانة اليهودية الواردة في التوراة، ثم انتهى بهم الأمر إلى أن فقدوا كلّية الإيمان بوجود ربّ في السماء، وبدأوا في التعبير عن احتقارهم لكل من يعتقد في غيبيّات المعتقدات الدينية، التي لا يمكن إثباتها بالأساليب العلمية المعملية الحديثة.

انضم إلى هؤلاء بالتدريج صاقلو الأحجار الكريمة القادمون من إسبانيا، وفنّيّو صكّ المعادن النفيسة مثل الذهب والفضّة القادمون من البرتغال، الذين عند استقرارهم في دول شمال أوروبا، سكنوا الأحياء الواقعة على أطراف المدن، في بلجيكا ثم في هولندا وبولندا، في محاولة منهم لتجنّب الاختلاط بالسكّان المحليين، وهكذا نشأت الجيتو Ghetto، وهي الأحياء التي كان يهود أوروبا يعيشون فيها، منعزلين عن

بقية سكان المدن التي ينتمون إليها من معتنقي الديانات الأخرى.

من الواضح جغرافيًّا أنهم كانوا يريدون الابتعاد إلى أقصى حدّ ممكن عن مدن جنوب أوروبا، خاصةً تلك المطلّة على شواطئ البحر المتوسّط، بالسكن في مدن شمالية بعيدة عن الشواطئ، وذلك للابتعاد قدر الإمكان، عن الصراعات الدموية التي قامت في فرنسا مثلًا، بين الكاثوليكية والبروتستانتية، أو في إسبانيا مثلًا بين المسيحيين والمسلمين. وقد وجدوا في معتنقي المذاهب الإصلاحية البروتستانتية لمارتن لوثر **Luther** ولجون كالفين **Calvin**، صدرًا أرحب لاستقبالهم وللسكن في مدنهم. كان اليهود في آنتويرب، يشكّلون مجموعة عرقية شديدة الانغلاق على ذاتها، ضد أيّ محاولات اقتحام يقوم بها الغير.

إن مركز صقل الألماظ هو أمستردام، أما الحرفة التي يتفوّق فيها أهل آنتويرب فهي صقل الأحجار الكريمة، ذات الألوان الزاهية، مثل الزمرّد شديد الخُضْرة، والياقوت شديد الحُمْرة، وكنت قد بدأت تعاملي معهم عندما أحضرت إليهم معي من الصين أحجارًا كريمةً غير مصقولة من النوع الكبير الحجم، عثرت على من يعرضها للبيع في متجر داخل أسوار المدينة المحرّمة، التي كانت في العصر الإمبراطوري مخصّصة فقط لسكنى الإمبراطور وأفراد أسرته ورجال بلاطه. أصبحت هذه المدينة المحرّمة -في بدايات العصر الثوري، مع بداية القرن العشرين- متاحةً لجميع أفراد الشعب، كنوع من الانتقام الشعبي من رجال العصر الإمبراطوري.

داخل هذا المتجر كان يمكنني العثور على تحف قادمة من العالم

t.me/qurssan

أجمع، مثل السجاجيد الفارسية، والأثاث الأوروبي، ولكن الاكتشاف الحقيقي كان هو العثور على كنز من الكتب القديمة، كتب بكل اللغات الأوروبية، من طبعات قديمة مرّت عليه مئات السنوات، لم يكن البائعون الصينيون يقدّرون حقيقة قيمتها، ولم أعرف أبدًا كيف وجدت طريقها إلى الصين.

(٨)

كان مانداييف يتمتّع بعقل شكّاك مخترِق، والعقل المخترِق هو العقل الذي يشبه السكّين عندما يقطع الزبدة في قدرته على اختراق كل الموضوعات بسهولة. عندما وصلت إلى آنتويرب لأول مرّة قادمًا من الصين، بحثت عن أفضل صاقلي الأحجار في المدينة فدلّوني عليه. في ذلك الوقت كنت أتقابل معه تقريبًا كل يوم. ورغم أنه كان فعلًا أفضل صائغي المجوهرات في المدينة، إلا أنه سرعان ما أصيب بمرض لم يكن له في ذلك الوقت أي علاج، فبسبب ضعف صحّته، وضعف مقاومة جسمه للميكروبات، أصيب بالتدرَن الرئوي، وبسبب هذه الإصابة أصبح غير منتظم التواجد في معمله في مواعيد محدّدة، وهكذا بالتدريج فقد زبائنه.

كان مانداييف روسي الجنسيّة، وموطنه الأصلي هو شبه جزيرة القرم الواقعة في شمال البحر الأسود. قدما سويًّا هو وأخته من روسيا، ولم يتزوّج أيٌّ منهما، فظلّا يعيشان سويًّا ويعملان سويًّا، إذ كانت أخته سفيرا Sephira متخصّصة هي الأخرى في معالجة اللؤلؤ، ولم أعرف

أبدًا كيف حصلت على هذه الخبرة.

كانت قد حصلت على سمعة طيبة جدًّا في هذا المجال، حتى أنه قيل إن لمساتها السحرية قادرة على علاج كل أنواع الإصابات والأمراض التي تصيب اللؤلؤ، وكان زبائنها يرسلون إليها اللآلئ من كل مكان في العالم، لندن وباريس ونيويورك، حتى أصبحت هي وأخوها من أصحاب الثروات الطائلة.

كانا يهوديين ويتشابهان في كل شيء، في قصر القامة، وفي ضعف الصحّة العامة، وفي لون البشرة المائل إلى القتامة، كما لو أنهما كانا توأمين. كما أنهما كانا يتشابهان في حبّ المطالعة. عندما عرفتها لأول مرة، كانت سفيرا في العشرين من عمرها، وأخوها أكبر منها ببضعة أعوام. كنت أقرأ معها بعض أعمال شعراء الغزل الفرنسيين، ولم نذهب أبدًا في علاقتنا إلى أبعد من هذا، فلم يحدث بيننا أبدًا أي تلامس جسدي. كان مانداييف هو الذي أرسلت إليه مواطنه الروسي كورساكوف.

مرّت ثلاث سنوات لم أعد خلالها إلى آنتويرب، ولم أتصل فيها لا بمانداييف ولا بأخته، ثم حدث أن عدت إلى آنتويرب. كنت أقول في نفسي غالبًا سيكون هو قد مات بسبب مرضه، وستكون هي قد تزوّجت. كنت أجلس في نفس المطعم المشهور، الواقع في مواجهة محطّة القطارات، إلى الجهة الأخرى من الميدان، وقد ابتلعت زجاجة كاملة من نبيذ بورتو.

وكانت إدارة المطعم تفرغ القاعة من زبائن وجبة الظهيرة، وتستعد لاستقبال زبائن وجبة العشاء. لذلك وجدت نفسي مضطرًّا إلى أن أطلب

من النادل، إضافة أربعة أطقم كاملة من الأطباق والشوك والسكاكين والملاعق والأكواب، كأنني أستعد لاستقبال أربعة أشخاص دعوتهم إلى وجبة العشاء.

كان موقفي تجاه الإدارة مشكوكًا فيه، مما قد يدعوهم إلى الاستياء من وجودي، فطلبت زجاجة ويسكي إضافية لتعزيز موقفي. ثم فجأة تحسّن وضعي تمامًا بظهور سفيرا أمامي، لكنها بدت لي في حالة من الاضطراب الشديد، رغم أنها تضع عليها فراء الثعلب الفضّي الثمين، الذي يكشف جمال عنقها وكتفيها العاريين.

t.me/qurssan

الخيانة

(١)

وقفت أمامي دون أن تمدّ لي يدها بالتحية، وقالت لي وقد علت الحمرة وجهها: «أنتظرك في الشارع منذ ربع ساعة، إذنْ فإن جريشا لم يحضر؟». قلت: «لا. لم يحضر، ولكن من هو جريشا هذا؟». قالت: «خطيبي». فقلت: «أهنّئك وأبارك لك». ووقفت لتحيّتها، وأخذت يدها في يدي وقبّلتها. قبّلت اليد. كنت وكأنني في عالم غير واقعي.

جلست إلى مائدتي، وهي تقبض بيديها الاثنتين على حقيبتها الصغيرة الموضوعة على ركبتيها، كما لو أن تلك الحقيبة كانت تحتوي على ثروة من المجوهرات. قلت: «وما هي أحوال العمل؟ هل أنتِ دائمًا راضية عنها؟»، هذا هو ما قلته لأنني لم أجد شيئًا آخر أقوله. كان لديّ في هذه اللحظة المزاج الذي يدعوني إلى المشاغبة. بدا على النادل أنه يهنّئ نفسه، لأنه لم يفقد ثقته في بسبب السوابق التي لي في هذا المطعم، والدليل على ذلك أنه أحضر كأسًا إضافيةً خاصةً باحتساء الويسكي، ووضعه أمام المدام.

قالت: «منذ شهور طويلة لم نعد نعمل، إذ لم يعد أخي قادرًا على العمل، في الحقيقة إنه يحتضر، وبالتالي أنا لم تعد لدي الهمّة». هكذا ردّت سفيرا وهي تبدو مشتّتة الذهن. فكّرت للحظة أنهما قد فقدا ثروتهما. كانت نافذة الصبر قلقة تبدو وكأنها تحاول أن تتجنّب نظراتي، ثم تنظر في ساعة يدها، أو في الساعة الموجودة بالمطعم، كل بضع دقائق لتعرف الوقت.

كانت على وشك أن تفقد تمامًا السيطرة على أعصابها. عادت لتسألني: «أحقًّا لم يحضر جريشا؟»، قلت: «لكني يا سفيرا لا أعرف من هو جريشا هذا»، قالت: «كيف لا تعرفه وهو صديقك الذي كنت قد أرسلته إلينا منذ ثلاث سنوات ومعه كتابك الصغير». ثم أخرجت كتابي الصغير من حقيبتها، وألقت به أمامي على المائدة.

طوال هذه السنوات لم أكن أعرف ما هو الاسم الأول لصديقي، الذي كنت أناديه كورساكوف على اسم عائلته، وكنت أعتقد أن اسمه الأول هو بول، الذي كان أصدقاؤه الحميمون ينادونه به أثناء سهرات لعب الورق في شقّة شارع كوجاس **Cujas** بباريس.

وفجأةً لمحت كورساكوف عند باب المطعم، فوجئت بأن الخنزير يرتدي بذلة جديدةً تمامًا. جاء إلى مائدتنا، وجلس. لم أقل شيئًا. قرّرت ألا أقول أي شيء عن الماضي حتى أتبيّن ما الذي يحدث له الآن. تناولنا طعام العشاء سويًّا نحن الثلاثة دون قول أي شيء، ثم كان كورساكوف هو الذي قام بدفع قيمة فاتورة الحساب عند مغادرتنا المطعم. كدت أن أنفجر في الضحك.

t.me/qurssan

انتقلنا مشيًا إلى أحد المراقص القريبة، وحيث إن الخطيبين لم يكونا يجدان شيئًا يقولانه لي، فقد تركاني جالسًا إلى مائدةٍ، وذهبا سويًّا إلى ساحة الرقص. في نهاية السهرة كان كورساكوف من جديد هو الذي دفع التكاليف، ومن جديد كدت أن أنفجر في الضحك. عند ظهور أول ضوء للفجر طلبنا سيّارة أجرة، وانتقلنا بسفيرا إلى منزلها، حيث صعدنا إليه معها لبضع دقائق، ألقيت فيها نظرة على مانديف في فراشه، حيث ينام في حجرة صغيرة، تحيط به الكتب وأُسطوانات الأكسجين من كل ناحية.

المسكين كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، يتنفّس بحشرجة مسموعة، وقد نحلت رأسه تمامًا حتى برزت عظام الوجه. كانت هناك بقعة ضوء تسقط على رأسه، حتى يتمكّن من القراءة في الكتاب الذي يمسكه بيده، ذكّرتني ببقعة الضوء التي يسقطها خبراء الألماظ على الحجر الثمين، لدراسة انعكاسات الضوء على تركيبه الداخلي. عدنا إلى الشوارع الخالية، وقادني كورساكوف إلى مكان أعرفه جيدًا، كان يقول دائمًا إن له فيه صداقات طيّبة، هو بيت دعارة جوليا، حيث قابلت ريجي.

(٢)

ريجي سيّدة سمينة قد يصل وزنها إلى ١٢٠ كيلو جرامًا، لم أشاهد واحدة في حجمها هذا من قبل. كانت تقضي أيامها ولياليها في ملابسها الداخلية، جالسة على كرسي فوتيه **fauteuil** ضخم واسع ومريح، كأنه كان قد صمّم خصّيصًا لاستيعاب جرمها الهائل، وهي لا تكفّ أبدًا عن

إضافة الحليات الزخرفية إليه، سواء من مادة الدانتللا، أو من تطريزات أخرى بألوان مختلفة.

كانت تقابل الضيوف دائمًا بجفنين ثقيلين وبعينين ضاحكتين، وهي تدخّن غليونها الطويل جدًّا، الذي تدفس في فوّهته التبغ بأصابعها السمينة، التي تشبه أصابع السجق، رغم ما يحيط بكل منها من خواتم. عند فتح فمها كان يمكننا أن نلمح أسنانها الذهبية. ترفع ساقيها أعلى الكرسي، فنرى سمانتي الساقين الشاحبتي اللون.

كانت خلال ساعات النهار تحتسي عددًا هائلًا من زجاجات البيرة، وبالتالي كانت تحتاج إلى الذهاب إلى دورة المياه، لكن بسبب حجمها ووزنها الهائلين كانت تفضّل التخلّص من البول وهي جالسة في مكانها، في أباريق خاصة بها تضعها خلف ستار، لا يتم تفريغها إلا عندما تمتلئ بما فيها. كانت رائحة البول التي تشمّ بسهولة عند الاقتراب منها هي الشيء الوحيد المزعج فيها.

لكنها في الحقيقة كانت ذات قلب حنون، وتظهر دائمًا التعاطف مع البشر والانشغال بشئونهم، عندما يروون عليها مآسيهم. ومن العجيب أنه رغم كل شيء، كانت لا تزال تستقبل بعض زبائن البيت، الذين كانوا يأتون للقائها هي فقط ولا أحد غيرها، وقد يحدث أن يطلب أحدهم منها أن يمارس معها الجنس خلف الستار نفسه الذي تضع عنده أباريق البول!

كانت تقول إنها لحسن الحظّ لديها مثانة كبيرة الحجم، بحيث لا تكون مضطرة إلى التبوّل مرّات عديدة، ثم تؤكّد على أنه لا يزال لجسمها بعض المعجبين، لأن حجمها الكبير هذا يسمح لهم باختراقها بسهولة في

t.me/qurssan

أماكن مختلفة، «ففي كل موضع من جسمي يمكنه أن يجد لحمًا سميكًا ليّنًا». لكن الحقيقة هي أنها تعترف بأن زبائنها كانوا يقلّون في العدد عامًا بعد عام. تقول: «أصبحوا الآن يبادرونني بكلام معسول، ثم لا يقدرون على فعل أي شيء معي، وهذا يرهقني ويصيبني بالصداع النصفي».

ثم تبدأ في تحريك أجزاء من جسدها، مثل ثدييها أو ردفيها، كأنها تريد أن تشعر بوجود هذه الأجزاء. ثم تقول: «إنه جسد ناعم لا تستطيع أن تجد فيه أي أثر للعظام الناتئة الحادة القاطعة، التي يمكنك أن تعثر عليها في أجساد غيري من الفتيات، فأنا كاملة الاستدارة في كل موضع من جسدي». قالت: «بعض البحّارة الأمريكيين أرادوا أن يأخذوني معهم إلى أمريكا، لكنني رفضت أن أترك مدينتي الحبيبة آنتويرب، التي لا يمكن أن أغادرها أبدًا حتى الموت».

كان عدد الفتيات المقيمات في المنزل هو ثماني عشرة فتاة، كنت تجد دائمًا عشر فتيات منهنّ -في أوقات فراغهنّ من العمل- يجلسن دائمًا في دائرة حول ريجي، في حين تكون الأخريات منشغلات ببعض الزبائن. تنصت الفتيات باهتمام إلى كل ما تقوله ريجي، خاصة عندما تحكي ذكرياتها القديمة، التي تبدو كما لو أنها قادمة من نبع لا ينضب رصيده من الحكي ومن الذكريات. كانت تنشغل أحيانًا أثناء الحكي بتطريز صديريات من الصوف، باستعمال عصاتي التطريز المعتادتين، وهي العصيّ التي كانت منتشرة الاستعمال في ذلك الوقت.

كانت كل فتيات بيت جوليا **chez Julia** هنَ أيضًا يملن إلى الامتلاء، فأجسادهنّ أكثر امتلاءً من المتوسّط المعتاد في فتيات الإقليم

المحيط بمدينة آنتويرب، إذ يبدو أن تلك الأحجام الكبيرة تعجب البحّارة وترضي أذواقهم. لم تكن هؤلاء الفتيات لئيمات، بل كان يبدو لي أنهنّ أقرب إلى البساطة في التفكير، بل يمكنني حتى أن أقول إنهنّ كنّ على قدر من السذاجة. كان الرجال من زبائن البيت، ينجحن كثيرًا في إخراج الفتيات من البيت، خاصة في الصباحات المشمسة خلال فصل الصيف، للذهاب للتنزّه في الحدائق، ولتناول وجبة طعام على العُشْب.

أما في حالة الذهاب إلى شاطئ البحر، فيمكن أن يحدث أحيانًا أن ينقلب الجوّ إلى ممطر وبارد، هنا يذهب الجميع في قفزات حمقاء مرتجلة، إلى الفنادق الصغيرة المنتشرة على الشواطئ، المعدّة فقط لاستقبال أمثالهم من الزبائن النهاريين، الذين يقضون بعض ساعات النهار في غرفهم، بغرض إنجاز مهمّة محدّدة. ثم يحدث بعد إنجاز هذه المهمّة المحدّدة أن يذهب الجميع إلى دور السينما، أو يتسكّع الجميع في محلات وسط المدينة، ثم قبل أن يحلّ المساء، يعود الرجال بالنساء إلى بيتهنّ عند جوليا، حيث يعدن إلى الإحاطة بريجي، يحكين لها عن مغامرات اليوم.

(٣)

في شهر أكتوبر من كل عام، عند انقضاء فصل الصيف، كنت أشعر بالحنين إلى البحر، والاشتياق إلى السفر من جديد، إلى الأماكن التي تظلّ مشمسة طوال العام، في البحر الكاريبي أو في بحر الصين الجنوبي، فأنا لم أعد أحتمل أجواء الشتاء في شمال أوروبا. أعاود السير ذهابًا وإيابًا

t.me/qurssan

على أرصفة الميناء، لعلّ وعسى أن ألتقط الأخبار التي قد تقودني، إلى الحصول على عمل موسمي، على إحدى السفن خلال شهور الشتاء.

إلا أن كورساكوف كان هو السبب، في تردّدي في العودة إلى السفن هذا العام، إذ أصبح قادرًا على أن يعطيني المال الذي يلزمني، في الوقت الذي أطلبه منه، فإذا طلبت منه مئة فرنك أعطاني إيّاها، وإذا طلبت منه ألف فرنك أعطاني إيّاها. كان منذ اليوم الأول الذي أرسلته فيه إلى مانديف قبل ثلاث سنوات، قد حصل من سفيرا على المال الذي يريده، ثم ذهب إلى الجمارك لدفع الرسوم المطلوبة على حقائب الكتب، ثم بدأ في بيع الكتب واحدًا واحدًا.

كان قد تعلّم مني أن يذهب إلى مدن مختلفة، أولًا إلى العاصمة بروكسل، ثم بعد ذلك إلى باريس وإلى مدن في هولندا أو في ألمانيا، ليعرف فيها الثمن المناسب لكل كتاب. كان ينشر إعلانات في الصحف، ليكتشف أماكن تجمّع هواة اقتناء الكتب القديمة، ثم يذهب إليهم في أماكنهم بالكتب التي يعرضها عليهم. لقد فعل هذا باقتدار، وتصرّف بذكاء شديد تعلّمه من حياته القاسية.

وحيث إنني كنت الآن مستفيدًا من عمليات البيع تلك، فلم أشعر بأي ألم لفقد الكتب، بل يجوز أن العكس هو ما حدث، إذ شعرت بانزياح همّ ثقيل من على كتفيّ. لكن ما أغاظني في الحقيقة هو مظهره الجديد، الذي أصبح يصرّ على الظهور به في كل مكان، بالبذلة الكاملة والصديري وربطة العنق، تفوح منه روائح العطور الثمينة، كما يفعل عادةً كل محدثي الثراء في العالم أجمع.

كان ماندابيف قد مات ودفن، ولم أكن مقتنعًا أن ما يبقي كورساكوف في آنتويرب هو الولع بسفيرا كما قال لي، إذ لم أكن أشعر بجدّية هذه العلاقة. لذلك فعندما لم أنجح في حمله على الرحيل معي، بدأت أفكر في تركه والرحيل وحدي. كانت لِيلي هي السبب الحقيقي في قدرتي على البقاء خلال الشتاء في آنتويرب. ولِيلي هي واحدة من الفتيات في بيت جوليا، لكنها لم تكن تشبه الأخريات في شيء، بل إنها كانت وحيدة زمانها.

(٤)

لم تكن قادرة على إبداع واحدة مثلها إلا أرض إقليم الفلاندر **Flandre**، في السهول الممتدّة بين شمال بلجيكا وجنوب هولندا، فهي فتاة صنعت السماوات زرقة عينيها، وصنعت حقول القمح اللون الذهبي لجدائل شعرها، واستدارة أجزاء جسدها جديرة فقط بريشة فنّان هولندا الأعظم مملينج **Memling**، بعينيها المعبّرتين كما لم يحدث أبدًا من قبل فيما يتعلّق بالأعين.

لكن في الحقيقة كان أفضل ما فيها هو فطرتها، أو فلنقل بهيميّتها. كانت تتميّز بطبيعة فطريّة بهيميّة في ردود أفعالها، فيما يتعلّق بكل شئون حياتها اليومية، وبجوع حيواني فطري لممارسة الجنس، مثل كلبة شوارع صغيرة، كانت مثل حيوان صغير مرح، وكانت ممارسة الحب معها لعبة ممتعة، إذ كانت تستعمل أطرافها الأربعة في الاشتباك، ثم نتقلّب أنا وهي على أرض الحجرة ونحن متشابكين، ثم تصدر عنها أصوات، تبدو كما

t.me/qurssan

لو كانت نباح كلبة صغيرة، وهي تضرب شريكها بصفعات على ردفيه، وتعضّه في كل أنحاء جسده وهي تضحك.

لم يكن يستطيع مجاراتها في لعبها هذا إلا الرجال الشبّان الأقوياء الأصحاء، سألتها: «ألا تستهلكين طاقتك هكذا مع كل البشر؟»، قالت: «هكذا صنعتني الطبيعة مومسًا بالفطرة، فهذا ليس من اختياري، ثم إنني لا أحب إلا قذري الطباع من أمثالي، أولئك الذين تسمّيهم أنت الحيوانات».

عندما كان يحدث أحيانًا أن يطلبها أحد الرجال المحترمين المهندمين المتأنقين المتعالين، كانت تبدي له على الفور علامات البرود وعدم الاستجابة، فكانت أولًا ترفض أن تتبادل معه الأنخاب، أو حتى احتساء زجاجة الخمر التي طلبها، حتى لو كان لطيفًا معها متأدّبًا، فإذا أصرّ على اختيارها هي دون غيرها من الفتيات، تصعد معه إلى الطابق العلوي، وهي تسير كما لو كانت متخشّبة الجسد أو منوّمة، ثم تنزل بعد أقل من ربع ساعة، وقد بدت على ملامح وجهها تلك الابتسامة الشيطانية الشامتة، كأنها تؤكّد لنا أنه فشل في إنجاز مهمّته، أو كأنها قد نجحت في الانتقام من أحد أعدائها الأبديين، بعد أن أذاقته مرارة العذاب، وأماتته مئة مرّة خلال جلسة واحدة.

تذهب معه إلى باب البيت كأنها تودّعه، لكنها تصفق الباب بعنف حتى يتأكد من أنه شخص غير مرغوب فيه، لو أن هذا الشعور لم يكن قد تأكّد لديه بعد، فلا يعود إلى طلبها مرة أخرى. ولم أعرف أبدًا ما هي قصّة ذلك الثأر بينها وبين هذه النوعية من الرجال. لهذا السبب فهي لم يكن

لديها من تطلق عليهم غيرها من الفتيات لقب (من الزبائن المعتادين).

كان يحدث أحيانًا أن تشارك الأخريات التطريز في الطابق السفلي، لكنها في تلك الحالة كانت تنفصل عن الدائرة المنعقدة حول ريجي، لتجلس وحدها أمام المرآة الكبيرة، التي ترتكز على الأرض وتظهر الجسد كله، فتقوم بين وقت وآخر من على كرسيها، لترقص أمام المرآة وهي تشاهد نفسها، ثم تقفز وتصفّق بيديها كما لو أنها قد أصيبت بنوبة من الجنون.

كانت هناك أغنية تتردّد في تلك الحالات على شفتيها، تغنّيها بصوتها الطفولي الرفيع، تزخر كلماتها بالسخرية من الأب والأم والأخ والأخت، ومن قسّ الكنيسة الملتحي، ومن بؤس حياة فتيات الهوى، وصعوبة حصولهنّ على الرزق، خاصة عندما يغادرن مرحلة الشباب، فلا يعود أحد يسأل عنهنّ، الرزق الذي قد ينقطع فلا تتمكن الواحدة منهنّ من شراء رغيف خبز. ثم تنخرط في بكاء عنيف.

تقول ريجي: «ها هي قد أصابتها النوبة، اسقوها خمرًا حتى تصمت، وأغلقوا عليها باب حجرتها»، فتردّ عليها لِيلي: «ماذا تريدين مني أن أفعل؟ هذه الحياة هي التعاسة التامة، وأنا أمارس هذا العمل هكذا كل يوم كأنه إدمان».

ثم تقول: «إن التعاسة تبدأ مبكّرًا جدًّا في الحياة، عندما ينشأ الطفل الرضيع في ضواحي آنتويرب، حيث لا توجد إلا معامل تقطير الخمور، التي تعمل فيها الفتيات اللائي ينجبن سفاحًا، فيأخذن أطفالهنّ الرضّع معهنّ إلى العمل، فيحصل الرضيع على نصيبه من الخمر أثناء عملية

t.me/qurssan

الرضاعة، وهكذا ينشأ مدمن المستقبل، أما الأمهات المومسات فيتحوّلن إلى الجنون».

(٥)

في شهر نوفمبر اختفى كورساكوف النذل فجأةً مرةً أخرى، تاركًا إيّاي وحدي دون معين، بعد أن كنت أعتمد على دعمه المالي، فوجدت نفسي من جديد بحّارًا على السفينة (فولتورنو **Volturno**) التي كانت تستعدّ للإبحار كالمعتاد عند منتصف الليل، وكان قد سبق لي العمل على هذه السفينة ثلاث مرّات من قبل، وهي قد تخصّصت في الذهاب إلى موانئ لتوانيا في شرق بحر الشمال، لتحمل المهاجرين الروس عبر الأطلنطي إلى نيويورك. كان ركّاب هذه السفينة عادةً هم من بين أفقر العائلات الروسية، بل يمكنني القول من أفقر من عرفت من البشر بشكل عام، لأني كنت أتعرّف عليهم أثناء الرحلة، ثم أتعاطف معهم فأعمل مترجمًا لهم من الروسية إلى الإنجليزية، عند وصولنا إلى نيويورك.

طبعًا لم تكن هذه الرحلة مجزيةً لأصحاب السفينة، إلا أن رحلة العودة هي الهدف، حيث يتمّ في ميناء بروكلين تحميل السفينة بشحنة ضخمة من الثيران الأمريكية القوية إلى أوروبا. كنا في شتاء ١٩١٣/ ١٩١٤، وكان المناخ العام في أوروبا يوحي بنُذُر قيام الحرب العالمية الأولى، فكانت هذه الثيران تذبح في سلخانات آنتويرب، وترسل بالقطارات إلى مواقع جيوش أوروبا، بهدف أن تكون من بين وجبات اللحوم التي يتناولها الجنود.

وعادةً ما كان يحدث في اليوم الأخير للسفينة في نيويورك، أو حتى في الساعة الأخيرة لها قُبَيْل إقلاعها، أن يوضع قسرًا على ظهر السفينة لإعادتهم إلى أوروبا كل من هم غير مرغوب فيهم من قِبَل السلطات الأمريكية، حتى يمكن مراقبتهم بحيث لا يتمكن من وضعوا عليها من مغادرتها، أثناء وقوفها أمام جزيرة إليس آيلند Ellice Island، حيث تقع مكاتب استقبال المهاجرين، بل وكان يُطلَب منهم علاوة على بؤسهم، أن يتولّوا عمليات تنظيف وإطعام الماشية، مقابل نفقات إعادتهم بحرًا إلى أوروبا. كنت أودّ أن أعرف من هو هذا الأمريكي القرد الذي تمكن عقله من اختراع هذا النظام، ليتخلّص من غير المرغوب فيهم.

كان من بين هؤلاء غير المرغوب فيهم:

١- من يكتشف أن لديه في أوروبا سوابق إجرامية،

٢- أو من تُكْتَشف إصابته بالأمراض التي لم يكن لها علاج في ذلك الوقت، مثل الدرن الرئوي أو الزهري،

٣- كما كانت من بينهم النسوة، اللائي اكتشف أنهنّ كنّ سابقًا يمارسن مهنة الدعارة، وكنّ غالبًا من بين النسوة اللائي يصلن إلى نيويورك وحدهنّ، دون أن يكون في مصاحبتهنّ أي فرد آخر من عائلاتهنّ، كالأخ أو الزوج أو الابن. كان هذا هو واحد من أكثر الأحداث المزعجة التي شاهدتها في حياتي، حدث إعادة هؤلاء النسوة إلى أوروبا.

٤- الرجال المقطوعو الأذرع أو الأرجل، الذين كانوا قد تعرّضوا لقطع أطرافهم بسبب حوادث وقعت لهم أثناء العمل في المصانع الكبيرة، مثل مصنع الحديد والصلب في بيتسبورج Pittsburg. تتسبّب

t.me/qurssan

أمريكا لهم في هذه الحوادث، ثم تتخلّص منهم بوضعهم قسرًا على ظهر السفن العائدة إلى أوروبا، دون أي نوع من الضمانات أو التأمينات، بل هو التنصّل التام من أي مسئولية.

لكل من يهمّه الأمر! هذا هو الوجه القبيح لأمريكا، هذا هو كذلك أحد ملامح المجتمع الرأسمالي الصناعي الجديد، الذي يقال عنه في العالم أجمع (أرض الأحلام).

عند العودة إلى آنتويرب خلال فصل الشتاء، لم يكن هناك ما هو أكثر تعاسة من منظر أرصفة الميناء المهجورة ليلًا، بسبب غمرها بمياه الأمطار، لذلك كان أول ما فكّرت فيه هو الذهاب إلى بيت جوليا، حيث فوجئت بتغيير كل طاقم الفتيات اللائي كنّ هنا في الصيف الماضي، إذ غادرته أغلبهنّ بمحض إرادتهنّ، وذهبت كل واحدة منهنّ في اتجاه مختلف، حتى أن واحدة منهنّ قد ذهبت إلى الدير القريب، لتهب نفسها لحياة الرهبنة. هكذا حلّت فتيات جديدات محلّ الفتيات القديمات، ولم يبق من الطاقم القديم إلا ريجي، التي وجدتها كما هي متربّعة على كرسي عرشها الشهير.

قالت: «عجبًا على عودتك اليوم يا صغيري، فلقد كنّا بالأمس فقط نذكر سيرتك، عندما حلّ صديقك جريشا ضيفًا على البيت، وهو قد تزوّج واستقر مع زوجته في مدينة لياج Liege، وقد افتتحت زوجته هناك محلًا لتجارة المجوهرات، أمّا هو فقد اشترى معملًا لصناعة المناشف الورقية الصحية، ويبدو أن هذا يجلب عليه ثروة ضخمة، لو حكمنا بظواهر الأشياء، مثل نوعية الملابس التي يرتديها، ونوعية السيّارة التي

كانت في انتظاره عند باب البيت، حتى أنني اقتنعت على الفور بأن أصبح شريكة له في هذا المشروع، الذي دخلت فيه معه بكل مدّخرات حياتي. ألا ترىٰ كم كنت موفّقة في هذه الخطوة؟».

t.me/qurssan

العودة من البرازيل

(١)

كنت قد كسبت مبلغًا ضخمًا من المال بالعملة البرازيلية، خلال عملي لمدّة بضع سنوات في الاستيراد والتصدير بين فرنسا والبرازيل، ولم تكن مسألة تحويل الأموال بين بنوك الدول المختلفة قد أصبحت بالسهولة التي هي عليها الآن.

١- كان الحلّ المثالي هو أن أتمكن من الحصول على أمر تحويل رسمي، بإجمالي المبلغ بالفرنكات الفرنسية، يمكنني صرفه من أحد بنوك باريس.

٢- كان هناك حل آخر أقل مثاليةً، وهو أن أحصل على الفرنكات الفرنسية الورقية في بنك برازيلي، وأسافر بها معي في حقيبة على ظهر السفينة الفرنسية لوتيسيا، المتجهة من العاصمة البرازيلية ريو دي جانيرو إلى ميناء بوردو في فرنسا.

٣- إلا أن ما حدث فعلًا هو أنني سافرت بالمبلغ داخل حقيبة ضخمة، في صورة عملات ورقية من البيزوس البرازيلي، مع ما في هذا من مخاطرة التعرّض للسرقة، ومخاطرة عدم التمكن من تحويلها في

باريس إلى فرنكات فرنسية.

كنت قد حجزت قمرة (كابينة) على ظهر السفينة لوتيسيا، التي كان من المفترض أنها عند الساعة الثانية عشرة ظهر يوم السبت، سترفع سلاسل مرساتها الحديدية. ولأني لم أكن أريد أن أتجوّل بحقائب مليئة بعملات ورقية، فقد خطّطت للذهاب إلى البنك قبيل السفر بساعة أو بساعتين.

لذلك كنت الحادية عشرة صباحًا في الخزانة العامة، التي لم أجد داخلها إلا موظّفًا واحدًا. كنت قد نسيت أنه حسب النظام الجديد للبنوك في العاصمة البرازيلية أصبح يوم السبت هو نصف يوم عمل، بل هو شبه إجازة، حتى أصبح من الممكن لعدد كبير من الموظّفين أن يغيبوا فيه، وبالتالي أصبح من المستحيل أن أحصل على أحد الحلّين المثاليين الأول أو الثاني، إذ كان الموظّف الوحيد يخشى اتخاذ القرار والقيام بأحد هذه الإجراءات.

كان من الممكن تأجيل سفري حتى الرحلة التالية يوم السبت التالي، أو شراء تذكرة جديدة بمبلغ تافه لا يتعدّى ١٪ من قيمة المبلغ الذي أحمله، وبالتالي أتمكن من العودة إلى البنك صباح الإثنين، لأحصل على أحد الحلّين المثاليين، لكني كنت قد أصبحت نافذ الصبر جدًّا، ولم أعد أحتمل البقاء في ريو، بل أكاد أختنق. كنت مشتاقًا بشدّة إلى الأجواء الباريسية.

طلبت من سائق التاكسي الذي كان ينتظرني خارج مقرّ البنك أن يذهب بي إلى رصيف الميناء، فوضع السائق الحقيبة على المقعد الخالي

t.me/qurssan

إلى جواره.

كانت الحقيبة من الحجم الكبير، وممتلئة عن آخرها بالعملات الورقية البرازيلية، الملفوفة في رزم، كل رزمة تتكون من ١٠٠ ورقة من فئة ١٠٠٠ بيزوس، وكل رزمة ملفوفة بشريط مكتوب عليه القيمة المالية الإجمالية للرزمة، إلى جوار ختم البنك، وتوقيع من قام بعدّ الورقات المالية، كما هي عادة الحال مع الأوراق المالية التي تستلمها من البنوك.

على رصيف الميناء كانت لوتيسيا تهتزّ بشدّة، وتصدر عنها صافرة تشبه نعيق البومة، كما كانت هناك دفقات من البخار المتلوّي، الذي يلتفّ بسبب اتجاه الرياح حول مقدّمة السفينة، التي تتخذّ الشكل التقليدي لحورية البحر، نصف أنثى ونصف سمكة.

كانت هناك حشود من البشر على الرصيف، اخترقت لنفسي طريقًا داخلها، وصعدت إلى المعبر الخشبي الذي يصل الرصيف بظهر السفينة. لم أكن أحمل حقيبة ثياب، قلت في نفسي يمكنني شراء ملابس من بوتيك السفينة. ثم جاءتني فكرة محاولة الاتصال بالفندق تليفونيًا. كنت أحمل حقيبة واحدة ثقيلة هي حقيبة النقود. كانت حقيبتي الثقيلة ترتطم بساقي أثناء مشيي.

استقبلني القبطان أعلى المعبر بحفاوة بالغة. ثم قدّم لي مفتاح القمرة رقم ١٣. هي الوحيدة التي عادةً ما تظلّ خالية حتى اللحظة الأخيرة قبل الإبحار. المسافرون يتطيّرون من الرقم ويتشاءمون. أصبح هذا الرقم غير موجود على السفن الحديثة، التي قامت بوضع الرقم ١٢ (مكرَّر) بدلًا من الرقم ١٣.

كانت قمرة واسعة بفراشين، قذفت بحقيبتي فوق أحدهما. ضغطت على زرّ استدعاء خادم القمرات. دخل شاب غير مهندم ملابسه قذرة.

قلت له: «افتح هذه الحقيبة».

فتح الشاب الحقيبة، وتراجع أمام منظر ما رآه داخلها. كان التعبير الذي ارتسم على وجهه غريب الشكل ويدعو إلى السخرية.

سألته: «ما اسمك؟».

قال: «أوجست جيشاوا، ورقمي هو ١٠٧».

سألت: «هل أنت من إقليم بريتاني؟».

قال: «نعم يا سيّدي، فأنا من مدينة تريبول التي تقع على خليج الموتى».

قلت: «هي واحدة من مدن قراصنة البحار. إذنْ يا أوجست ها أنت ذا قد رأيت ما هو بداخل هذه الحقيبة».

كان الشاب واقفًا أمامي، يهرش في شعر رأسه الكثّ المجعد. لم يكن ينظر باتجاهي. ثم بدأ في حكّ قدمه اليسرى في باطن سمّانة ساقه اليمنى، ثم قدمه اليمنى في باطن سمّانة ساقه اليسرى، كما لو كان قد أصابه الشلل في أصابع قدميه. ثم استدار نحوي مبتسمًا دون أن يكون واضحًا ما هي الفكرة التي خطرت في باله وجعلته يبتسم.

قلت: «إذنْ يا أوجست، إذا كنت في حاجة إلى نقود، فلتفعل هذا الآن أمامي، وخذ من الحقيبة ما تريد، لأني لا أحبّ أن أُسْرَق، هل تفهم؟ لماذا لا تمدّ يدك؟ ألا تريد نقودًا؟ أليست لديك الشجاعة لتفعل؟ إذنْ

t.me/qurssan

أعد غلق الحقيبة، وكن حارسًا أمينًا على قمرتي. انتظر هنا لحين ذهابي إلى مشرب السفينة وعودتي، فلن تخسر شيئًا بانتظاري».

(٢)

في البار استعملت الهاتف، يقف حولي بعض الأفراد المهتاجين المستثارين من فكرة الرحيل الوشيك للسفينة، مع ما في فكرة عبور الأطلنطي باتجاه الشمال الشرقي للذهاب إلى أوروبا من جاذبية، ومع ما في لحظة الإبحار من ضجيج محرّكات وآلات السفينة. بعض النسوة كنّ يمسكن بمناديل الوجه ويقرّبنها من عينوهن كأنهنّ يجفّفن بها الدمع الذي يذرفنه. انطلقت على بعد أصوات اندفاع أغطية زجاجات الشمبانيا احتفالًا بالمناسبة.

تكرّرت تربيتات الرجال على ظهور الرجال أو على أكتافهم. انطلقت الضحكات على الأثر. هناك نساء وقفن يبتسمن وهنّ ممسكات باقات صغيرة من الزهور، أو بعلب صغيرة من الهدايا التي قدّمت لهنّ بمناسبة الوداع. حدث المزيد من الارتباك للأجسام المرتبكة حولي. تمكّن بعض الأزواج وزوجاتهم من العثور على أركان هادئة نسبيًّا لزوم عزلة سريعة مؤقّتة.

تلفنت أولًا إلى رودولف، حارس بوّابة فندق كوباكابانا حيث كنت أقيم، ليحمل لي على الفور إلى رصيف الميناء أمتعتي القليلة المجموعة في بقجة واحدة، وكذلك فاتورة حسابي عن مدّة الإقامة الأخيرة في الفندق. ألححت عليه في أن يسرع لأن السفينة على وشك الإقلاع.

تلفنت ثانيًا إلى كروال، في مشرب فندق بالاس حيث يعمل، ثم في نصف دستة مشارب أخرى حيث يقضي أغلب وقته الخالي من العمل، المشارب التي قد يكون موجودًا فيها في مثل هذه الساعة من النهار، حتى أعلنه بقرار رحيلي المفاجئ، وأطلب منه أن يلحق بي فورًا على ظهر لوتيسيا، لأني قد أخذت قمرة بفراشين، وفي نيّتي هذه المرّة أن أصطحبه معي إلى باريس.

لكن الصديق كروال لم يكن موجودًا في أيٍّ من هذه الأماكن، كأنه يفعل هذا متعمّدًا. كلّما أسرع الوقت في المرور كلّما فقدت صبري. تأخّرت السفينة عن موعد إقلاعها، فأعدت الاتصال بنفس نصف دستة الأماكن، لأطلب من كل من ردّ عليّ ضرورة اتّخاذ إجراءات سريعة، وإرسال المراسيل للبحث عن كروال، وإطلاق المنادين في كافة أطراف المدينة، بغرض البحث عن كروال، مهما كلفتني هذه الإجراءات من أموال.

لم أكن أعلم أن كروال في هذه اللحظات كان قريبًا مني جدًّا. كان على ظهر السفينة يتقارع أقداح الشراب مع القبطان. لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟ فأنا في لهفتي واستعجالي نسيت أنه منذ عشرة أعوام، أي طوال مدة إقامته في ريو دي جانيرو، لم يخلف كروال مرّة واحدة، موعد إقلاع سفينة إلى فرنسا، أو وصول سفينة من فرنسا.

كان كروال معتادًا على أن يصعد على ظهر السفن، ليس فقط لإرسال ولاستقبال بريده وطروده، بل كذلك ليأكل وليشرب، وليدّخن السجائر الفرنسية، وليثرثر بالفرنسية، وليستمتع من جديد ولو لساعات قليلة

t.me/qurssan

بأجواء البلد الذي يحبّه، ذلك لأنه كان طوال إقامته مدّة العشر سنوات في ريو يُعاني من مشاعر الحنين والاشتياق إلى بلده فرنسا، فالموطن الأصلي لكروال هو مدينة نانت في شمال غرب فرنسا.

حتى أنا في كلّ مرّة كنت أعود فيها بالسفينة من فرنسا إلى ريو، كنت أغادر الميناء ومعي بين أمتعتي، زجاجة من شمبانيا التفّاح المتخمّر [كالفادوس] لرئيس الجمهورية البرازيلية، وصندوق زجاجات النبيذ الفوّار [موسكاديه] لصديقي كروال، وهو أكثر أنواع الأنبذة شعبية في منطقة مسقط رأس كروال في شمال غرب فرنسا.

(٣)

عندما ألقيت قبضتي على صديقي كروال، قلت له إنني لن أطلق سراحه بعد ذلك، وإنه سيسافر معي عائدًا إلى بلده فرنسا.

قال: «أنت تضحك منّي يا بلاز. أنت تسخر منّي».

قلت: «لا يا عزيزي أنا لا أسخر منك، إنني جاد تمام الجدّيّة. تعال معي إلى قمرتي فهناك كلمتان أريد أن أقولهما لك».

في ممر القمرات، لاحظت وجود أوجست حارس القمرات، واقفًا بالقرب من باب قمرتي يحرسه، وقد رسم على وجهه تعبيرًا يبدو فيه أنه مستاء من تركي له طوال هذه المدّة. دخلنا إلى القمرة، وأغلقت بابها علينا، ووضعت المفتاح في جيبي.

قلت: «انظر يا كروال إلى نفسك في المرآة الزجاجية لضلفة دولاب الملابس، إن بشرتك بنفسجية اللون، ووجهك محتقن بالدم، فأنت

معرّض لسكتة دماغية أو قلبية في أي وقت، ويمكن أن أؤكد أن معدتك ستنفجر، وأقدّر أن ما يتبقّى لك في الحياة هو شهر واحد، إذا ظللت على حالتك هذه في هذا المكان، لذلك سأصحبك وأعود بك إلى فرنسا، وهناك سأدفع لك ثمن العلاج الطبيعي في حمّامات المياه الطبيعية في [فيشي]».

قال: «هل أنت تسخر منّي يا بلاز؟».

قلت: «لا يا صديقي. أنا جاد جدًّا. لكن يجب أن أوبخّك على إهمالك لصحّتك، أنت ستفقد حياتك إذ تعيشها بهذا الاضطراب والقلق. أنت منذ عشر سنوات تعيش هذه النوعية من الحياة، وتعمل ما هو فوق قدرتك الجسمانية في هذا المناخ القذر، ويحقّ لك الآن أن تحصل على إجازة راحة. بالله عليك انظر إلى لون بشرة وجهك، أو لون بياض عينيك، أو إلى عدم قدرة ساقيك على إبقائك واقفًا دون أن تهتزّا، ولن أذكر أي شيء عن حالة كبدك المتدهورة، فأنا لست طبيبًا، لكن من الواضح أنك تعاني من حالة تليّف كبد، بسبب كل تلك المشروبات الكحولية، التي تبتلعها في جوفك كل يوم منذ سنوات طويلة».

قال: «معك حقّ يا صديقي في كل ما تقول، لكن ماذا أستطيع أن أفعل إزاء كل ارتباطاتي المهنية؟».

قلت: «هل تريد أن تخدعني؟ لقد سبق لك أن وعدتني عشر مرّات بأن تعود معي إلى فرنسا، وهذه هي فرصتك الأخيرة معي، لا تنسَ حقوق زوجتك وبناتك عليك، وكذلك حقوق أصدقائك في باريس».

قال: «لكني لا أستطيع الرحيل الآن، فهناك مثلًا أجل واجب السداد

t.me/qurssan

في نهاية هذا الشهر».

قلت: «لا يهمّني كل كلامك هذا، فأنت الآن أصبحت سجيني، ولن تجد من يحرّرك مني، وسأظل ممسكًا بك حتى تغادر هذه السفينة المياه الإقليمية للبرازيل. الآن اذهب لتنم قليلًا، فأنا كما ترى قد أخذت هذه القمرة ذات الفراشين لهذا الغرض، ضع تلك الحقيبة التي تشغل فراشك على الأرض، وخذ مكانها ممدّدًا جسمك فوق الفراش».

قال: «الأجل واجب السداد هو لشركة ميشلان الفرنسية لإطارات السيّارات، وأنا هذه المرة سأستطيع السداد، لأني سأحصل على مستحقّاتي من شركة المحرّكات الفرنسية بريجيه قبل نهاية الشهر».

قلت: «لن أتركك تفلت من قبضتي مهما قلت، فلو تركتك فأنت حتمًا ستقتل نفسك، ثم قل لي كم هو ذلك المبلغ الواجب السداد؟ افتح هذه الحقيبة لترَ بنفسك أنني قادر على أن أسدّد عنك أي مبلغ».

قال: «لكنك تعرف صعوبة التعامل مع رجال الحكومة المحليّة هنا، فلو لم تكن موجودًا خلف ظهورهم تستحثّهم كل يوم على سداد مستحقّاتك، فهم لن يفعلوا هذا وحدهم من تلقاء أنفسهم. خذ مثلًا آخر فأنا صباح الغد لديّ موعد مع وزير الطيران. ثم إنني في سبيلي إلى عقد صفقة هامة مع شركة أنابيب الغاز المحلية، فهم قدّموا طلبية إلى الشركة البلجيكية التي أقوم بدور وكيلها المحلّي، بتوريد عشرة آلاف كيلو متر من أنابيب الغاز. هذه صفقة لا يمكن أن تريد لي أن أفقدها، لكن بمجرّد التوقيع أعدك أنني سأضع نفسي على أول سفينة عابرة للمحيط راحلة إلى فرنسا، هناك رحلة للسفينة ماسيليا ستغادر ريو يوم ٣ مارس،

سأحجز فيها، فأنت محقّ تمامًا إذ إنني أشعر فعلًا بإرهاق شديد، علاوة على حالة كبدي المتدهورة».

قلت: «لا يا عزيزي لن أفلتك من يدي أبدًا هذه المرّة فأنت أسيري، أنت تعرف جيدًا أنك لن تركب ماسيليا، فأنت سبق لك أن وعدت بذلك مرّات عديدة، ثم إن ما تسمّيه أعمالك هو أيضًا شيء غير موثوق به، ومن الأفضل بدلًا من الكلام عن الأعمال أن تعطيني مقاييس جسمك، حتى أقوم بتكليف أحد النجّارين بصنع تابوت خشبي لك، سأطلبه حالًا بالهاتف فهذا أمر عاجل ملحّ، فإن جسمك هذا لن يحتمل ما تقوم به من مجهود لأكثر من سبعة أو ثمانية أيام، يكفي أن تنظر إلى نفسك في المرآة كما طلبت منك بإلحاح.

(٤)

في هذه اللحظة انقطع حبل كلامي، بسبب انطلاق صوت الصافرة الأولى للسفينة، التي يعرف كل من يرتاد السفن أنها النداء قبل الأخير، حتى يتمكن كل زوّار السفينة من مغادرتها قبل انطلاق الصافرة الثانية، بعد فترة تصل إلى حوالي ربع الساعة، عندها امتقع لون وجه كروال، وانسحبت منه الدماء. في تلك اللحظة التي أنصتنا فيها كلانا إلى الصافرة، جاءتنا كذلك أصوات خدم القمرات يجرون في الطرقات وفي أيديهم أجراسهم الصغيرة، ينبّهون بها من قد يكون من بين زوّار السفينة في القمرات، لا يدرون بقرب رحيلها.

كل ذلك على خلفية من أصوات محرّكات السفينة القادمة من عمق

t.me/qurssan

باطنها، وقد بدأت كلها في الهيجان، فارتعشت المصابيح الكهربائية للقمرة وشحب لونها. أخرجت مفتاح القمرة من جيبي، وقلت: «هأنتذا ترى أن باب الحجرة مغلق بالمفتاح، الذي أضعه الآن أمامك في جيبي، إذن يجب أن تمرّ فوق جثّتي حتى تخرج من هذه القمرة».

هنا اندفعنا كروال وأنا في مناقشة ميتافيزيقية حادة، هو يدافع عن الأعمال والمكاسب والأرقام، وأنا أتكلم عن الشعور المزيّف بالقوة وبالأمان، اللذين تبثّهما المكاسب المزعومة في الإنسان، فردّ عليّ صارخًا بأنني لا أفهم أي شيء في عالم رجال الأعمال، لأنني لم أكن أبدًا واحدًا منهم، وأنني حسب وجهة نظره لم أكن أبدًا أكثر من أحد الهواة في مجال رجال الأعمال. ثم أضاف أنه ليس لي الحقّ في مثل هذا التدخّل السافر في حياته، وفي المسئوليات التي يتحمل نتائجها على كاهليه.

من جهتي أنا كنت مستمرًّا في إغاظته بالقول بهدوء أنه ليس أكثر من مدمن خمور، وأنه عبد للأرقام لا أكثر ولا أقل، وأنه رغم ضخامة المبالغ التي يتعامل فيها، فإن البخل يغلب على طباعه، حتى أنه ليس بقادر على أن يدفع لنفسه ثمن إجازة، وأنه يجب أن يعرف التوقيت المناسب للتقاعد، وأنه سيموت كأحد الأجلاف مع حقيبة مليئة بعملات بطل استعمالها.

لم أعد أعرف إلى أين كان يمكن لهذه المناقشة الحادة أن تقودنا، لو لم تكن قد جاءت تلك الدقّات العالية على باب القمرة. كان الطارق هو رودولف حارس بوّابة فندق كوباكابانا، حاملًا إليّ بقية أمتعتي في بقجة وفاتورة حساب الفندق، ففتحت حقيبة نقودي وأخذت منها رزمتين، ثم خرجنا سويًّا من القمرة وأغلقت خلفي بابها. طلبت من أوجست

أن يذهب لإغلاق الضلف المعدنية للقمرة من الخارج، حتى لا يتمكن كروال من الهروب عبر فتحة النافذة.

هذه الضلف لا تفتح وتغلق إلا من خارج القمرة، ولا تستعمل إلا في أوقات العواصف البحرية. قدت رودولف إلى المشرب لتسوية الحسابات. احتسينا زجاجة شمبانيا على خلفية من الثرثرة المعتادة. خلال ستة أشهر من الإقامة في فندق كوباكابانا، وهو الفندق الأكثر فخامة في ريو، كان رودولف المجري الأصل يدفع لي فاتورة حسابي في نهاية كل أسبوع، فهو لم يفقد أبدًا ثقته فيّ.

أمّا عن السبب في إقامتي في الفندق الأكثر فخامة في المدينة، فهو لأن هكذا فقط كان يمكنني عقد الصفقات، عندما يأتي رجال الأعمال إلى الفندق الذي أقيم فيه ويرون فخامته، يوقّعون على الفور الأوراق. كنت أقوم بعقد صفقات مع شركات الدعاية السياحية والفندقية بين فرنسا والبرازيل. لذلك فأنا أدين لرودولف بالكثير. ولهذا فقد ضاعفت له مستحقّاته طرفي، مع إضافة مبلغ من المال لزوم مصاريف مشروع تزويج ابنته الوشيك.

انطلقت الصافرة الثانية منذرة لضيوف الركّاب، بأنه مع انطلاق الصافرة الثالثة تتحرّك السفينة. عند المعبر تعانقت أنا ورودولف وتواعدنا على اللقاء من جديد عند حضوره إلى باريس. أقسم رودولف بأنه عند التقاعد سيعود إلى قرية [كاربات] التي ولد فيها في أوروبا، ليقضي فيها أيّامه الأخيرة، وأنه سيمرّ بباريس لنحتفل سويًّا بهذه المناسبة ونولم وليمة فاخرة.

(٥)

أثناء عودتي إلى قمرتي أنصتُّ إلى الراديو الداخلي للسفينة، وهو يدعو السيد بلاز سُندرار إلى الذهاب من جديد إلى المعبر، لاستلام طرد بالبريد عبارة عن قفص به أحد النمور الاستوائية! عدت لأجد على الرصيف فلّاحَيْن من أصحاب البشرة الداكنة، بأقدام حافية، يرتديان الملابس القطنية البيضاء، وقد وضع أحدهما فوق رأسه قبّعة مستديرة كبيرة الحواف، مصنوعة من القش أو من سعف النخيل، مثل كل تلك القبّعات التي يضعها فلّاحو تلك النواحي على رؤوسهم، لحمايتها من الشمس الاستوائية.

كانا يقفان إلى جوار مقطورة صغيرة عليها قفص حديدي، تمكنت من أن أرى خلف قضبانه حيوانًا ليس من فصيلة النمور، لأنه لا توجد نمور في البرازيل، وإنّما من فصيلة الجاجوار **jaguar**، وهي فصيلة أخرى من العائلة كبيرة العدد للقطط البريّة المتوحّشة، وأعضاؤها عامة أصغر حجمًا من النمور.

تذكّرت في تلك اللحظة أنني قبل بضعة أسابيع، وأثناء إحدى رحلات الصيد مع الكولونيل ليميرو، أنني ذكرت له بشكل عابر ملحوظة تتعلق برغبة أحد أصدقائي الباريسيين، وهو زافييه الذي يعمل في مقهى وبار فرنسيس في ميدان ألما بباريس، أنه قد أبدى رغبته في الحصول على نمر صغير، كهديّة منّي له لدى عودتي من البرازيل، ليهديه بدوره إلى حفيدته ذات الأحد عشر عامًا، وهي نفس الفتاة التي كنت قد نجحت

بفضل صلاتي القوية بالرجال المهمّين كما أدَّعي، في إدخالها إلى فرقة المبتدئات في التدريب على الرقص بأوبرا جارنييه بباريس.

كان الكولونيل قد سألني عن موعد عودتي إلى باريس، فذكرت له وأنا غائب الوعي تمامًا أنني سآخذ رحلة السفينة لوتيسيا في تاريخ اليوم. ها هو ذا الكولونيل العبيط قد أرسل لي الهدية فعلًا. كيف كان لي أن أتوقّع أن يأخذ هذا الرجل كلامي مأخذ الجدّ، ويرسل لي هذا الحيوان الجدير بحديقة حيوانات أو بسيرك متجوّل؟ عندما شاهدت هذا المنظر جريت بأقصى سرعة، بغرض العودة إلى القمرة والاختباء فيها لحين رحيل السفينة. وجدت أوجست واقفًا للحراسة على باب القمرة. فتحت الباب فإذا بكروال راكعًا على ركبتيه في منتصف القمرة وهو يبكي.

قال: «أتوسّل إليك يا بلاز أن تتركني أخرج، كنت في هذه اللحظة أدعو السيدة العذراء أن تخلّصني منك. أقسم لك أنني سأرحل على السفينة التالية».

ثم بدأ يبكي بصوت مرتفع أقرب إلى النحيب، ووقف واضعًا يديه على كتفيّ، وهو يهمس في أذني كأنه يعترف أمام أب كاهن، قال: «أنا إذ يملؤني الخزي والعار أعترف لك أنني أخذت مَهر دوطة زوجتي منذ عشر سنوات، ولا أستطيع أن أعود هكذا إلى فرنسا خاوي الوفاض، دون أن أكون قادرًا على تعويضها عنه. لا أطلب منك إلا أن تتركني أبقى عشرين يومًا، وسأكون على ظهر السفينة في رحيلها القادم يوم ٣ في الشهر...».

قلت: «لقد نجحت أخيرًا في أن تجعلني أتقزز منك، بإلحاحك

t.me/qurssan

وتوسلاتك ونحيبك. اذهب الآن فأنا لم أعد راغبًا في اصطحابك».

جرى كروال في الممرات، ولحقت به لآراه وهو وينكفئ على وجهه، ثم يصل إلى أعلى سلَّم المعبر ليتدحرج عليه، ثم ليسقط على رصيف الميناء، في نفس لحظة رفع السلَّم.

(٦)

عبرت لوتيسيا المحيط الأطلنطي دون حوادث، غير أننا وصلنا إلى ليشبونة في البرتغال متأخرين أربعًا وعشرين ساعة عن الموعد المعتاد، بسبب متاعب مع الماكينات، أو مشاكل تتعلّق بسخونة المحرّكات، وضرورة التوقّف لتبريدها. سبق أن حدث هذا لهذه السفينة، وكذلك لشقيقتها ماسيليا، وهما سفينتا نقل البضائع والركّاب التابعتان لشركة جنوب الأطلنطي ساوث أتلانتيك، اللتان كانتا تعملان فوق طاقتهما، بسبب شدّة إقبال الجمهور عليهما.

بوصولنا متأخرين فات السفينة الموعد الذي كان من الممكن أن يسمح لها بأن تستفيد من موجة المدّ المرتفع التي تسهّل دخول خليج مصب نهر [لاجيروند]، للوصول بمساعدة موجة المدّ هذه إلى ميناء مدينة بوردو في جنوب غرب فرنسا. لهذا انتظرنا اثنتي عشرة ساعة إضافية، لتصل موجة مدّ جديدة تساعد السفينة في صعود النهر، ضد تيّار الماء المندفع نحو مصبّ النهر في الأطلنطي. عرفنا أننا لن نصل إلى رصيف الميناء إلا بعد منتصف الليل، فانقلب مزاج أغلب الركّاب بسبب هذا التأخير.

كنا قبل دخول خليج المصبّ شبه معلّقين في ما يشبه هريسة البازلاّء، ممنوعين من الحركة بسبب مياه النهر الثقيلة، وكل ثلاث دقائق تطلق السفينة صافرتها، لتنذر كل من لا تراهم من الذين يحتمل وجودهم في هذه المياه، على سفن أخرى أصغر حجمًا، قد تكون موجودة في مكان ما خلف هذا الضباب الليلي الكثيف، فتردّ عليها سفن أخرى قريبة أو بعيدة بصافرات مشابهة، تقوم هي الأخرى بتنبيه لوتيسيا إلى وجودها غير المرئي.

أصوات غليظة تتدرّج في غلظتها إلى أن تصل إلى أصوات حادة. على خلفية من أصوات بشرية مختلطة، قادمة من أماكن خادعة مضللة، في هذا الطريق غير المرئي. في النهاية اخترقنا مصبّ النهر، واستطعنا أن نصعد فيه، رغم قوّة التيّار المضاد. كانت لوتيسيا هي الأولى بين كل تلك السفن المنتظرة.

بسبب هطول الأمطار بالإضافة إلى الضباب الكثيف، لم نتمكّن من رؤية أيٍّ من الضفّتين، ولا أي شيء من المناظر الطبيعية الواقعة خلف الضفّتين.

ثم فجأة بدأت في الظهور هالات من الأضواء المتناثرة، على خلفية قاتمة السواد. هذه هي بوردو، بطبيعتها المسطّحة المستوية، وبمطرها الغزير، وبملل أرصفة مينائها المهجور، وبرافعاتها الهزيلة، وأعمدة إنارته.

لكن بالنظر إلى وصولنا في هذه الساعة المتأخّرة من الليل، وإلى التأخير المتكرّر لهذه السفينة عن موعد الوصول المعتاد، لم يكن هناك

t.me/qurssan

على الرصيف شخص واحد في انتظار مسافري لوتيسيا، باستثناء مجموعة تتكوّن من ثلاثة أشخاص، كانوا يختبئون من الرياح والأمطار، خلف الباب المفتوح لأحد مباني التخزين.

يمكن أن نرى سيّارة أجرة متروكة عند زاوية المبنى. استطعت كذلك أن أميّز الشكل الخارجي لريمونا، بخطوط جسدها الباريسي الجميل. هذه الفتاة العزيزة، التي حرصت العديد من المرات على أن تكون في استقبالي عند وصول سفني إلى موانئ شمال فرنسا في بوردو وشيربورج والهافر، رغم أن التأخير عن الموعد في هذه المرة لمدة حوالي يوم ونصف كان مبالغًا فيه جدًّا.

(٧)

كان سائق التاكسي الواقف خلفها يضرب الأرض بنعل حذائه. أما الشخص الثالث الواقف في هذه الجماعة الصغيرة فهي امرأة ضخمة الجسم جدًّا، بدت كما لو كانت رجل شرطة متخفّيًا. من هي؟ تدحرجتُ في الهول **hall** أو اللوبي **lobby** الواقع أمام كاونتر الاستقبال، حيث عادة ما يضع خدم السفن حقائب المسافرين قبيل لحظة المغادرة، بعد أن يكون زبائن السفينة قد تركوا حقائبهم أمام أبواب قمراتهم، ونقلها الخدم إلى اللوبي. وُضِعَت الحقائب والأمتعة في صفوف في انتظار وصول موظّفي الجمارك.

عندما وجدت حقيبتي جريت نحوها حيث كانت قد وضعت بالصدفة البحتة في أول الصف، لأحتفظ بحقي في دور متقدّم لفحص

الحقائب. كان كل ركّاب السفينة يتحرّقون شوقًا إلى وضع أقدامهم على الأرصفة. كنت فعلًا أول المارين. لم يكن لديّ إلا بقجة ثيابي، وحقيبة النقود التي لم يرفع أوجست عينيه عنها. يبدو لي الآن أنه هو الذي تعمّد وضع حقيبتي في أول الصفوف.

- أليس لديك ما تعلن عنه؟

- حضرتك تعرف جيدًا أنه سيكون لدينا دائمًا ما نعلن عنه، خاصةً عند وصولنا من تلك البلاد الواقعة في أعالي البحار، لكن في هذه المرة بالتحديد ليس لديّ ما أعلن عنه، باستثناء هذه البقجة من الثياب المستعملة.

- وهذه الحقيبة الأخرى الكبيرة أليست لك؟

- هذه الحقيبة؟ نعم من المؤكّد أنها لي.

- إذنْ ماذا بداخلها؟

- نقود.

- ماذا تقول؟

- أقول إنها ممتلئة عن آخرها بالعملات الورقية البرازيلية من فئة البيزوس. هل هذا هو من بين ما يعلن عنه؟

- كل شيء يعلن عنه يا سيد، افتحها.

- إذنْ فأنا أعلن لك عن ثروة من المال، إن هذه الحقيبة هي حافظة نقودي.

قلت هذه الجملة الأخيرة وأنا أضحك، ثم طلبت من أوجست

t.me/qurssan

الواقف على مقربة أن يساعدني في فتح الحقيبة.

- أريد أن ألفت انتباهك إلى أن كل هذه الرزم من النقود، مختومة بالأختام القانونية للبنوك البرازيلية، وأنها كلها قانونية ليست مزيّفة، وأنها لاستعمالي الشخصي.

كان موظّف الجمرك يرتدي معطفًا خفيفًا واقيًا من المطر. لم يضع يده داخل الحقيبة، ولم ألحظ على وجهه أي ردّ فعل، إزاء منظر الحقيبة الممتلئة بالنقود. هو بطبيعته شاحب الوجه، ولم تكن رؤيته لهذه النقود هي السبب في شحوب وجهه. لاحظت أن شاربه مزروع بشكل خاطئ فوق فمه. نظر إليّ نظرة قاسية شرّيرة، وسألني:

- أليست لديك حقائب أخرى أيها السيد؟

- ألا تكفيك هذه الحقيبة وحدها؟

كان من الواضح أنه يبذل مجهودًا حتى لا يفقد برود أعصابه وهدوءه. قلت:

- هناك من ينتظرني.

عندئذ أعاد موظّف الجمارك إغلاق الحقيبة، ثم وضع بالطباشير فوقها، علامة لم أفهمها، بدت لي مثل العلامات الوثنية الشيطانية. قال:

- يمكنك الانصراف. اعبر.

ابتسم أوجست. تقدّمنا سويًّا نحو المعبر المعلّق بين السفينة ورصيف الميناء، فاقتربت منه وأنا أقدّم له رزمة من النقود البرازيلية، كنت قد سحبتها من رزم الحقيبة قبل غلقها. قلت:

- أمسكْ أيها الخادم المخلص الطيب، هذه الرزمة تساوي أربعين ألفًا من الفرنكات الفرنسية، هل يكفيك هذا المبلغ؟

لم يقل شيئًا، ثم كاد أن يفقد توازنه لحرصه على الاقتراب مني قدر المستطاع. صحتُ:

- ريمونا!

- بلاز. تعال لأقدّمك إلى مدام كروال التي كانت معي تنتظر زوجها، هل تعرف إن كان قد جاء معك على ظهر هذه السفينة؟

- أهلًا يا سيّدتي.

- أهلا بك، لقد أرسل لي زوجي كروال برقية يوم ٥ في هذا الشهر، يخبرني فيها بوصوله إلى بوردو على ظهر هذه السفينة، لكنه لم يردّ على كل البرقيات التلغرافية التي أرسلتها، لأعرف منه المزيد من التفاصيل. أتساءل إن كان حقًّا على ظهر هذه السفينة؟ يبدو لي الآن أن له خليلة في ريو قد أفقدته عقله. فماضيه غير المشرّف يجعلني شبه واثقة مما أعتقد.

- آسف يا سيدتي فأنا لم يكن لي في ريو شرف أن أعرف شخصًا بهذا الاسم.

- رغم أن كل المستعمرة الفرنسية في ريو تعرفه. إنهم لا يتحدّثون فيما بينهم هناك إلا عنه. إنه أحد أعمدة مشارب المدينة وباراتها. إنه يتردّد على كل علب الليل هناك. رغم أن قولي هذا يجلب لي المزيد من أحاسيس الخزي والعار. إنه هناك منذ عشر سنوات. وأنا هنا منذ عشر سنوات أنتظر عودته.

t.me/qurssan

(٨)

في الحقيقة إن لدى زوجة كروال كل العذر في أن تعتقد أنه مختل عقليًّا، فأين هو الرجل العاقل الذي يقبل أن يتزوّج امرأةً مثلها، بجسم أقرب إلى أجسام العمالقة من رجال الشرطة، بثديين ويدين وقدمين ووِركين وردفين بضخامة غير عادية، وكل هذه الأجزاء شبه مندمجة في كتلة واحدة، لا يمكن التمييز بينها، ويغطّيها معطف واق من المطر، مصنوع من مادة قماشية على شكل مربّعات، من الرأس حتى القدم.

تحيط بالرقبة فروة غالبًا لأحد القرود، وفوق الرأس قبّعة نسائية صغيرة من نفس فروة القرد، لا تغطّي شعرها الكثّ الذي يسقط فوق عينيها، ويبدو عند التأمّل الدقيق للوجه وجود آثار شارب أعلى الفم، مع حاجبين سميكين، وخدّين دمويين، وأنف معقوف، ثم بدت كما لو أن لها ثلاثة ذقون يعلو أحدها الآخر. كان وجهها متكبّرًا متجبّرًا، وعند فتح الفمّ بدت الأسنان متباعدة، ثم خرج من الفمّ هذا الصوت الغاضب.

كانت في أثناء تأمّلي إيّاها مشغولةً بتفحّص المسافرين الهابطين من على ظهر السفينة، واحدًا واحدًا، بمنظار تمسكه بمقبض يدها اليمنى، وقد علّقت سلسلته حول رقبتها. مسكين كروال. الآن فقط فهمت كم كان حظه سعيدًا بعدم وجوده هنا الآن. لقد كسب معركته معي. الآن فهمت لماذا لا يريد زوج مثل هذه السيدة أن يعود أبدًا من بلاد البرازيل حيث المتع لا تحصى.

أما فيما يتعلق بالمبلغ الذي دفعه حماه ليتخلّص من ابنته (أي الدوطة)، لقد أدركت الآن كم كان صديقي كروال محقًّا في رغبته في الاحتفاظ بهذا المبلغ لنفسه. فمن الأسهل على الشخص أن يقبل تهمة أكل دوطة زوجته، على أن يعترف بأن له زوجة مثل هذه السيدة الماثلة أمامي الآن، خاصة لو كان هذا الشخص هو كروال، أي الفرنسي الأكثر شهرة في ريو دي جانيرو، المبتهج الدائم الاحتفال، كروال صديق رجال الأعمال، الذي هو الآن في ريو إمّا أن يكون في سبيله إلى تكوين ثروة طائلة، أو أن يكون في سبيله إلى إعلان الإفلاس التام. أنا في الحقيقة كنت أشك في كل ما يتعلّق به، باستثناء شيء وحيد هو إصابته بتليّف في الكبد ميئُوس من علاجه.

- سيدتي أنا آسف، لكني مضطر إلى المغادرة. هل تريدين أن تستقلّي معنا سيّارة الأجرة التي تنتظرنا؟ فالوقت متأخّر، هل يمكنني أن أنقلك بها إلى أي مكان تريدينه؟

- أشكرك يا سيدي، ولكن دور الزوجة هو مثل دور الأم، التي يجب أن تنتظر زوجها أو ابنها العائد من الخارج، إلى أن يغادر السفينة آخر راكب عليها، حتى إذا لم يكن لهذا الفعل أي هدف آخر، أكثر من أن أعيد الأب الغائب إلى أبنائه، فهو لديه ابنتان. أنا سأبقى هنا إلى أن أشاهد مغادرة آخر راكب على سطح السفينة، حتى لو كنت سأظل هنا إلى بزوغ فجر اليوم الجديد. أريد أن يكون قلبي مطمئنًا إلى معرفة الحقيقة، هل هو على هذه السفينة أم لا؟

- ربّما سيكون من الأسهل الاستعلام عن وجوده أو عدم وجوده من

t.me/qurssan

إدارة السفينة. أمسية سعيدة يا سيدتي، وأنتِ يا ريمونة تعالَيْ إلى جواري.

- إلى اللقاء يا سيدتي. (هكذا قالت ريمونة).

- ليلة سعيدة يا صغيرتي المسكينة وإلى الغد. (هكذا قالت زوجة كروال وهي تتجه نحو المعبر إلى ظهر السفينة لاستئناف المزيد من الفحص والتحرّي).

(٩)

اختفى أوجست بعد أن كان قد وضع الحقيبة على المقعد إلى جوار السائق.

- يا لها من سيدة مزعجة ثقيلة الظلّ. (هكذا قلتُ وأنا أتخذ مكاني على المقعد الخلفي).

- صحيح يا بلاز فقد وجدت أنها امرأة طفيلية تثير حولها موجة من الإحباط، تخيّل يا بلاز أنها منذ يومين تتبعني كظلّي أينما ذهبت، ولم تتوقّف لحظة واحدة عن سرد الفظائع التي ارتكبها زوجها. لم أكن أتصوّر أنه لا تزال هناك سيّدات مثلها.

- لكن يا ريمونة أنا لم أفهم لماذا قالت لكِ (إلى الغد يا صغيرتي)؟ ماذا تقصد بذلك؟

- هذا بسبب أننا ننزل في نفس الفندق.

- كيف هذا؟ في فندق رويال جاسكونيا؟

- نعم في فندق رويال جاسكونيا.

- يا لبؤس المصير. لا لن يحدث هذا، فأنا لا أريد أن أراها مجدّدًا. أعتقد أنه علينا الرحيل في الصباح الباكر. سأستأجر سيّارة وسنذهب إلى باريس بالطريق البرّي. أنا لا أريد أن أجد نفسي معها في نفس القطار.

- كما تريد يا صديقي.

- إذا سافرنا مبكّرًا يمكننا أن نصل إلى ريناك في موعد تناول وجبة الغذاء.

- أنا أشتاق إلى وجبات فندق أوتيل دو فرانس في ريناك، التي تقدّم معها الفطريات الدرنية المخلّلة، التي أتلذّذ كثيرًا بطعمها.

- نعم. أنا أيضًا أحب وجباتهم.

(١٠)

بعد شهر أو أقلّ قليلًا من تلك الليلة، عدتُ إلى نفس المكان، أمام نفس المخزن، على نفس الرصيف، في نفس الميناء، في نفس المدينة بوردو، وكنت أتابع ببصري شاحنة ضخمة بمقطورة، كانت تحاول أن تجد طريقها وسط عدد من تلال وأكوام صناديق البضائع، ثم تمكن السائق البارع من قيادتها القهقرى، حتى يصبح صندوق سيّارته المفتوح، بالضبط أسفل الرافعة المعدنية الضخمة، التي تقوم بتفريغ البضائع من فوق ظهر السفينة ماسيليا.

رأيت الآن التابوت المحمول على خطّاف الرافعة. إنه كروال الذي عاد أخيرًا إلى فرنسا. كنت قد تلقّيت تلغرافًا من سالوميا ترجوني فيه أن أكون في استقبال جثمان كروال عند وصوله إلى فرنسا. أسرته كلها

t.me/qurssan

كانت هناك، ولم يكن لي أن أتدخّل. أرملة صديقي التي جاءت لتسترد زوجها، شغلت حيّزًا مكانيًّا أعاق الآخرين عن الحركة.

كان من بين أخوة كروال الذكور رجلان بقيا في سيارتهما يدخّنان سجائرهما، وقد تركا أرملة أخيهما تتصرّف كيفما تشاء. وجدت هناك كذلك شريكيه الباريسيين اللذين كانا يقدّمان له رأس المال اللازم لعمليات الاستيراد والتصدير، التي من أجلها أفنى كروال حياته. إنهما سمكتا قرش من بين أسماك القرش التي تلتهم ضحاياها، ولا تبقي فيها لحمًا ولا عظمًا. لديّ براهين كثيرة على ما أقول، من بينها الثروة الفاجرة التي كوّناها، فمؤسّسة كروال وشركاه للتصدير والاستيراد والسمسرة لا تزال باقية في ريو دي جانيرو، كواحدة من أهم المؤسّسات التجارية الموجودة بين فرنسا والبرازيل.

تحرّكت سيارة الشحن بحمولتها للخروج من الميناء، ثم الاتجاه بعد ذلك في الطريق المؤدّي إلى باريس. بعد مراقبتي لهذا المنظر، اقتربت من السيّارة السوداء التي تحمل عددًا من أفراد الأسرة، ثم جاءت كلمات من بعض الأبيات الشِّعرية إلى رأسي باللغة البرتغالية، لكني لم أتذكّرها على الفور، كانت الفتاة البرتغالية سالوميا هي التي لقّنتني إيّاها.

كانت لا تزال هناك الكثير من القوانين العنصرية في أمريكا الجنوبية كلها، وليس فقط في البرازيل، أو في أمريكا الشمالية، فتلك الفتاة كانت هي الشخصية الملوّنة السمراء الوحيدة، المسموح لها بدخول بار فندق بالاس الفاخر بريو، بفضل نفوذ كروال. كان كروال شخصًا استثنائيًّا لذيذًا، فرغم أنه كان على قدر كبير من الذكاء واللؤم، إلا أنه كان شديد

الهشاشة، إذ إنه كان غيورًا إلى حدّ الجنون على هذه الراقصة البرتغالية الغجرية، تلك الحيّة الرقطاء التي كان كروال يعاملها كما لو كانت أميرة ملكية.

كان الجو على الرصيف قد أصبح باردًا، فدخلت في أحد تلك المطاعم الصغيرة القريبة، حيث احتسيت بعض الخمر واقفًا إلى جوار كاونتر البار مان، أقصد المنضدة المصنوعة من مادة القصدير (الزنك)، الممتدّة بطول الحائط الممتلئ الأرفف بزجاجات الخمور. كنت مشتّت الانتباه أفكّر في الحيّة الرقطاء. بعد قليل عاد رصيف الميناء إلى الامتلاء بالرجال من مندوبي شركات الشحن والتفريغ، إذ يبدو أن هناك سفينة جديدة على وشك الوصول. كنت أراقبهم من موقعي خلف زجاج المطعم، عندما كانوا يقومون بوضع، صناديق زجاجات النبيذ المعدّة للتصدير، في صفوف متوازية. كانت حركاتهم بارعةً جدًّا ليس بها خطأ واحد.

فجأة تذكّرت الأبيات التي كانت تقول: (على عكس النبيذ الذي/ تزداد حلاوته كلما تعتّق/ فإن قصص الحبّ والغرام/ تكون أجمل في فتوّتها/ وفي بدايات شبابها). هذا هو المعنى باللغة الفرنسية، إلا أن الكلمات البرتغالية كانت في تلك اللحظة قد جاءتني هي الأخرى بكل فخامتها وجرسها اللفظي المحبّب. فكرت في تلك اللحظة أيضًا، في ضرورة وضع حجر فوق قبر كروال بمدافن مونبارناس، تحفر عليه هذه الكلمات البرتغالية الفصيحة، لكن للأسف الشديد فيما بعد ضاعت مني هذه الكلمات مرة أخرى. من المؤكّد أنها لو كانت قد تحوّلت إلى أغنية، لساعدتني موسيقاها في تذكّرها واستعادتها.

t.me/qurssan

نهر السين

(١)

كنت في منتصف عشريناتي أقيم من جديد في باريس، عشق حياتي، لمدّة غير محدّدة. اعتدت على الذهاب للنزهة على أرصفة النهر، الذي لم يكن بعيدًا عن الشقة التي أقمت فيها، للتسكّع أمام باعة الكتب les bouquinistes. وقفت ذات يوم في شرفة نصف دائرية من تلك التي تطلّ على نهر السين، وهي تتسع على الأقل لعشرة أشخاص، يطلّون على النهر وهم يقفون بحذاء سورها. راقبت انسياب مياه النهر، ثم التفت انتباهي إلى رجل متقدّم في السن قد تعدّى الستين، يقف على نفس الشرفة، في موقع غير بعيد عني، بدا لي أنني أعرفه.

كان يتّكئ على السور مستندًا إليه بساعديه، مائلًا بجسمه نحو النهر. من هو؟ لاحظت تحت إبطه كتابًا أو ملفًّا للأوراق بغلاف أسود، كان ذا حجم كبير أقرب شبهًا بالكتب التي تطبع بها أحجام أوراق المؤلّفات الموسيقية الأوركسترالية، أو يجوز أن هذا الملفّ هو حافظة جلدية بها عدد من الجيوب أو الأغلفة البلاستيكية التي توضع فيها الأوراق منفصلة. هل هو موسيقي معروف؟ هل سبق لي أن حضرت إحدى حفلاته؟ هل

هذا الملف هو سيمفونية لبيتهوفن عثر عليها هذا الموسيقي المجهول، عند أحد باعة الكتب القديمة على رصيف نهر السين؟

في النهر أمامنا انشغلنا بمتابعة قاطرة بخارية، تجرّ خلفها عشرة صنادل على الأقل، مربوطة بعضها إلى بعض بواسطة سلاسل حديدية، يصدر عن احتكاك حلقات الحديد ببعض صوت مميّز، خاصة أن هذا الركب كان يصعد النهر، أي يتجه نحو المنبع في عكس اتجاه تيّار الماء. كاد كوبري الفنون أن لا يسمح بمرور هذه القاطرة، بسبب ارتفاع مدخنتها أكثر من الارتفاع المسموح به، لو لم تبطّئ من سرعتها حتى يتمكن أحد بحّارتها من إمالة جسم المدخنة قليلًا، وهكذا استأنف الركب مسيرته.

اكتشفت فجأةً أن هذا الرجل الواقف وحده هنا إلى جواري هو أحد أهمّ كتّاب فرنسا المشهورين، الذي أجلّه إلى أقصى حدّ، فتسارعت دقّات قلبي خوفًا من أن يعتقد أنني أتطفّل عليه، أو أنني سأتطاول عليه وأخترق عزلته. كنت أخشى من التوبيخ، لذلك شعرت أنه من الأفضل لي أن أنسحب. لكنه لم ينطق بكلمة واحدة. تابعنا سويًّا للحظات سفينةً صغيرةً تمرّ أمامنا، شاهدنا عليها منظرًا منزليًّا، لامرأة ورجل يقومان بنشر غسيل ملابس عائلية على حبل، ويلعب الهواء بشعر المرأة. عائلات كثيرة تقيم في غرف مبنيّة في مراكب، دائمة التنقّل فوق مياه أنهار فرنسا.

على الرصيف المقابل وهو رصيف مرسى متحف اللوفر، كانت هناك سفينتان راسيتان عليه، تقوم مجموعتان من العمّال بتفريغ واحدة منهما وشحن الأخرى يدويًّا. كانت المجموعة الأولى من العمّال تقوم بنقل صناديق خشبية من إحدى السفينتين إلى الرصيف، غالبًا كانت من

t.me/qurssan

نوع الصناديق التي تستعمل في تعبئة زجاجات الخمور، وستكون غالبًا زجاجات ويسكي قادمة من إنجلترا. أما المجموعة الأخرى من العمّال فكانت مهمّتها أكثر مشقّة، إذ كان عليها نقل آلات بيانو سوداء، من الرصيف إلى داخل السفينة الأخرى.

اعتقدت أنني وجدت الموضوع الذي سأتحدّث معه فيه، قلت بصوت مرتفع لعلّي أستطيع أن أجذبه إلى محادثتي: «غالبًا آلات البيانو هذه ذاهبة إلى جنوب شرق آسيا، إمّا إلى اليابان أو إلى الصين، لأني كنت هناك منذ سنوات، وشاهدت كيف أن الأجيال الجديدة في هذين البلدين تحاول أن تنفتح على العالم الغربي، وهذا هو السرّ وراء الاهتمام بتعلّم العزف على البيانو».

لم أكن قد أدرت رأسي نحوه وأنا أقول هذه الكلمات، كأنني كنت أتحدّث إلى نفسي، على أمل أن يدير هو رأسه نحوي، حتى لو لم ينطق بكلمة واحدة، سيكون هذا انتصارًا صغيرًا يكفيني. قد يكون مشتّت الفكر، ينظر إلى النهر أمامه، لكنه يفكّر في أشياء أخرى تمامًا، غير ملتفت إلى الشخص الواقف إلى جواره. لكنه لم يُدِر حتى رأسه نحوي. بدا لي مهمومًا. عندما انشغل بإعادة ربط الوشاح حول رقبته، لاحظت أن ذقنه غير حليق، وأن القفّازين اللذين يضع يديه فيهما باليان عند أطراف الأصابع.

لم أستطع ولا مرّة واحدة أن أقتنص نظرة من عينيه. قلت في نفسي إنه من الجائز أن يجد أن فرق السن بيننا لا يسمح بالحوار، أو أن يكون إنسانًا غير اجتماعي لا يحب الحديث مع الغرباء، أو أنه يتشكّك في

البشر بشكل عام مثل شخصية (عدو البشر) في مسرحية موليير، خاصة وقد لاحظت أن أنفه معقوف، وأن على وجهه علامات الترفّع والكبرياء، اعتزازًا بقيمته الأدبية.

كان حديثي عن الصين هو بغرض إثارة حب الاستطلاع لديه. كنت أودّ لو دار بيننا حديث تلقائي، عن أوضاع المجتمع الصيني الذي عرفته جيدًا، حتى أحدّثه عن التناقض الواقع هناك، بين العادات التقليدية للمجتمع الصيني القديم، وبين الأخلاق الثورية المجلوبة من الحضارتين الغربيتين المعاصرتين، الأوروبية والأمريكية.

(٢)

إنه ريمي دوجورمنت **de Gourmont** الكاتب الذي قرّرت في سن العشرين -أي قبل بضعة أعوام- أن يكون مثلي الأعلى في الكتابة، الذي كم تمنيّت أن أصبح يومًا ما -من بين دائرة أصدقائه المقرّبين- واعتقدت أنني لو وُضِعْتُ بعد وفاتي في قائمة أسماء واحدة معه، فهذا وحده فقط هو الإنجاز الحقيقي في الحياة. إن كتبه هي أكثر الكتب تأثيرًا على حياتي.

أكثر ما تعلّمته منه هو أسلوب استخدامه للكلمات، التي يقسّمها إلى رمزية ومجازية واستعارية وصوفية ونقية وزاهدة، في كتابه (اللغة اللاتينية الرمزية **le latin mystique**)، الذي كانت قراءته بالنسبة لي هي تاريخ ولادتي الذهنية، هي واحدة من نقاط التحوّل الرئيسة في حياتي، لا تقل أهمية عن لحظة تركي بيت العائلة في سويسرا في سنّ السابعة عشرة، وفي نيّتي أن لا أعود إليه مجدّدًا مطلقًا. قبل هذا الكتاب كنت

t.me/qurssan

شيئًا، وبعده أصبحت شيئًا آخر.

كنت كذلك من متابعي مقالاته، التي كانت في ذلك الوقت، تظهر بانتظام في إحدى الدوريّات الشهرية، التي كان يقوم فيها باختيار شخصيّات عامة، غالبًا سياسية أو أدبية، ثم يتولّى عملية تشريحها نفسيًّا، بما له من معرفة علمية وفلسفية، كما لو كان وحشًا يلتهم ضحاياه. كان من أولئك الكتّاب القادرين على إحداث طفرات في أساليب التفكير السائدة في عصورهم.

كان هذا الرجل قد أنهى حياته الوظيفية الطويلة الثرية، في خدمة فرنسا والشعب الفرنسي، في منصب المدير المسئول عن المكتبة القومية **la Bibliotheque Nationale** الكائنة في شارع ريشيليو **Richelieu** بباريس، حيث كان معتادًا على تكريس وقت فراغه من العمل في إثراء اللغة الفرنسية بالمزيد من المؤلّفات في علم اللغويات، ويسمّونه الآن اللسانيات **Linguistiques**، وهو العلم الذي أصبح هو فيه المعلّم الأوّل.

أمّا كيف أنهى حياته الوظيفية، فالسبب هو أن كتابه الوحيد الذي ألّفه عن تجاربه الحياتية، وحاول عدد كبير من أصدقائه أن يثنوه عن كتابته، وأسماه (اللعبة الوطنية **le jeu patriotique**)، أغضب عددًا من كبار المسئولين الإداريين والسياسيين في فرنسا على زمن بداية القرن العشرين، الذين وجدوا فيه قدرًا هائلًا من الصراحة لم يحتملوه، فاضطروه لاحقًا إلى الاستقالة من منصب مدير المكتبة الوطنية.

إذنْ في ذلك اللقاء الأول بيننا لم نتبادل كلمة واحدة. إلا أنني بعد

أن خلوت إلى نفسي، بدا لي أنني تركت فرصة استثنائية، للحديث مع أحد أبطال حياتي، دون أن أستفيد منها. إلا أن القدر كان كريمًا معي بشكل غير متوقّع، إذ إنني أثناء جولتي اليومية، على أرصفة نهر السين، بعد بضعة أيام قليلة، وجدت نفس الرجل في نفس المكان في نفس التوقيت عند غروب الشمس. بسرعة اقتربت منه وقدّمت له نفسي في كلمات مباشرة بسيطة، دون اللف والدوران الذي حاولته معه قبل بضعة أيام. هذه المرّة استجاب لي، وتبادلنا أطراف الحوار لفترة من الوقت، ثم أراد الانصراف فاقترحت عليه أن يذهب معي لحضور عرض سينمائي، فوافق قائلًا إنها المرّة الأولى في حياته التي سيذهب فيها إلى السينما.

مشينا سويًّا على رصيف النهر، جهة هذه الضفّة اليسرى، ثم ذهبنا إلى قاعة عرض سينمائي في ميدان القديس ميخائيل (سان ميشيل)، حيث شاهدنا في عرض السادسة مساءً فيلمين، أولهما كان فيلمًا تسجيليًّا قصيرًا (٢٠ دقيقة) تمّ تصويره في إفريقيا، عن شلّالات ومساقط مياه نهر الزمبيزي، حيث رأينا كيف ينقل الأفارقة الأقوياء البنية، البضائع الثقيلة على أكتافهم، من المراكب التي كانت تحملها قبل منطقة الشلّال، إلى المراكب التي ستحملها بعد منطقة الشلّال، لأن المراكب لا تستطيع أن تبحر عبر الشلّالات. لم يعلّق إلا على شيء واحد، وهو شجرة استطاعت أن تظل واقفة ثابتة، بجذورها الضاربة في عمق الأرض، ضد مياه الشلال القوية. هذه كانت دهشة الطفل الذي بداخله، رغم تعدّيه سن الستين.

(٣)

في ثالث لقاء بيننا أصبحنا صديقين، إذ دعاني إلى شقّته في عمارة قريبة من النهر، هي في رقم ٧١ شارع الآباء القديّسين، في الطابق الخامس والأخير من العمارة التي كانت دون مصعد كهربائي. قال إنه بفضل عدم وجود مصعد استطاع بالصعود والهبوط كل يوم، أن يحافظ على اللياقة البدنية في ساقيه. هي شقّة صغيرة ضيّقة غير مريحة لا تليق بهذا الإنسان العظيم. قلت في نفسي: هكذا يعيش الناسك الزاهد في الحياة، هذه هي صومعة راهب يعيش في أحد أديرة الصحراء، مكرِّسًا حياته لتحقيق هدفه.

فهمت الآن لماذا كانت كتب هذا الرجل هي الدليل الذي قادني في حياتي، فكما تعلّمت من أبي كراهية النقود، تعلّمت من ريمي تكريس الحياة لهدف. ثم هو يعطيني الإجابة على سؤال: كيف من الممكن أن تصبح كاتبًا كبيرًا»، وهي «العمل الشاق المستمر في القراءة والكتابة ليلًا ونهارًا طوال حياتك، مع الإنكار التام للذات». فالكتابة ليست موهبةً إلهيةً تُعطى للإنسان عند مولده، أو تظهر في طفولته مثل الصوت الجميل، إنما هي مقدرة خاصة، تنمو مع الإنسان طوال حياته، حتى يصبح كاتبًا كبيرًا. كل الكتَّاب الكبار الذين عرفتهم في حياتي كانوا يعيشون بنفس هذه الطريقة، أي يعيشون وحدهم داخل شقق مكدّسة بالكتب، وخالية من وسائل الراحة والترفيه.

داخل الشقّة فاجأني منظر دواليب الكتب، التي تغطّي أرففها جميع

الحوائط، من الأرض حتى السقف، في جميع الحجرات. كان هناك كذلك سلم خفيف متنقّل يسمح له بالصعود، للوصول إلى آخر رفّ بالقرب من السقف. ثم هناك كذلك المكتب الذي يجلس إليه ليكتب، حيث تتناثر مئات الأوراق، على كل سنتيمتر مربع من مساحة سطح المكتب، الذي يبلغ بضعة أمتار طولًا في بضعة أمتار عرضًا. ثم هناك كومة من الأوراق العذراء، البيضاء بلا سوء، على مائدة منخفضة، إلى جوار الكرسي الذي يجلس عليه ليكتب.

ملحوظاتي الأخيرة على هذه الزيارة:

١- ككل أفراد جيله، كان يكتب بيده، باستعمال الأقلام المختلفة الألوان، إذ لم تكن آلات الكتابة بالطباعة بأحرف (التايب رايتر type writer) قد انتشرت بعد بين الكتَّاب في فرنسا، كما هو الحال في الأجيال التالية، فأنا شخصيًّا لم أحصل على واحدة إلا وأنا أقترب من الستّين.

٢- الروائح المنتشرة في فضاء الشقّة هي: أولًا رائحة تشمّها على الفور بمجرّد دخول الشقّة، وهي رائحة الأدوية المحضّرة صيدلانيًّا، ثانيًا رائحة العطر المحبّب لديه وهو الناردين، كما يمكنك ثالثًا أن تشمّ رائحة بول القطط.

٣- قدّم لي هدية هي كتاب (حياة الكلمات)، للمؤلّف أرسين دارمستتر **Darmesteter**، وهي نسخته الشخصية، إذ امتلأت هوامش كل صفحات الكتاب، بملحوظاته القيّمة الذكيّة وتعليقاته الشخصية، بالقلم الرصاص بخط رفيع صغير البنط.

t.me/qurssan

لم أعد مطلقًا إلى زيارة ريمي بعد ذلك، كنت مشغولًا بعلاقة الحب الناشئة بيني وبين أنطوانيت ابنة الغوّاص في مياه النهر، الذي كان يعمل في بلدية باريس. بعد ذلك عدت إلى السفر لبعض الوقت، إلى روسيا والصين.

لم أكن قد أعطيته اسمي كاملًا، ولم يكن يعرف لي عنوانًا، حتى لو فكّر ذات يوم أن يكتب لي رسالة. أمّا أنا فكنت أشعر نحوه باحترام شديد، فلم أرغب في كتابة رسائلي التافهة إليه.

شاهدته بعد ذلك مرّةً واحدةً فقط لا غير بالصدفة البحتة، عشيّة حرب ١٩١٤، في مقهى فلور، وهو اللقاء الذي وضعته في روايتي (اليد المقطوعة). مات ريمي في ٢٧ سبتمبر ١٩١٥، وهو بصدفة قدرية، نفس اليوم الذي فقدت فيه ذراعي، أثناء العمليات القتالية في أحد ميادين المعارك.

(٤)

بين منتصف ونهاية الثلاثينات من القرن العشرين، عدت إلى الإقامة في باريس، حيث عملت صحفيًّا، أحيانًا بالقطعة وأحيانًا بمرتّب شهري، في عدد من الجرائد اليومية والمجلاّت الأسبوعية الصادرة في باريس. ومن المعروف لكل من أقام في باريس عامًا على الأقل، أن شهر أغسطس هو الشهر الذي تخلو فيه من سكّانها، الذين يتركونها ويذهبون إلى الشواطئ، أو إلى المرتفعات الجبلية، لقضاء إجازاتهم الصيفية، ولهذا السبب تنخفض معدّلات الجرائم اليومية وحوادث الطرق، وتقلّ

فضائح نجوم السينما والمسرح، من بات ليلته مع من، وهي المواد الأكثر جذبًا للقرّاء في فرنسا، ومن المؤكّد في غيرها من الدول كذلك، وهكذا لا يجد الصحفيّون المضطرّون إلى البقاء في باريس، ما يكفي من المواد لملء صفحات جرائدهم اليومية.

إذنْ يظلّ الصحفيون في مكاتبهم بالجرائد، يقضون فترة ما بعد الظهيرة في التثاؤب، ثم في شدّ الأطراف والتمطّع في محاولة لطرد النعاس، الذي يستسلم له البعض أحيانًا فينامون نومًا صريحًا، وهو ما يدلّ عليه ارتفاع طبقة صوت الشخير الصادر عنهم، وقد امتلأت القاعات بوخم ما بعد الظهيرة، بسبب ارتفاع درجات حرارة الجوّ، ولذلك يقضي بعضهم الوقت في احتساء أكواب البيرة المثلّجة، وفي تجفيف عرقهم، منتظرين بنفاذ صبر عودة زملائهم من الإجازات، التي كانت في الغالب لمدّة أسبوعين، حتى يحلّوا محلّهم ويحصلوا بالتالي على إجازاتهم.

قد يترك البعض كل نوافذ وأبواب غرفهم مفتوحة إلى أقصى المتاح، على أمل الحصول على تيّار هواء، لكن ما يحصلون عليه فعلًا هو ضوضاء شارع سان جرمان، حيث يقع مقرّ الجريدة، تقريبًا في منتصف المسافة، بين قبر نابوليون بونابارت في الآنفاليد **Invalides**، وقبر فيكتور هيجو في البانتيون **Pantheon**، خاصة أصوات تأرجح وتمايل واهتزاز الترام الكهربائي، الذي يستمر في الدوران، دورته المعتادة في الشوارع، رغم أنه في هذا الوقت من العام، يكون شبه خال من الركّاب.

أمّا ما كان يضايقني أنا، فهو بترتيب أهميته: ١- حشرات الذباب بإلحاحها السخيف على أجزاء الوجه. ٢- ذرّات التراب التي تتراكم

t.me/qurssan

فوق الملّفات الموضوعة على المكاتب. ٣- رائحة مواسير المجاري التي كان عمّال البلدية يقومون بتجديدها، منتهزين فرصة خلوّ الشوارع من المارة.

ورغم ذلك الكسل والتراخي تستمر عجلات المطابع في الدوران، لطبع كل الأكاذيب الممكنة وغير الممكنة، المتعلّقة بكل أنواع القصص الحقيقية أو المختلقة، فقط حتى تخرج الصحيفة في موعدها المعتاد صباح كل يوم.

كنت دائمًا أطمح إلى كتابة موضوعات مثيرة، تدعو قارئيها إلى النقاش والجدل، وحدث أنني في ذلك الوقت من أغسطس من ذلك العام، بدأت في كتابة سلسلة من المقالات المتتالية كل يوم، حول نفس الموضوع، تحت عنوان (مشروع تحويل منطقة شمال غرب باريس إلى مرفأ بحري)، وتوجهت بالنقد إلى (وزارة الأشغال العامة)، القائمة على تنفيذ المشروع، رغم معرفتي مسبقًا بأن وضع كبار الموظّفين في تلك الوزارة، في هذا الوقت من العام، لن يختلف كثيرًا عن وضع محرّري الجرائد والمجلاّت، ولن أجد في مكاتب تلك الوزارة مهندسين متخصّصين يردّون على أسئلتي.

(٥)

في الحقيقة كنت أسعى في سلسلة مقالاتي تلك إلى الحصول على فضيحة، تلفت انتباه القرّاء إلى ما أكتبه، كما كان يفعل كل الصحفيين في ذلك الوقت، فمشروع تحويل الجزء الشمالي الغربي من باريس إلى

منطقة صناعية تجارية، وإقامة أرصفة على نهر السين، لشحن وتفريغ السفن الضخمة في قلب هذه المنطقة، بدلًا من أن تكون تلك الأرصفة على بعد ١٥٠ كيلو مترًا عند مدينة روان Rouen، كان مشروعًا يتحدّث عنه رجال الصناعة والأعمال الباريسيون، منذ على الأقل منتصف القرن التاسع عشر، أي منذ حكومات الإمبراطور نابوليون الثالث. كان كل زعماء فرنسا وساستها قد عالجوا هذا الموضوع شفهيًا في كل خطبهم، طوال ما يقرب من قرن من الزمان، دون أن يبدأ أيٌّ منهم في اتخاذ أي خطوات تنفيذية.

عندما كان الرقم الخرافي الدال على المبلغ المالي اللازم للتكلفة الاجمالية لهذا المشروع يظهر في الجرائد، كان الزعماء والساسة يتراجعون عن التنفيذ، بدعوى أنهم غير متأكّدين من جدواه الاقتصادية، حتى أن الشعب الباريسي كان دائمًا ما يتساءل، إن كان هذا المشروع قد تأجّل إلى أجل غير مسمّى، أو إن كان حتى قد تمّ إلغاؤه نهائيًا. إلا أن المستفيدين من هذا المشروع، سواء أكانوا من بين مقاولي تنفيذ العمليات الكبرى، أو من بين رجال الأعمال الذين اشتروا مسبقًا قطع الأراضي اللازمة، وطال انتظارهم للحظة بيعها بأضعاف ثمنها للحكومة، كانوا بواسطة أعضاء في مجلس النوّاب، يعيدون طرح المشروع على الحكومة. إنهم مجموعة من قروش البحر الشرسة، التي تستعد في كل وقت للانقضاض على المال العام، لالتهام ما يمكنهم التهامه منه.

من بين مزايا العمل في بلد حرّ، احترام مبدأ الحق في تداول المعلومات والحصول عليها، فعند زيارتي الأولى لوزارة (الأشغال العامة

t.me/qurssan

والبلديّات)، قاموا بإطلاعي على كل أرشيف المشروع، مئات الملفّات التي تستعرض على الورق، كل المراحل التي مرّ بها هذا المشروع. كانت مخطّطات لوحات المشروع، تتضمّن خرائط جغرافية للمنطقة، وكذلك مساقط أفقية ورأسية لكل أجزائه المعمارية، مثل أرصفة استقبال السفن، والماكينات اللازمة للشحن والتفريغ، وأحواض إصلاح وصيانة السفن، بالإضافة إلى قوائم حسابات الميزانيات المختلفة لكل مرحلة من مراحل المشروع.

ثم حدث في لحظة ما، أن وجدت في نفسي الشجاعة الكافية للذهاب إلى الموقع، الذي كان ينتهي عنده أحد خطوط مترو الأنفاق. الموقع عبارة عن متاهة كبرى. لكن يبدو بوضوح أنهم في لحظة ما كانوا قد قرّروا فعلًا أن يبدأوا في تنفيذ المشروع.

أولًا- هناك أكداس من أسياخ الحديد الصلب في كل مكان حولك، عندما تخرج من محطّة مترو الأنفاق.

ثانيًا- عندما تبتعد قليلًا على الأقدام، تجد أن هناك قنوات تمّ حفرها، لكن ليست هناك أيّ معلومات، تشير إلى أين تبدأ هذه القنوات وأين تنتهي.

ثالثًا- هناك أنفاق تمّ حفرها لتمرّ تحت القنوات، التي لا نعرف أين تبدأ وأين تنتهي.

رابعًا- هناك جدران تمّت تكسيتها بالخرسانة المسلّحة لا يبدو بوضوح ما هو الهدف منها.

خامسًا- هناك أبواب أهوسة تمّ تركيبها على مداخل بعض القنوات، كل باب منها بضلفتين حسب النظام القديم.

العجيب أنهم أنشأوا هنا في مكان ما محطّة لقطارات السكك الحديدية، حيث شاهدت قضبانًا للسكك الحديدية، وقاطرات وعربات نقل بضائع، التي لم أعرف إلى أين ستكون وجهتها.

بالإضافة إلى كل هذا هناك في كل مكان تنظر إليه جبال من المعدّات الهندسية، والخامات المختلفة من حدائد وأخشاب، متراكمة بعضها فوق بعض في غير نظام، المعدّات والخامات التي تعرّضت للتلف سالفًا، أو ستتعرّض حتمًا للتلف لاحقًا، بسبب مياه الأمطار الغزيرة التي تسقط عليها شتاءً من السماء، منذ عدد غير معروف من السنوات.

ثم هناك أسوار من الأسلاك الشائكة التي يبدو أنها تحيط تمامًا بالموقع، لتمنع أي زوّار غير مرغوب فيهم، من دخول الموقع بأي طريق آخر، عدا طريق محطّة مترو الأنفاق، الواقع تحت إشراف الحكومة ومراقبتها.

لاحظت كذلك أنه في مكان ما من هذا الموقع، هناك خطوط الضغط العالي الكهربائية، التي تمرّ فوق الرؤوس الآدمية، مع ما في هذا من مخاطرة.

تصل إلى المتاهة الحقيقية، عندما ترى البحيرات الصناعية، التي تحولت في بعض أجزائها إلى مستنقعات مياه راكدة، ينمو عليها العفن الأخضر. تساءلت من هو المسئول عن جريمة نهب وإهدار المال العام هذه، التي تدور وقائعها أمام عيني؟

t.me/qurssan

(٦)

هذه المساحة الشاسعة التي تمتدّ عليها الأراضي التابعة لهذا المشروع، تُغطّي مساحات كبيرة عبر عدد من أحياء الشمال الغربي الباريسي، أهمّها الأحياء التي تحمل أسماء أرجونتاي **Argenteuil** وجنفيلييه **Genneviliers**، وقد تركت هكذا عبر عشرات السنوات، في الحالة التي وصفتها للتوّ، بسبب الرغبة في تكريس المكان للمشروع، الذي لم يتقدّم العمل فيه على الإطلاق منذ بداية القرن العشرين، حتى أنك لو قدت سيّارتك تجوس في هذه المناطق، لما شاهدت إنسانًا واحدًا يقف في أي مكان.

حتى ذلك الوقت من الثلاثينيات، كان المدّ البحري القادم من قناة المانش وبحر الشمال والمحيط الأطلسي، يؤدّي إلى ارتفاع الماء في نهر السين، أحيانًا إلى مستويات خطيرة، لأنه لم تكن على نهر السين بين باريس وروان بعد أي أهوسة تحجز الماء، لأنهم لم يكونوا يعرفون حجم السفن المتوقّع عبورها في قنوات تلك الأهوسة، انتظارًا لأخذ قرار نهائي فيما يتعلّق بمشروع إقامة ميناء (مرفأ) بحري في شمال غرب باريس.

الشيء الأعجب هو أنه بسبب أن هذه المنطقة أصبحت مهملةً تمامًا منذ سنوات بعيدة، فقد تحوّلت بالتدريج إلى مقلب قمامة باريس، وقد بدأ الباريسيون في التخلّص من أشياء، لم يكونوا معتادين من قبل على التخلّص منها، هكذا بإلقائها في الشارع، مثلًا وجدت ماكينة حياكة بدت

لي في حالة جيّدة، ومذياعًا قد لا يحتاج إلا إلى تغيير بعض أجزائه، وعربة بعجلتين لوضع الأطفال داخلها، ودرّاجة هوائية. أصبح المكان مقلبًا للقمامة دون أن يصدر بذلك قرار حكومي، ثم أصبح كذلك أوّل مقبرة سيّارات في العاصمة.

في كل مرة ذهبت فيها إلى نهاية خط المترو الذي يقودني إلى أرض المشروع، في أثناء كتابتي تلك السلسلة من المقالات، خلال شهر أغسطس من ذلك العام، وجدت عددًا كبيرًا يقدّر بالمئات، من الرجال والنساء، من أولئك الذين أصبحنا نطلق عليهم اسم المشرّدين أو الصعاليك **vagabond**، أو إس ديه إف **S.D.F**.، أي أولئك الذين ليست لديهم عناوين مقار إقامة. كانوا يتلهّون ويرتعون على شاطئ من الحصى الملساء، المجلوبة إلى هنا من شواطئ بحر الشمال.

يقفزون أولًا بثيابهم في ماء النهر، رغم ركود الماء في هذا الموقع ونتانة الهواء حوله، ثم يتمدّدون في الشمس على ضفاف النهر لتجفيف ثيابهم، وبذلك يكونون قد وفّروا أجرة الاستحمام، في أحد الحمّامات الباريسية العامة، التي مهما كانت تذكرة الدخول إليها رخيصة في الأحياء الشعبية، فهم لا يملكون حتى قيمة تلك التذكرة، كما أنهم يوفّرون كذلك أجرة غسل ملابسهم.

يحدث أحيانًا تحت شمس الظهيرة الدافئة، أن يتخفّفوا من ثيابهم جزئيًّا أو كلّيًّا، بهدف تعريض أجسامهم المريضة إلى الشمس، التي قد تنجح في علاج بعض أمراضهم الجلدية المزمنة، التي تتسبّب فيها عاداتهم القذرة، وعدم استحمامهم أو تغيير ملابسهم طوال شهور

t.me/qurssan

الشتاء. في حالة العري تلك قد لا يتورّعون عن ممارسة الجنس علنًا في الهواء الطلق، فهم عادة لا شيء يردعهم، وشريكاتهم في هذا الفعل هنّ كذلك من بين نساء الأرصفة، اللائي اعتدن على هذه الممارسات ليلًا في حدائق باريس، أو في واحدة من الغابات المحيطة بها، بولونيا في الجنوب الغربي، وفانسان في الجنوب الشرقي. فهمت الآن السبب في قلّة عدد الصعاليك في باريس خلال شهور الصيف، الذين يقيمون عادة تحت الكباري، التي تعبر النهر في أحياء موبير أو الهال أو بيرسي.

(٧)

فكّرت في إمكانية كتابة سيناريو فيلم تسجيلي قصير، من النوع التراجي/ كوميك، فهي مأساة/ ملهاة، لها جانبها المبكي إلى جوار جانبها المضحك، وسيقبل هؤلاء الصعاليك الظهور في فيلمي، بمقابل مادي متواضع، وسأتركهم على سجيّتهم، يحكون لي وللمشاهدين كل ما يخطر على أذهانهم. كنت لا أزال منذ أوائل العشرينيات، اعتبر أحد كتّاب سيناريو الأفلام في فرنسا وإيطاليا، وإن كان الطلب عليّ قد تراجع بسبب انشغالي التام بالكتابة.

كان من بين أصدقائي في تلك الفترة المخرج المسرحي المعروف جوتييه **Gauthier**، وكنّا قد عملنا معًا في أوائل العشرينات، في تنفيذ بعض أفكاري التأليفية، إذ كان قد استعان بي في إضافة بعض البهارات إلى بعض أفلامه، التي كان ينقصها إضافة بعض الملح، بعض هذا الطعم الحاذق. بالتالي كنت أعرف أنه كان يعتقد في موهبتي. ذهبت إليه هذه

المرة، في المقهى المواجه للمسرح الذي يعرض عليه أعماله في قلب باريس، إذ كانت أحواله مزدهرة، وقد شجّعني تمامًا على كتابة عمل مسرخي عن صعاليك مرفأ باريس البحري.

قابلت كذلك صديقي المنتج والمخرج السينمائي اليهودي مسيو بيريز، الذي أبدى حماسه للعمل معي في كتابة فيلم عن (صعاليك باريس)، إذ كان الموضوع جديدًا، لم يتطرّق إليه أحد من قبل، ولم يعالج في أي شريط سينمائي. بيريز هو يهودي جاء في العشرينات إلى باريس، لا أعرف من أي مدينة أوروبية في شرق القارة (في المجر أو في تشيكوسلوفاكيا)، لكنه سيختفي تمامًا في يونيو ١٩٤٠، عندما يجتاح النازيون باريس، ولم أعرف أبدًا إن كان معنى اختفائه أنه قد أصبح أحد ضحايا المحارق النازية، أو أنه تمكّن من الهرب إلى أمريكا، إذ لم أسمع عنه أي شيء منذ يونيو ١٩٤٠. من كان يصدّق أن يحدث هذا في بلد هيجل وجوته؟

كذلك كان من بين معارفي لويس جوفيه **Jouvet** شابًّا، قبل أن يصبح نجمًا سينمائيًّا، وواحدًا من أشهر نجوم السينما الفرنسية تمثيلًا وإخراجًا في فترة ما بين الحربين، خاصةً في الفترة التي تحوّلت فيها السينما سنة ١٩٣٠ من الأفلام الصامتة إلى الأفلام المتكلّمة، كان هو نجم فرنسا رقم واحد. كنت قد شاركت في كتابة سيناريو بعض أفلام جوفيه، ثم سيناريو فيلم رينيه كلير الشهير (تحت أسقف بيوت باريس **sous les toits de Paris**)، ثم بقيت موسمًا كاملًا دون عمل، فقرّرت العودة إلى عالم البحار، ثم حدث أن أقمت بضعة أعوام في بعض مدن

t.me/qurssan

البرازيل حيث عملت في الاستيراد والتصدير.

بين عامي ١٩١٩ و١٩٣٩ كنا نقضي أجمل عشرين سنة في أعمارنا دون أن ندري، في أجمل سنوات عاشتها أوروبا دون أن تدري، رغم الكساد القادم من أمريكا بين ١٩٢٩ و١٩٣١. كانت أيام من اللهو العابث البريء، قبل أن يظهر خطر هتلر إلى الوجود. كان الوسط الفني الذي انتميت إليه، وسط العاملين في مهن تأليف الكتب وطبعها ونشرها، ووسط العاملين في الإنتاج المسرحي والسينمائي، يتكوّن من رجال ونساء من عشر جنسيات مختلفة على الأقل، جمعنا حب الفن وحب الحياة الصاخبة في باريس، وكنا قادرين على التواصل بكل اللغات التي نتكلمّها، فالأصول الواحدة من يونانية ولاتينية لكل اللغات الأوروبية جعلت التفاهم بين أصحابها سهلًا.

(٨)

من أعجب الأشياء في ذلك الوقت بين الحربين، وجود خط ملاحي نهري/ بحري بين لندن وباريس، أي أنه كان في إمكاننا أن نصعد على ظهر سفينة في ميناء لندن، عند ما يعرف باسم كوبري البرج **Tower Bridge**، لنبحر بها هابطين في نهر التيمس حتى القنال الإنجليزي أو المانش، ثم لنعبر المانش وندخل في نهر السين عند مصبّه، لنصعده رويدًا رويدًا ضد تيّار النهر، وهو يضيق رويدًا رويدًا ويقلّ اتساع مجراه، حتى نصل إلى مدينة روان.

من روان نقطع حوالي ١٢٠ كيلو مترًا إلى أن نصل إلى مرسى

يقع على الضفّة اليمنى للنهر، بين متحف اللوفر وحدائق التويلري في باريس، ويقع على الضفّة الأخرى من النهر أمامه على رصيف فولتير، مجمع علماء وأدباء فرنسا الشهير بمجمع الخالدين أو بمعهد فرنسا **Institut de France**. المسافة الإجمالية للإبحار كانت حوالي ٥٠٠ كيلو مترًا، وكان من المفروض أن تستغرق الرحلة فقط ثلاثة أيام، إلا أن الرحلة كانت تستغرق أحيانًا خمسة أيام، بسبب الاضطرابات الجوّية في المانش، وبسبب عدم وجود أعماق كافية في السين.

هذا الميناء النهري لم يكن يستقبل على الإطلاق أي سفينة نقل بضائع، فعمق النهر القليل الغور لا يسمح للسفن التجارية العميقة الغاطس بالمرور فيه، لذلك كانت السفن القادرة على القيام بهذه الرحلة هي السفن ذات الغاطس حتى عمق مترين، وهي وحدها القادرة على الإبحار في السين، لكن هذا العمق غير كافٍ لعبور بحر المانش في أمان. لهذا السبب كان مشروع الميناء البحري هو في الأساس مشروع لزيادة عمق النهر بين روان وباريس. أنا شخصيًا لم أقم بعمل هذه الرحلة بين لندن وباريس، إلا أن أصدقائي ومعارفي قالوا لي إنهم استمتعوا بها جدًّا، كما لو أنهم كانوا على ظهر يخت خصوصي.

عند ضفتيّ السين في هذا المكان يوجد صفّ من أشجار الحور من الفصيلة الصفصافية، التي يبلغ عمرها -حسب تقديرات العارفين- بضع مئات من السنين، التي تتميّز بأجمل أوراق فضّية في عالم الأشجار، وتميل جذوعها ميلًا خفيفًا مع تيّار الهواء، لتصل أفرعها المائلة أحيانًا إلى أن تغمر رؤوسها في تيّار الماء. كنت قد اعتدت على الذهاب مشيًا

t.me/qurssan

على الأقدام من شقّتي الباريسية، حتى هذا الموقع من النهر، لتأمّل النهر والأشجار ساعة غروب الشمس، حين يتحوّل لون الأوراق الفضّي إلى لون ذهبي.

أحيانًا كنت أقف على كوبري الفنون، وهو المعبر الخشبي الموصّل بين الضفّتين، حيث أراقب مياه النهر في انسيابها الهادئ. سريعًا ما تتراجع الإضاءة النهارية، وتلمع مصابيح الإضاءة الكهربائية، فتتلاشى أشياء عديدة من المنظر النهاري، لأن المنظر الليلي لا يضيء إلا الطرق التي تمرّ عليها السيّارات. يغزو هذا الظلام الكثيف الأماكن، فيغزو كذلك الكائنات المتواجدة في هذه الأماكن. أصبح الليل يصيبني بالحزن والألم والضيق. كنت في سن العشرين كائنًا ليليًّا، لكنني أصبحت في سنّ الأربعين كائنًا نهاريًّا.

(٩)

كان عصر الطيران المدني لا يزال في بداياته، ولم تكن هناك رحلات كثيرة منتظمة بين عواصم أوروبا. في هذا الوقت المبكّر من الثلاثينات، جاءني من لندن على متن الخط الملاحي البحري النهري ثلاثة من الشعراء الإنجليز. لم يأتوا سويًّا، وإنما جاؤوا على التوالي، كما لو أن الأول كان قد حكى للثاني، ثم الثاني قد حكى للثالث. كان هؤلاء الشعراء في زمن شبابهم في العقد الأول من القرن العشرين من بين الانجليز الذين كوّنوا جماعة الدفاع عن المؤلّف الإنجليزي (أوسكار وايلد)، عندما تعرّض للمحاكمة بسبب اتهامه بالجنسية المثلية.

هذا المؤلّف (وايلد) وتعني (البرّي/ الوحشي/ الجامح/ الهائج) الذي للأسف لم أعرفه شخصيًّا، لأني سنة ١٩٠٠ كنت فقط في سن الرابعة عشرة، يمكن أن أعتبره النموذج الأمثل للفنّان المبدع حرّ الاختيار، الذي يمارس الحياة بضمير حيّ، وبكل الوعي المتاح للإنسان الحرّ، النموذج الأمثل لكيفية أن تعيش حياتك، وفقًا للمبادئ التي تنادي بها في أعمالك، النموذج الأمثل في فنون الحياة العملية، فالمسألة بالنسبة إليه لم تكن قطّ مبادئ نظرية ينادَى بها لا يمكن تطبيقها في الحياة، بل هي مبادئ عملية قابلة للتطبيق، يمكن أن يدافع عنها الإنسان حتى الموت. لم تكن المسألة هي الجنسية المثلية، بل كانت المسألة هي الحق في الاختيار.

ثم جاءني صديق كان يعمل رسّامًا كاريكاتيريًّا في إحدى الجرائد اليومية اللندنية واسعة الانتشار، وكانت رسومه تدلّ على موهبة كبيرة وذكاء حاد. هذا الإنسان تميّز بعشق خاص لباريس. يعشق هواء باريس ونساء باريس وكل ما له علاقة بباريس. ورغم كثرة أسفاره في كل بلاد العالم، كان يقول إن باريس هي أجمل مدينة في العالم.

وجاءني صديق كان يعمل في الإذاعة البريطانية منذ بداياتها، وكان فخورًا جدًّا بكل التقنية الحديثة في ذلك الوقت، التي كانت تسمح له بإرسال رسائل صوتية مباشرة من باريس، يلتقطها مقر الإذاعة في لندن، ثم يعيد بثّها على الهواء مباشرة في العالم أجمع. كانت لندن حتى ذلك الوقت من الثلاثينات هي عاصمة التكنولوجيا الحديثة، قبل أن تبدأ في التراجع أمام الاكتساح الأمريكي.

كان هذا الإذاعي المرموق يتمتّع بمشاعر طفولية متدفّقة، ففي كل

t.me/qurssan

مرة جاء فيها إلى باريس، كان يترك حقيبته وأجهزته في غرفته بفندق (لوتّي) Lotti، وهو على اسم بيار لوتي، رجل البحرية الفرنسية الذي زار منطقة الشرق الأوسط وكتب عنها، مصر ولبنان وتركيا. من هناك يذهب على الفور مشيًا إلى متحف اللوفر، الذي لا يبعد إلّا خطوات قليلة عن الفندق. كان يقول إن اللوفر هو قلب باريس، وإن نهر السين هو الشريان الذي يقوده مباشرة إلى القلب، في كل مرة يأتي فيها إلى جسد باريس.

ثم يقول إن قلبه يبدأ في الخفقان بشدّة في كل مرّة يعبر فيها المانش، ويبدأ في رؤية الشواطئ الفرنسية. ثم عندما تدخل السفينة في مصبّ النهر، وتبدأ في صعود النهر، الذي يضيق رويدًا رويدًا، مرورًا بمدينة روان، هنا يحسّ بمشاعر عاطفية جيّاشة، كأنه عاشق يقترب من جسد عشيقته. ينشغل بعض الوقت برؤية المناظر الطبيعية، من جبال وتلال وغابات، حتى تبدأ منازل ضواحي باريس في الظهور، عند هذا الحد يفقد التحكّم في أعصابه. أمّا ذروة الانفعال فهي عندما يرى قصر اللوفر فيكاد يفقد الوعي من السعادة. هكذا كان يقول في كل مرّة.

(١٠)

كنت أذهب للقائه على الرصيف، بعد أن يصلني منه تلغراف يحدّد رقم الرحلة، فأجده يكاد يطير في الهواء، متعجّلًا لحظة ذهابه إلى اللوفر، رغم أنه كان من الوزن الثقيل الذي يتعدّى المئة كيلو جرام. حتى أكسر حدّة الانفعال الذي قد يكون خطرًا على حالته الصحّية، اقترحت عليه

في هذه المرة -قبل الذهاب إلى اللوفر- أن نذهب إلى أحد المشارب (البارات/ الحانات) القريبة، لاحتساء قدح من شراب مسكر يمكن أن يخفّف من توتّره، فوافق.

قرّرت أنه بدلًا من الذهاب به إلى أحد المشارب في شارع ريفولي، اخترت أن أذهب به إلى بار (الأرملة مورو **la veuve Moreau**)، في شارع (الشجر الجاف **les arbres secs**)، في نهاية رصيف اللوفر، وبالقرب من ميدان (المدارس). قلت له إن هذا هو أحد أفضل مشارب العاصمة، فهو فريد من نوعه في العالم، وليس لديكم مثله في لندن. عند وصولنا إلى هناك بدأت أشرح له كل أصناف الخمور الموجودة على كل الأرفف، رفًا رفًا وزجاجةً زجاجةً.

بدأت بالخمور التي تحصل على نكهة مميزة، لأنها تختلط بعصائر الفواكه، مثل الخوخ والكريز والفراولة والعنب والبرقوق والقرنفل والريحان، أو مثل العصائر المأخوذة من النباتات الإكزوتيكية **exotique**، أي الخارجة عن المألوف، التي تأتي بها سفننا من جزر المستعمرات الفرنسية، في المحيط الهادئ وفي البحر الكاريبي، خاصة من جزر الاتحاد (لا رايونيون **la reunion**) وجزر المارتينيك، مثل الصنوبر والأناناس والجوافة والبلح، وهي من أصناف الفواكه التي لم نكن نعرفها بعد في فرنسا، كل هذا مختلطًا بالبراندي.

مع كل صنف جديد كان يريد أن يحصل على جرعة يتذوّق بها النوع، ويحكم بنفسه على جودته. أراد المجنون أن يتذوّق كل هذه الأصناف مرّة واحدة، دون أن يدرك أن الإنسان يحتاج إلى بعض الوقت،

t.me/qurssan

حتى يستطيع أن تتخلّص حلمات التذوّق في اللسان من الصنف السابق، لتستطيع أن تتذوّق الصنف اللاحق. قد أكون أنا السبب فيما حدث له. غالبًا أنا السبب فيما حدث له. لكن ماذا حدث له؟ الحقيقة هي أنه عندما تذوّق نبيذ الكالفادوس مضافًا إليه البرجاموت، وهو نوع من الليمون من الفصيلة البرتقالية الطعم الكمّثرية الشكل، توقّف تمامًا عن الرغبة في تذوّق أيّ شيء آخر، ولم يرد أن ينتقل بعده إلى سواه، بل أراد على الفور أن يأتي على الزجاجة كلها.

أراد الرجل الإنجليزي الأيرلندي أن يشتري ولو زجاجة واحدة من كل صنف من أصناف الخمور التي جعلته يتذوّقها في تلك الظهيرة، أي أن يشتري على الأقل مئة زجاجة، فجلبنا سيّارة أجرة إلى باب المحل، لتحميلها بالزجاجات. كانت الأرملة مورو في قمّة سعادتها، فقالت لي بالفرنسية التي لا يعرفها الأيرلندي: «عُد فيما بعد للحصول على عمولتك». إلا أننا علمنا في اليوم التالي أن الأيرلندي نُقل إلى المستشفى بعد إصابته بأزمة قلبية، لأنه بعد أن وجد نفسه وحده في حجرة الفندق، أراد احتساء كل هذه الزجاجات مرّة واحدة.

(١١)

كنا ذات مرّة في بار (الأرملة مورو). انظروا معي إلى هذا الخليط العجيب من البشر الموجودين معًا في نفس الوقت بداخل هذا البار، دون وجود أيّ حساسيات عنصرية أو طبقية. هذه هي فرنسا الثورة على الملكية وعلى طبقة النبلاء، فرنسا المساواة والإخاء بين البشر، لذلك

سأذكرهم هنا دون مراعاة أي ترتيب طبقي:

١- عدد من موظّفي متحف اللوفر بملابسهم الرسمية، بما فيها السترات المغلقة حتى الأعناق بصف من الزراير، دون ربطات عنق. كانوا يأخذون فترة راحة من العمل.

٢- بعض مواطني المستعمرات الإفريقية الفرنسية، الذين كانوا يشعرون حتمًا بالبرد، رغم أننا كنا في فصل الصيف، بدليل حجم الملابس التي يضعون أكداسًا منها فوق أجسادهم كيفما اتفق، فقط بغرض الوقاية من البرد، لا بدّ أنهم في بلادهم يتجوّلون في شوارعهم بملابس خفيفة.

٣- موظّفون أعرف بعضهم من طول التردّد على نفس الحانة، يعملون في أرشيف مكتبة وزارة البحرية الفرنسية، التي تشغل أحد المباني المجاورة لمتحف اللوفر، بملابسهم الأنيقة من بزّات سوداء وأربطة عنق ملوّنة.

٤- عدد من حارسات العقارات السكنية القريبة من الحانة، في ملابسهنّ المنزلية البسيطة، اللائي كن يقفن إلى جوار كاونتر (حاجز) البار، يتناولن مشروباتهنّ المفضّلة من الكاكاو الساخن، المضاف إليه بعض المشروبات الكحولية في جرعات صغيرة مثل الكونياك أو البراندي.

٥- في أحد أركان البار، تزاحم عدد من الرجال من كبار السن، الذين تعدّى معظمهم الخامسة والستّين، يريدون شراء إكسير الحياة، الذي تخصّصت هذه الحانة في تحضيره، وبيعه في شكل معجون عسلي اللون

يعرف باسم (إكسير القدّيس أنطوان). كان الفرنسيون حتى ذلك الوقت قبيل الحرب العالمية الثانية يعتقدون أنك لو أردت الحصول على معجزة من نوع معجزات استرداد الشباب، فعليك اللجوء إلى أسماء القدّيسين من جالبي البركات، من أمثال القدّيس أنطوان. عندما يحصل أي زبون من زبائن هذا الركن على زجاجته، يخرج بها مخبّأة تحت ملابسه، كأنه يشعر بالعار من لجوئه إلى هذه الحيلة لاسترداد شبابه الضائع.

كنت في ذلك اليوم من جديد مع صديقي الأيرلندي، الذي من جديد أكثر من الشراب، حتى كاد أن يصاب بالشلل في ساقيه، فعندما قام من جلسته الطويلة، اكتشف أن ساقيه لن يتمكنا من توصيله إلى فندقه القريب، فاستعان بي وبرجلين آخرين في معاونته. المشكلة الأخطر هي أنه ذلك اليوم عندما جلس أمام أجهزته الإلكترونية في فترة ما بعد الظهيرة، لبثّ رسالته اليومية إلى الإذاعة البريطانية، اكتشف أنه كان قد أصيب بشبه شلل في لسانه، فلم يتمكن من إذاعة النشرة اليومية، على موجة راديو البي بي سي في لندن، فرجاني أن أحلّ مَحلّه، وأقرأها بدلًا منه، وكان قد أعدّها مكتوبة بالإنجليزية مسبقًا، ففعلت.

بعد أن ماتت الأرملة مورو، ولم يكن لها ورثة، تمّ إغلاق هذا البار، وبذلك فقدنا أسرار الخلطات العجيبة، التي كانت تصنع بها أفضل أنواع الكوكتيل، من المشروبات الكحولية وعصائر الفاكهة. لماذا لم يفكّر أحد من أصدقائها العديدين من بين الكتاب والصحفيين، في وضع معارفها تلك في كتاب؟ لماذا لم أفكّر أنا مثلًا في هذا في حينه؟ أشعر ببعض الندم!

t.me/qurssan

مذكّرات مولع بالكتب

(١)

قد يكون حبّي للكتب قد جاءني من أحد أسلافي القدماء، هو توماس بلاتر، المولود سنة ١٤٩٩ والمتوفّي سنة ١٥٨٢ في بال بسويسرا، الذي بدأ حياته راعيًا للأغنام حتى بلغ سنّ الرابعة عشرة، ثم غادر مناطق المراعي الجبلية ليذهب إلى المدينة بغرض التعلّم، وقد ظلّ سنوات عديدة يتعلّم في مدارس مختلفة المشارب في ألمانيا، متنقّلًا بين مدن فرانكفورت وميونيخ وهايدل برج، ثم غادر ألمانيا للذهاب إلى المجر، وإلى بولندا.

في وقت فراغه من التعلّم كان يمارس مهنة صناعة الحبال، ثم أصبح لاحقًا يحصل على قوت يومه من تدريس اللغة العبرية القديمة إلى هواة تعلّم اللغات القديمة، ثم بفضل قوّته الجسمانية عمل منذ سنة ١٥٢٠ كحارس شخصي للمصلح البروتستانتي السويسري زوينجلي **Zwingli**، أثناء تنقّلاته بين المدن، وهو المصلح الذي كان قد بدأ حياته كاهنًا في زيوريخ، ثم انضمّ إلى حركة الإصلاح اللوثرية، وفي تلك المرحلة تقابل توماس بلاتر مع العلاّمة الهولندي إرازموس **Erasmus**،

عند زيارته لمدينة روتردام في ألمانيا.

بعد ذلك انتقل توماس بلاتر إلى العمل كمصحح حروف ومراجع نصوص في مطابع الكتب، ثم أصبحت له دار لطباعة الكتب ونشرها خاصة به، وبسبب اهتمامه بحركة الإصلاح الديني، التي اجتاحت ألمانيا في تلك السنوات، فقد كان هو الذي قام سنة ١٥٣٦، بطباعة العمل الأول للمصلح (جون كالفين)، الذي كان عنوانه (مؤسّسات تدريس الديانة المسيحية).

ثم إلى جانب اهتمامه بالمطبعة، عمل في مهنة التدريس في المدارس التربويّة، التي كانت تقوم بتخريج العاملين في مهنة التدريس، وحملت اسم جيمنازيوم **Gymnasium**، ومعناها قاعات التربية الرياضية، لأنها كانت في ذلك العصر قد قامت على غرار مدارس أثينا في زمن ما قبل ميلاد المسيح على الاهتمام ببناء الأجسام، إلا إنها كانت تجمع بين التربية الذهنية والتربية الجسمانية.

أصبح قرب نهاية حياته المشرف العام على هذه المدارس في ألمانيا، وبعد موته خلفه ابنه الطبيب فيليكس بلاتر في الإشراف على هذه المدارس. أما الإرث الذي تركه خلفه لأولاده، فهو كتاب في السيرة الذاتية، يعتبر من أفضل كتب الأدب الألماني في هذا النوع الأدبي، كما أنه قد ترك لورثته ثروة مادية ضخمة، تتمثّل في امتلاكه أحد القصور الثلاثة المعروفة في بازل بسويسرا إجمالًا باسم جوندل دينجن **Gundeldingen**.

t.me/qurssan

(٢)

تنوّعت قراءاتي في كل فروع المعرفة بنهم شديد، حتى أنني كنت حرفيًّا ألتهم الكتب، كأنني ألتهم أطباقًا من الطعام الشهي، وقد حدث لي مرّات عديدة، أن أحسست بالاختناق من كثرة المعلومات، كما يحدث للبعض أحيانًا أن يختنقوا بسبب توقّف الطعام في حلوقهم. ثم اكتشفت مبكّرًا أن سعادتي الكبرى كانت في قراءة كتب علوم الرياضيّات، التي تتمثّل في ذهني في صورة البحر الذي أعبّ منه دون أن أرتوي. لم أعرف في حياتي إلا القليل من الرجال، الذين كان لديهم نفس الولع بالرياضيّات.

قد يكون هذا الولع قد جاءني هو الآخر من أحد أسلافي وهو عالم الرياضيّات ليونارد أولر، الذي كان أحد أعمام جدّي، وكان قد عمل في بلاط الملكة كاترين الثانية، كمدرّس رياضيّات لأطفال الأسرة الملكية، ثم وضع قرب نهاية حياته كتابًا عن الأرقام، يعتبر أحد أفضل الكتب في المنطق الرياضي، ولأنه كان قد أصبح في شيخوخته شبه أعمى، فقد قام بإملاء هذا الكتاب على أحد أحفاده، الذي لم يكن قد تجاوز بعد الثانية عشرة من العمر.

قد تكون حقيقة تدريسه للأطفال، أو حقيقة أن الشخص الذي أملى عليه الكتاب كان طفلًا، هما السبب في أن الكتاب مكتوب بلغة سهلة جدًّا، يمكن لأي شخص غير متخصّص في الرياضيّات أن يفهمه بسهولة،

وأن يقرأه وهو ممدّد في استرخاء على فراشه، كما لو أنه كان يقرأ رواية بوليسية مثيرة للاهتمام. هذا الكتاب يثبت كذلك أنه رغم فقد المؤلّف لبصره، إلا أنه لم يكن قد فقد بعد بصيرته. وقد قسّم هذا الكتاب إلى أربعة فصول تحمل العناوين التالية: ١- الجمع ٢- الطرح ٣- الضرب ٤- القسمة. وهي الأحوال الأربعة الرئيسة التي تتعرّض لها الأرقام.

وقد مارس أبي لبعض الوقت مهنة تدريس الرياضيّات في المدارس الثانوية، حتى دخل مجال الاختراعات العلمية فترك التدريس، ثم دخل مجال رجال الأعمال، في محاولة منه لتسويق اختراعاته العلمية، وبدأ سلسلة من الرحلات التي بدت بلا نهاية، فهو بمجرّد عودته من إحدى رحلاته، يبدأ في إعداد نفسه للرحلة الجديدة، كما لو أنه قد أصيب بالوسواس القهري. لبعض الوقت اعتقدت أن كل هذا السعي كان دافعه الأساسي هو كسب المال، وقد بدا كما لو أنه قد أصابته حمّى جمع المال، إلا أن الحقيقة هي أنه كان مغرمًا بالتغيير، وبعدم الاستقرار في مكان واحد، ولا في مجال عمل واحد.

في أحد أسفار التوراة، وهو سفر الجامعة لنبيّ الله سليمان الحكيم، ينتهي السفر في إصحاحه الثاني عشر بهذه العبارة الغريبة الدالة التي تقول: «أقوال الحكماء راسخة في العقول كالمسامير المثبّتة، ولا نهاية لتأليف المزيد من الكتب».

وأنا أقول لكم إن الكتب هي نوع من السحر، يمارسه علينا نوع من السحرة هم المؤلّفون، خاصة منذ وفرة النسخ في أيدي القرّاء، أي منذ اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر، عندما أصبح في مقدور أقل

t.me/qurssan

الناس ثراءً شراء كل ما يروق لهم من الكتب.

وأنا أقول لكم ليس هناك كتاب واحد، لا يشعّ منه ولو شعاع ضوء واحد، مهما كان هذا الكتاب في مجموعه سيّئًا.

وأنا أقول لكم إن كمّيّات الكتب التي تمر عبر دكاكين الورّاقين والكتبجية، المتزاحمة على أرصفة المشاة في باريس، بامتداد طول مجرى نهر السين، تزيد على كمّيّات المياه الجارية أسفل الكباري عبر نهر السين.

(٣)

حتى سنّ العشرين لم أكن قارئًا نهمًا، لكن بدأ حبّي للقراءة والبحث والاطلاع في كل فروع المعرفة عند بداية عملي في البحرية التجارية، وبسبب عملي في البحرية التجارية. أعتقد أنه ينبغي لي أن أشرح لكم كيف تمّ ذلك. أولًا أنا لا أعرف لماذا يذكّرني هذا الكلام بالشاعر الفرنسي أرثور رامبو **Rimbaud**، المولود ١٨٥٤ والمتوفّى ١٨٩١، الذي أنتج كل تراثه الأدبي من شعر ونثر قبل أن يصل إلى سن العشرين، ثم توقّفت القريحة تمامًا عن الإنتاج، حتى وفاته في سن السابعة والثلاثين. من الجائز أن السبب هو أننا -أي أنا وهو- نشترك في نفس النقطة المحورية حول سن العشرين، هو لكي يتوقّف عن الإنتاج، وأنا لكي أبدأ الإنتاج.

كان البحّارة البرتغاليون الذين أبحروا غربًا في محاولة اكتشاف العالم الجديد، منذ بداية القرن الخامس عشر، يحتفظون بسجلّات يومية لملابسات رحلاتهم. لم أكن أعرف البرتغالية، لكني تعلّمتها فقط حتى

أتمكن من قراءة هذه السجلاّت، مع ما في هذه اللغة من مشقّة، لاختلافها عن فرع اللغات الذي تنتمي إليه الإيطالية والفرنسية، وهما اللغتان اللتان أتقنهما تمامًا. إلا أن البرتغالية هي كذلك لغة أهل البرازيل، وهي الدولة الوحيدة في أمريكا الجنوبية التي تتكلم هذه اللغة، وهو ما أفادني جدًّا في فترة لاحقة من عمري عندما عشت سنوات في البرازيل، وعملت في مجال الاستيراد والتصدير، بين القارتين الأوروبية والأمريكة. أيها القارئ حاول أن تستمر في تعلّم أشياء جديدة كل يوم، مهما تقدّم بك العمر، فأنت لا تعرف أبدًا متى ستستفيد من هذا العلم.

كان كتّاب السفن العاملين على سفن أسطول مملكة البرتغال، على درجة عالية جدًّا من الثقافة والعلم، وحب الاستطلاع المحبّب، وروح التساؤل الجميل، التي تسبق عادة الاكتشافات الكبيرة، بدليل الكرّاسات الجميلة التي تركوها. لم أعرف أبدًا ما هي المدرسة الجميلة التي كان يتخرّج منها كتبة السفن هؤلاء بهذا القدر من الجمال. كانوا يضعون على رأس كل صفحة في بداية كل يوم جديد، عبارة (اليوم سنكتشف العالم الجديد) أو عبارة (اليوم سنضع أقدامنا على أرض العالم الجديد)، في كل صفحة من صفحات هذه الكرّاسات القديمة، التي أمكنني الاطّلاع على بعضها، في سجلات أرشيف بعض شركات السفر بالسفن.

كان كتّاب السفن في هذه الكرّاسات اليومية، يصفون كل شيء تقريبًا، فهم لم يكونوا يستنكفون من ذكر أيّ تفاصيل مهما بدت تافهةً وبلا معنى، مثل لون المياه الذي يتغيّر وفقًا لدرجات العمق، ومثل أصناف الطيور التي تظهر عند الاقتراب من جزر البحر الكاريبي، الطيور

التي كان بعضها مجهولًا لهم، ومثل أشكال وألوان النباتات، التي تحملها إليهم التيّارات البحرية القادمة من غرب الكاريبي. وعندما كانوا يسجّلون مشاهدة جذوع أشجار طافية فوق الماء، كانوا يبحثون فيها عن يد الإنسان، الذي يجوز أنه من قام بقطعها، وبأي آلة فعل ذلك، وهل كان هذا القطع والتشذيب لغرض صناعة قوارب، أم لغرض استعمالها كدعامات للمنازل.

(٤)

ليس هناك فقط المعلومات العلمية الجافة، التي تزخر بالمصطلحات العلمية من نوع قوائم أسماء النباتات والطيور باللغة اللاتينية **nomenclature**، والقوائم المملوءة بالأرقام المركبّة عن سرعات واتجاهات السفينة، وحالة البحر والرياح، بل هناك كذلك الكثير من الفقرات السردية، كأن يذكر كاتب السفينة في واحدة من يوميّاته أنهم قد غيّروا من سرعة سفينتهم، ثم كذلك من وجهتها، لمحاولة الذهاب خلف الطيور التي تحوم حولهم، ثم تعود من حيث أتت، أي تعود إلى الأرض التي أتت منها، لعل وعسى أن تقودهم هذه الطيور إلى الأرض الجديدة، تلك الأرض التي لم يكونوا قد رأوها بعد، لكنها أرسلت إليهم هذه الطيور، وأرسلت اليهم كذلك، عبر هذه التيّارات البحرية القوية، بعض الروائح التي بدت لهم جديدة، فهذه التيّارات كانت قادرة على أن تحمل إليهم رائحة فواكه الأشجار الاستوائية، بالإضافة إلى روائح أشجار وشجيرات توابل الشرق المختلفة.

إن المبدأ الذي ساد عالم رجال البحار وقادة السفن، بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، هو أنه يمكن الذهاب إلى الشرق، أي إلى الهند والصين، بالاتجاه غربًا، أي بعبور المحيط الأطلنطي، الذي كان يعرف في الآداب القديمة باسم بحر الظلمات. كانت فكرة كروية الأرض قد بدأت بالفعل تتضح لديهم. لذلك فإن أغلب السفن المتجهة غربًا عبر المحيط الأطلسي، حتى على الأقل منتصف القرن السادس عشر، كانت تعتقد أن الأرض التي ستصل إليها هي إما أن تكون الصين (بوحي من رحلة ماركوبولو البريّة سنة ١٣٤٠)، أو أن تكون الهند (بوحي من رحلة ماجلان البحرية سنة ١٥٠٠).

لم يكن أحد يعرف بعد أن هناك في هذه الناحية من العالم توجد قارتان كبيرتان، من بينهما قارة كبيرة ستصبح يومًا ما دولة عملاقة، وأنها ستحمل اسم أحد المستكشفين أميريكو فسبوتشي، الأسعد حظًا من غيره من المستكشفين، لأن اسمه سيخلّده التاريخ والجغرافيا. ولا كان أحد يعرف أن خلف هاتين القارتين الجديدتين، هناك محيط هادئ هائل الحجم والمساحة، يشغل وحده تقريبًا نصف مساحة الكرة الأرضية، وأن هذا المحيط هو الذي يفصلهم عن الهند والصين.

بالإضافة إلى كل هذه المعلومات القيّمة، المصحوبة برسومات دقيقة للطيور والنباتات بألوانها الطبيعية، كانت هناك فقرات فلسفية تأملية، تجعل القارئ لهذه السجلاّت هو الآخر يطرح بعض الأسئلة، التي يطرحها في الأصل كتّاب السفن ثم يتركونها بلا إجابات، ففي رحلات العودة من الأرض الجديدة، يذكر أحد كتبة السفن،

t.me/qurssan

كيف أن سكّان جزر البحر الكاريبي عاشوا في عزلة تامة عن العالم الحديث،

حتى أنهم كانوا يعتقدون أنهم يعيشون وحدهم على هذه الأرض،

ولم تصلهم أي أخبار عن العلم،

الذي كان قد وصل إليه سكّان هذا العالم الحديث.

لم تصل إلى سكان الجزر أي أخبار.

ثم يذهب كاتب السفينة خطوة أخرى في طريق تأمّلاته،

فيتعجّب قائلًا: «هم لم يسمعوا مثلًا حتى سنة ١٥٠٠ أي شيء عن اليهودية والمسيحية والإسلام،

بل إنهم لم يسمعوا حتى عن الله نفسه»،

ثم يضع علامات تعجّب كثيرة !!!!!!!!!!!

ثم يعود إلى التساؤل: «ما هذا الشيء العجيب الملغز،

لماذا إذن تركهم الله دون أي نبي من أنبيائه العديدين،

الذين أرسل بعضهم بالمئات مثلًا إلى بني إسرائيل؟

لماذا عاشوا طوال هذه الآلاف من السنين دون أنبياء،

الأنبياء الذين يقدّر عددهم بالمئات،

في تاريخ الشعب اليهودي وحده،

الذين يملؤون مئات الصفحات من كتب أسفار التوراة؟

أليس بشر هذه القبائل البدائية هم أيضًا من مخلوقات الله؟».

بعد سطر واحد يصل كاتب السفينة إلى هذه النتيجة الخطيرة، وهي:

«إذنْ فإن الله والديانات والأنبياء كلها اختراعات بشرية»!

(٥)

أنا لا قيمة لي على الإطلاق، كما يبدو لي الآن، إذ إن كل الكتب التي ألّفتها وطبعتها ونشرتها هي الأخرى لا قيمة لها على الإطلاق. يبدو لي الآن أن كل كتاب ألّفه البشر ما هو إلا إعادة استنساخ للكتاب الأصلي الذي كتبه أفلاطون بعنوان (النفس البشرية) وباليونانية (بيسخة) PSYCHIA، وهي الكلمة التي استعملت لاحقًا لتكون اسمًا للعِلم الذي يدرس أسلوب تشخيص وعلاج الأمراض النفسية والعقلية Psychiatry.

في هذا الكتاب كان أفلاطون قد قال:

«إن هذا اللقاء المباغت بين كل إنسان وبين الكائن المخنّث الموجود كامنًا في داخل كل إنسان»،

هذا الكائن المخنّث هو من يسمّونه الهرما أفروديات Hermaphrodite، وهي الكلمة التي تنقسم إلى كلمتين، انتسابًا إلى هرمس الذكر وأفروديات الأنثى، «هذا اللقاء هو الذي يعطي كل إنسان يقرأ الإحساس بالامتلاء، أو بالاكتفاء الذاتي، فهو في نفس الوقت ذكر وأنثى، فأنت أثناء قراءتك لأي رواية تتمثّل كل الأدوار الرجالية والنسائية، تعيش كل الأدوار بنفسك، تتوحّد مع كل الكائنات، لأنك في داخلك تجد كل الكائنات».

t.me/qurssan

وأنا أضيف إلى ما يقول أفلاطون: إن هذا هو ما يعطي السحر الخفي للقراءة. بل في الحقيقة إن هذا هو ما يعطي السحر الخفي للكتابة والتأليف.

ذات يوم اصطحبت فيليسيتيه **Felicite** إلى زيارة حدائق النباتات في باريس، على ضفاف نهر السين، إلى جوار متحف التاريخ الطبيعي، حيث يعرض الهيكل العظمي للديناصور، مع هياكل عظمية لأغلب أنواع وأجناس الكائنات الحيّة، مما يسهّل عملية دراسة علوم التشريح المقارن **comparative anatomy**، المرتبطة دراستها بعلوم الداروينية **Darwinism** ، أي بنظرية التطوّر وأصل الإنسان، وبشكل عام مرتبطة بعلوم الحياة القديمة، المعروفة باسم الباليونتولوجي **Paleontology**.

على ما يبدو، لم تكن فيليسيتيه قد حصلت على الحد الأدنى من الثقافة العامة، وإن كانت تعرف القراءة والكتابة. لا أعرف في أي توقيت زمني ستبدأ فرنسا في أن تفرض على كل الآباء تعليم الإناث إجباريًّا، على الأقل حتى الحصول على شهادة **le Brevet**، وهي شهادة إنهاء التعليم العام، ثلاث سنوات قبل البكالوريا. هذا هو الحدّ الأدنى.

أما في الحدائق فقد كانت هناك نباتات من كل المناطق المناخية المختلفة في العالم من الاستوائية إلى القطبية، مع ضرورة توفير الحد الأقصى المتاح للظروف المعيشية الملائمة، حتى تحيا النباتات لأطول فترة ممكنة، لتظل مادة دراسية ممتعة لطلبة أقسام علم النبات في كليات العلوم، ولتظلّ متعة لكل الزائرين بصرف النظر عن تخصّصاتهم ومستواهم العلمي.

في أحد المآوي الزجاجية شاهدنا السلاحف النوبية العملاقة وهي تتكاثر، وقد كان من الممكن ملاحظة الابتسامة على وجه الأنثى ولا أعرف كيف حدث هذا، وشاهدنا إحدى الإناث وهي تضع بيضها، حيث كنت مشغولًا بأن أشرح لفيليسيتيه كيف يتمّ التكاثر في الزواحف التي تبيض، فما كان منها إلا أن قالت: «ليس هناك أتعس من نساء الجنس البشري، انظر كيف تستمتع السلحفاة بالعملية الجنسية، بل انظر كيف تضع بيضها بمنتهى السهولة ودون أن يبدو عليها أي أثر لأي معاناة، يا عيني علينا نحن نساء الجنس البشري، فنحن نعاني في عملية الوضع أيما معاناة!». هذا هو ما أسمّيه حسّ فطري سليم، وإدراك واعٍ، فهي قد توحّدت مع السلحفاة، رغم أنها امرأة غير متعلّمة وغير مثقّفة.

(٦)

كانت فيليسيتيه ذكيّةً ذكاءً فطريًّا، وكانت عيناها قادرتين على قياس قيمة الرجال وحقيقة معادنهم، وبالتالي على الفور إدراك نواقصهم، لذلك لم يتمكن رجل واحد من خداعها. أعتقد أن هذه هي موهبة فطرية، حصلت عليها من أحد والديها، اللذين لم أقابلهما. في بداية حياتها العملية، بدأت بالعمل في أحد معامل تقطير الخمور في المدينة الساحلية دنكرك التي أقامت فيها مع والديها، وهي تقع على سواحل فرنسا الشمالية، ولأنها كانت مؤمنة بالجنّة والنار، كانت تقول إن عملها في هذا المجال لن يقودها إلى الجنّة. ثم تركت مدينة والديها وذهبت لتقيم وحدها ولتعمل في نفس المجال، في مدينة كاليه الأكبر حجمًا،

t.me/qurssan

الواقعة هي كذلك على سواحل شمال فرنسا، وذلك قبل أن تقرّر الانتقال إلى باريس.

عندما قابلتها لأول مرة كانت قد بدأت في العمل كبائعة للخمور في أحد البارات الباريسية، ولاحظت على الفور -وأنا هناك- أن الكثير من الرجال يحومون حولها طوال ساعات النهار، كلٌّ في دوره. كانوا يغنّون لها مع الأغنيات القادمة من مذياع البار، كل الأغنيات التي تدور حول العشق والغرام، ثم يدعونها إلى الرقص على إيقاعات هذه الأغنيات، حيث ساحة صغيرة للرقص في منتصف مساحة البار، وفي تلك الحالة يهيص الرجال الباقون ويرقصون كلهم حولها، محدثين أكبر ضجّة يمكن لمجموعة من الشياطين إحداثها. أمّا أنا فكنت عادة أكتفي بدق كعب زجاجة الخمر أمامي على المائدة، بما يتوافق مع إيقاع الأغنية.

كان الشاعر شارل بودلير **Baudelaire** قد قال قبيل موته إنه يريد أن يكتب نصًّا سرديًّا بعنوان (قلبي عاريًا)، يحكي فيه عن كل ذكرياته الغرامية، بصراحة تامة ودون إخفاء أيّ تفاصيل، ثم مات في سن السادسة والأربعين، قبل أن يحقّق هذه الأمنية. وأنا الآن أقول لنفسي يجب أن أكتب في السنوات المتبقّية لي من عمري كل ما يدور في عقلي وقلبي، قبل أن تنطفئ جذوتي أنا الآخر إلى الأبد.

قد تكون لا تزال أمامي عشر سنوات، ستتغير فيها أحوال العالم، وأنا أريد أن أكون شاهدًا على هذه التغيّرات، قادرًا على التعبير عنها.

عندما يأتي اليوم، وتأتي الساعة، أريد أن أذهب وحدي إلى مكان لا يعرفني فيه أحد، وأضع بمعرفتي نهاية لحياتي، بأن ألقي بنفسي في

لجّة عميقة، وحول عنقي حبل متصل بحجر ثقيل، غير نادمٍ على العالم، والعالم غير نادمٍ عليّ.

(٧)

في أثناء الاحتلال النازي لباريس، اقترح بعض الجنرالات الألمان حرق متحف اللوفر، بكل محتوياته من فنون العالم وحضاراته، وهي باختصار كانت ستصبح أكبر خسارة في تاريخ البشرية على الإطلاق، لكن حمدًا لله ظهر من بين الألمان بعض القادة الذين تخلّوا عن هذه الفكرة. من الغريب أن بعض الفنّانين الفرنسيين كانوا قد وافقوا على هذه الفكرة، والسبب ببساطة هو أنهم لم يكونوا فنانين حقيقيين بل كانوا مدّعي فنّ، من بين من أطلقوا على أنفسهم زورًا وبهتانًا اسم رسامين تجريديين وسيرياليين. كان محو ماضي الفنون وإنكار تاريخها هو سبيلهم الوحيد إلى البقاء، حتى لا تعرف الأجيال القادمة أي شيء عن تاريخ الفن، وبالتالي لا يتمكن أحد من مقارنة أعمالهم التافهة بالأعمال الخالدة للفنّانين الأقدم.

وقد سبق للبشر معرفة جنون حرق تراث الحضارة، مثلما فعل نيرون في روما، ومثلما فعل أساتذة جامعة عريقة مثل أوكسفورد سنة ١٩١٠، عندما ذهبوا إلى فناء الجامعة وأحرقوا نسخ كتاب (طبيعة الحب **the nature of love**)، بسبب ما كتبه فيه مؤلّفه، واعتبره الآخرون جرأة بالغة أو بالأحرى وقاحة. ومثلما سيفعل النازي في مكتبات الفكر الفلسفي، وفي متاحف الفنون الحديثة في ألمانيا الثلاثينات. قد يكون

t.me/qurssan

القرن العشرين الذي لا نزال لم نبلغ بعد منتصفه، هو الشاهد على أكبر عمليات تدمير لتراث البشرية، خاصة بعد هذا الاختراع المروّع المسمّى القنبلة الذرية.

إن الحضارة الإنسانية أصبحت الآن شديدة الهشاشة، وقابلة للزوال السريع. كل هذا الإرث الحضاري المتراكم منذ آلاف السنين، المتمثّل في الآثار المعمارية للحضارات القديمة، وفي ملايين الوثائق التي تركها لنا الأسلاف على الأحجار وعلى الأوراق. كل هذا قابل للزوال في لحظة واحدة، لو دخل قادة العالم في حرب نووية، بل...

تكفي لحظة جنون واحدة لشخص واحد مثل روزفلت،

وضغطة واحدة على زرار واحد.

كان المؤرّخ اللاتيني بلوتراك قد قال قبل ٢٠ قرنًا:

«إن تدمير العالم سيكون نتيجة لسيطرة رجال الحرب على البشر،

لأنهم تكون عقولهم عادة في أحذيتهم العسكرية».

إن إحراق الكتب هو نتيجة لعدم تقبّل الاختلاف في الرأي، خاصة فيما يتعلّق بالآراء السياسية والدينية.

إن أقدم الأحداث المسجّلة من هذا النوع، هو حادث احتراق مكتبة الإسكندرية حوالي ٤٠ ق م، على يد جنود رومان في جيش يوليوس قيصر، أو على يد جنود رومان آخرين في جيش أوكتافيوس قيصر، فالوقائع غير واضحة المعالم. كانوا حتمًا يشعرون بالحقد على حضارة المصريين التي كانت أكثر تقدّمًا من حضارتهم. ثم كانت هناك كذلك

مكتبة بغداد، التي حرقها جنود المغول عندما اجتاحوا المدينة سنة ١٢٥٨، إذ كانوا هم أيضًا يشعرون بالحقد على حضارة العبّاسيين. لا أستطيع أبدًا أن أنسى منظر حطام المدن القديمة في بلاد ما بين النهرين، حيث يتعثّر الزائر في قوالب حجرية عليها نقوش بلغات لم تكتشف شفرتها بعد.

(٨)

كان ريمي دوجورمنت ينوي أن يقوم بعمل قوائم بأسماء الكتب النادرة، التي تمكن من العثور عليها عند باعة الكتب القديمة، في أكشاك الكتب على أرصفة نهر السين، دون أن يكون هؤلاء الباعة على دراية بقيمتها الحقيقية. للأسف لم يُعثَر في أوراقه بعد وفاته على مثل هذه القوائم، إذ يبدو أنه قام بتأجيل العمل في صياغة مثل هذه القوائم، حتى وافته المنيّة في لحظة لم يتوقّعها. فيما بعد في حياتي كنت أذهب إلى المكان الذي التقيت معه فيه لأول مرّة، عند نفس الشرفة نصف الدائرية المطلّة على النهر، كما لو كنت ذاهبًا إلى الحج في مكان مقدّس. كنت بعد التسكّع وتصفّح وشراء بعض الكتب، أذهب عادة لاحتساء بعض أقداح الجعة، في البار الذي تعمل به فيليسيتيه، المواجه لرصيف نهر السين، الذي يحمل اسم (ملتقى البحّارة).

هناك كنت أقابل الشاعر ريفيردي **Reverdy**، الذي كان قد بدأ في إصدار مجلّة غير منتظمة الصدور، أطلق عليها اسم (شمال جنوب **Nord Sud**) وبدأ ينشر فيها كل ما لا يخطر على البال، من أشعار

t.me/qurssan

شعراء مجهولين تمامًا، كان أغلبهم قادمًا من بلاد أجنبية، غالبًا إما أوروبا الشرقية، أو إفريقيا الفرنكوفونية، أو بلاد شمال إفريقيا الناطقة بالعربية، بعضهم كان دون أوراق رسمية، وكانوا دائمي التنقّل معه بين الحانات والمطاعم وعلب الليل، يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم، لأنه هو الذي كان يتولّى مسألة دفع كل التكاليف. كانت هذه المسألة محيّرة لي إلى حدٍّ ما.

كانت الاتجاهات الغالبة على أشعار هذه المجموعة هي الدادية والسيريالية، وهي الاتجاهات التي ظهرت وازدهرت في العشرينات، واستمرت بدرجة أقل خلال عقدين من الزمان. كانوا يعتقدون كلهم أنهم أهم شعراء العالم، رغم أنهم كانوا مجهولين تمامًا من العامة والخاصة.

عندما كان ريفيردي في الخامسة والعشرين، كان شابًّا جميلًا يتمتّع بقدر كبير من الوسامة، أقرب إلى صورة فيكتور هيجو في نفس السنّ، أما في الخامسة والأربعين فقد أصبح قبيح المنظر بشكل غريب، أقرب في الشبه إلى سانت بيف Sainte Beuve، بنفس الجسم الممتلئ المنفّر غير المتناسق، ولم أعرف أبدًا ما هو السبب في هذا الانهيار الجسماني السريع الذي أصابه. هل هو إدمان المشروبات الكحولية؟ هل هو أحد الأمراض الخطيرة المزمنة؟ هل هو شيء آخر؟

كنت أعتقد أن ريفيردي سيكون أول شعراء جيلي الذين سيتمّ ترشيحهم للانضمام إلى الأكاديمية الفرنسية للعلوم والآداب، أو إلى مجمّع الخالدين، حتى قبل الشاعر جون كوكتو، ففي كل مرة كان يتمّ ترشيح أعضاء جدد في الأكاديمية، من بين العديد من المرشّحين كان

ريفيردي يحصل على قدر أكبر من الأصوات عن كوكتو، إلا أن ما حدث في النهاية هو أن كوكتو هو الذي حصل على العضوية، فيما اعتبرته علامة على انعدام عدالة الحصول على فرص متكافئة. في الواقع كانت موهبة ريفيردي الشِّعرية أكبر، لكن كان ذكاء كوكتو الاجتماعي هو السرّ.

(٩)

اللقب الّذي كان شادنا **Chadenat** معروفًا به هو لقب (ملك المكتبات)، وكان هو صاحب المكتبة الملاصقة لبار فيليسيتيه، لذلك كنت كلما ذهبت إلى الحانة مرّرت أولًا بالمكتبة. كان شادنا قادرًا على التركيز التام في ما بين يديه من كتب، بصرف النظر عن حجم الضوضاء المحيطة به، ضوضاء زبائن المكتبة الذين يتسكّعون طويلًا قبل الشراء، وضوضاء الشارع الذي تمرّ به سيّارات كثيرة. كان كذلك مشهورًا بسرعة القراءة. ثم عرفتُ عنه شيئًا نادرًا في أصحاب المكتبات، وهو أنه لا يبيع أي كتاب إلا إذا كان قد انتهى أولًا من قراءته.

مع مرور السنوات تخصّص شادنا في بيع الكتب النادرة من الطبعات القديمة، التي لم يعد من الممكن العثور عليها في الأسواق، بل لدى الورثة من أبناء وأحفاد كبار العلماء والكتّاب والمؤلّفين. كان شادنا أقرب شبهًا بالشخصيّات البلزاكية، التي تقضي ليلها ونهارها في القراءة، محاطة في كل مكان تذهب إليه بآلاف الكتب، على غرار شخصيات هذا الروائي العظيم أونوريه دو بلزاك **Balzac**.

في يوم ١٣ نوفمبر ١٩٤٧، قرأت في جريدة الفيجارو اليومية هذا

t.me/qurssan

الإعلان عن (مزاد لبيع الكتب النادرة)، في بهو فندق درووه **Drouot** في باريس، وهو الإعلان الذي يقول:

هذه هي الجلسة الرابعة التي يتمّ فيها البيع بالمزاد العلني، للمجموعة الكاملة للكتب النادرة، من الطبعات القديمة، التي كانت ضمن مقتنيات مكتبة شادنا (ملك المكتبات). وكمؤشّر على نوعية الكتب المباعة ومستويات أسعار بيعها، لديكم هنا قائمة مختصرة ببعض الكتب، التي كان قد تمّ بيعها خلال الجلسة الثالثة في الأسبوع الماضي، والمشار إلى سعر بيعها في حالة كل كتاب:

١- كتاب (رحلة استكشافات فرناندو كورتيز) طبعة سنة ١٥٥٠، وثمن البيع هو ٣٧ ألف فرنك فرنسي.

٢- كتاب (وصف أشهر مدن أوروبا في القرن السادس عشر) للمؤلف جيّوم جيرو، وثمن البيع هو ٣٠ ألف فرنك فرنسي.

٣- كتاب (رحلات كولومبوس وماجلان) طبعة ١٥٥١، للمؤلف يوهانس شونر، وبه صفحات ملوّنة، وثمن البيع هو ٦٨ ألف فرنك فرنسي.

٤- كتاب يحمل عنوان (تاريخ نبيّ الإسلام)، وهو مخطوط يدوي، من بداية القرن الثالث عشر، مكتوب باللغة الفارسية، ومزيّن الحواف بالنقوش والزخارف الملوّنة، وثمن البيع هو ٥١ ألف فرنك فرنسي.

٥- كتاب (الدفاع عن حقوق هنود أمريكا)، الطبعة الأصلية سنة ١٥٥٢، في مطابع إشبيلية باسبانيا، وثمن البيع هو ٦٨ ألف فرنك فرنسي.

انتهى الإعلان.

هكذا فقط علمت بموت شادنا، الذي لم أكن قد رأيته أو سمعت عنه، منذ بداية الاحتلال النازي لباريس في صيف ١٩٤٠ . عرفت أنه مات سنة ١٩٤٣ ، ولم أعلم بذلك في حينه، لأني كنت أقيم في آكس أون بروفانس بجنوب فرنسا، وكانت الجرائد الباريسية ممنوعة من الوصول إلينا. ولم تكن صحف الجنوب في المنطقة المدعوّة حرّة، بواسطة حكومة فيشي المتواطئة، تنشر من الأخبار الباريسية إلا كل ما هو سطحي وتافه، حتى لا تغضب جنرالات الحرب الألمان الرقباء على الصحف.

t.me/qurssan

فرنسا تحت الاحتلال

(١)

كنت خلال السنوات الأربع للاحتلال النازي لشمال فرنسا، بين ١٩٤٠ و١٩٤٤، أقيم أغلب الوقت في المنطقة الحرّة بجنوب فرنسا، بالتحديد في آكس أون بروفانس في أقصى جنوب فرنسا، على بعد ٣٠ كيلو متر إلى الشمال من مارسيليا، حيث كنت أتناول وجبة الغذاء كل يوم في مطعم (الأوبرا)، وكنت قد عقدت أواصر الصداقة مع صاحب المطعم ومديره، الذي كان يستقبلني على مائدته الخاصة في مطبخ المطعم، ليسألني كل يوم نفس السؤال: «ماذا سيفعل أصدقاؤنا الإنجليز مع أعدائنا الألمان؟». كنت أتناول هناك أطباقًا شهيةً، رغم الحصار الاقتصادي والأزمة المالية، والحالة المتدهورة المتفاقمة يومًا بعد يوم التي كنا نعيش فيها.

كان فيليسيان صاحب المطعم، قبل بداية الحرب العالمية الثانية، يعمل طبّاخًا خصوصيًّا لجوستاف الخامس ملك السويد، الذي كان يقيم في مونتون **Menton** بجنوب فرنسا، بعد أن كانت الظروف قد اضطرته إلى مغادرة بلده واللجوء إلى فرنسا. كان لقاؤهما الأول قد تمّ في فندق

إرميتاج بباريس، المكان الذي اختاره الملك لإقامته المؤقّتة، قبل أن يتفقا على أن يصبح فيليسيان طبّاخه الخصوصي، ويحضرا سويًّا إلى الجنوب حيث اختار الملك مكان إقامته الدائمة.

ذات يوم قال لي فيليسيان: «لقد جاء شاب فرنسي هذا الصباح، لتناول وجبة الإفطار، وطلب حجز مكان لوجبة الغداء، وقد تبادلت معه أطراف الحديث وفهمت منه أنه قادم للتو من ألمانيا، قد يكون هاربًا من هناك، أو خارجًا للتو من السجن، وجاء إلى هنا ليقضي فترة نقاهة، هذا هو ما أوحى إليّ به مظهره العام، وقد يكون من الواجب أن تقابله وتتحدّث إليه لتسبر أغواره، فيبوح بما لديه».

كنا في أوائل سنة ١٩٤٤، وقد بدت بوادر تدلّ على قرب نهاية الحرب، إذ كان الألمان يتراجعون على كل الجبهات، ويخسرون معاركهم واحدة بعد أخرى، وقد بدأت بالفعل عمليات غزو الحلفاء من الإنجليز والأمريكان والروس، للحدود الألمانية نفسها، على جبهات عديدة في شرقها وفي غربها. أكمل فيليسيان: «لقد قال الغريب إن القنابل التي سقطت على هامبورج خلال الشهر الأخير قتلت مئتي ألف من سكّانها»، قلت: «إنه يبالغ جدًّا في هذا الرقم».

قال: «أخذته القوّات الألمانية أسيرًا في ألمانيا منذ ١٩٤٠، حيث عمل في نفس المهنة التي كان يمارسها في فرنسا قبل الحرب، وهي مهنة سائق قطارات، وهكذا عمل في هيئة السكك الحديدية الألمانية، وكان معتادًا على العمل في الخط الذي يبدأ وينتهي عند هامبورج، ذهابًا وإيابًا بينها وبين المدن المحيطة بها، وفي آخر مرة عاد بالقطار إلى هامبورج،

t.me/qurssan

لم يتمكن من الدخول إلى المحطّة بسبب الدمار الشامل الذي حلّ بها، وتسبّبت فيه القنابل التي تقذفها على المدينة كل يوم الطائرات الإنجليزية والأمريكية، وكانت النيران تشتعل في جميع أنحاء المدينة، وقد تحطّم الميناء تمامًا بحيث لم يعد قادرًا على استقبال أي سفن، وقد استغل صاحبنا هذه الفوضى ليهرب بجلده من ألمانيا ويعود إلى فرنسا».

«يقول إن كل المدن الألمانية قد تحوّلت إلى خرائب وأطلال منازل، فالطائرات تذهب كل ليلة لتدكّ كل المدن، وليس فقط هامبورج، إذ لم تعد هناك مدفعية ألمانية مضادة للطائرات، وهو يثق تمامًا في أن ألمانيا قد خسرت الحرب، ولا يريد أن يعود إلى هناك، ويبدو لي أنه يبحث عن شخص مناسب يستطيع أن يثق فيه، ليبوح له ببعض الأسرار والمعلومات العسكرية، التي يعتقد أنها مهمّة ومفيدة، على أن يكون هذا الشخص من بين أفراد المقاومة الشعبية الفرنسية ضد الاحتلال النازي لفرنسا [الماكيزار]، حتى لا تضيع هذه المعلومات لو انتقلت عبر الوسطاء، ويبدو لي كذلك أنه ينوي الانضمام إلى الماكيزار»، قلت: «إذنْ عند الوجبة القادمة ضعه معنا على المائدة في المطبخ، واجعله يجلس إلى جواري، وأنا سأكشف لك عن دواخله».

(٢)

خلال العام الأخير للنازي في فرنسا، كانت السياسة المتّبعة هي التضييق على البشر في كل شيء، فإذا أشيع مثلًا أن فرنسيًّا يأكل أكثر من ١٠٠ جرام من الخبز في اليوم الواحد، أمكن للعسكريين الألمان

أن يقبضوا عليه ويسجنوه بسبب هذه التهمة، أما عند أكل اللحوم في يوم يُمنع فيه أكلها قد تصل العقوبة إلى الإعدام. كانت الإذاعة الفرنسية الرسمية، التي تبثّ حكومة فرنسا الحرّة بقيادة الجنرال بيتان **Petain** برامجها من مدينة فيشي **Vichy**، تدعو الناس منذ بداية الحرب، إلى استعمال فول الصويا كمصدر للبروتين، كما يفعل الشعب الصيني، وفقًا لما كانوا يشيعونه، في حين كانت لحوم الماشية الفرنسية تذهب إلى جنود جيش الاحتلال.

بالإضافة إلى محاولة السلطات التسويق لاتجاه جديد في التغذية، كان قادمًا من أمريكا، وهو استعمال الأطعمة المخلّقة كيميائيًّا، التي يمكن أن يحصل منها الإنسان على كل ما يلزمه من سعرات حرارية، دون الاحتياج إلى تناول مأكولات حقيقية.

أتذكر كذلك قول أحد العلماء الأمريكيين بأن أعشاب المراعي الخضراء التي تتغذّى عليها الماشية والأغنام، هي أفضل مصدر للفيتامينات.

وقد نشرت جريدة سويسرية خبرًا، يقول إنه قد حكم على أحد فلاّحي المجر هنغاريا بالموت، لأنه زرع حديقة منزله بالزهور، بدلًا من زراعتها بالخضراوات وفقًا لتعليمات السلطات المحلّية. هذا هو ما كانت قد وصلت إليه أحوال البشر الغذائية قرب نهاية الحرب العالمية الثانية.

أما فيما يتعلّق بالأحوال المعيشية، فقد حدث تدهور سريع في كل شيء في جنوب فرنسا، فبعد أن كان النازي قد اكتفى باحتلال نصف

t.me/qurssan

فرنسا الشمالي خلال الفترة من يونيو ١٩٤٠ إلى نوفمبر ١٩٤٢، فقد هتلر معركتين مهمّتين في ستالينجراد والعلمين، فجنّ جنونه وتحرّكت قوّاته في فرنسا لتحتلّها كلّها، بمنطق (عصفور في اليد)، وهو غزو مضمون النتائج لأن جيش فرنسا لم يعد له وجود، وهكذا وصل النازي إلى آكس **Aix** حيث أقيم.

كنت في منتصف سنوات عقدي السادس، وبدأت أخاف من النزول إلى الشارع، بسبب احتمال حدوث مواجهات مع الألمان، لذلك بدأت في الاكتفاء بالنزول مرّة واحدة عند منتصف النهار، لتناول وجبة غذاء مشبعة تكفيني لمدة ٢٤ ساعة، حتى وجبة غذاء اليوم التالي. هكذا أصبحت زبونًا مستديمًا على مائدة فيليسيان.

أعرف أن فيليسيان كان يشعر بالخزي أحيانًا، من نوعية أطباق الطعام التي كان يقدّمها لإلى زبائنه، لكنه كان يضع في الاعتبار كذلك عدة عوامل، منها أولًا الأزمة الحادة في نقص المواد الغذائية، وثانيًا رقابة الشرطة على استهلاك اللحوم، وثالثًا الارتفاع الفلكي في أسعار السوق السوداء لمواد الطعام، ورابعًا ميزانية محدودة جدًّا للصرف على وجبات الطعام، في جيوب أغلب زبائنه. لقد أحببت فيليسيان لأنه كان مخلصًا في عمله، ودائم الاجتهاد في محاولة إرضاء زبائنه، رغم كل الظروف المشار إليها أعلاه.

من بين المعلومات المثيرة للاهتمام، معرفة جزء من قصّة حياة فيليسيان، وهو ما يكشف لنا السرّ وراء قدرة هذا الرجل، على تقديم أطباق تقليدية من جميع دول العالم تقريبًا، وهو أنه كان قد قضى بداية

شبابه طبّاخًا، على سفن الركّاب ذهابًا وإيابًا بين جنوب شرق آسيا وأوروبا، وهو ما جمع بيننا، إذ كنا نتبادل الذكريات التي عرفها كل منا في سنوات شبابه، عن المدن التي تسكّعنا فيها لبضع سنوات، يوكوهاما وشنغهاي وسيلان وجيبوتي والإسكندرية، خاصة الذكريات التي تدور حول فتيات الجيشا اليابانيات، وراقصات المسارح الهندية، وراقصات هزّ البطن في الملاهي الليلية في الإسكندرية.

هناك تشابه واضح بيننا، فقد ترك كل منا منزل الأُسرة في فرنسا، في مرحلة المراهقة المبكّرة، ليبدأ كلٌّ منّا مبكّرًا جدًّا في الحياة، رحلة البحث عن الذات، هو وصل إلى اليابان عن طريق سفن نقل الركّاب عبر بحر الصين الجنوبي، وأنا وصلت إلى الصين عبر حدودها الشمالية مع روسيا، عن طريق التنقّل أولًا بين دول أوروبا الشمالية الشرقية، ومنها بعد ذلك إلى روسيا، ثم بدأ كلٌّ منّا في منطقة الشرق الأقصى، مرحلة طويلة من الصعلكة والتسكّع، أثناء تذوّقنا لكل المتع الحسّية والنفسية، حيث مررنا تقريبًا بنفس المدن، وكان يمكن لنا بالصدفة أن نتقابل، إلا أن هذا لم يحدث إلا في آكس، في منتصف العقد السادس من العمر. أثناء حديث الذكريات هذا اكتشفنا ذات يوم، أننا كنا في نفس الوقت في شتاء سنة ١٩٠٤، نعمل في نفس المكان، في (فندق عربات النوم Wagons-lits Hotel) في بكين، أنا كمرمطون في المخازن، وهو كمرمطون في المطابخ.

t.me/qurssan

(٣)

وصل الزبون القادم من هامبورج، وتمّ وضعه إلى جواري على نفس المائدة. قال فيليسيان: «سأقدّم لكما كوستليتة لحم ضلوع الخنزير مع البطاطس المقلية»، فقلت: «على أن تحضر معها كمية من الخيار المخلّل وشرائح البصل وزجاجة نبيذ».

كان شابًّا صغير السنّ لا يتعدّى الثلاثين من عمره، وقد يكون في منتصف عشريناته، إلا أن الظروف السيّئة التي عاش فيها خلال السنوات الأخيرة، أضافت إلى عمره بضع سنوات. هو يميل إلى النحافة، التي تبدو في بروز عظام الوجنتين، وتبدو على وجهه علامات الإرهاق، وبلون بشرة يميل إلى الشحوب. بدا لي قلقًا متوتّرًا كأنه لم ينعم بنوم عميق منذ فترة طويلة قد تصل إلى بضعة أسابيع، خلال تنقّله بين المدن الألمانية وصولًا إلى حدود فرنسا، ثم استئناف التنقّل وصولًا إلى جنوب فرنسا.

خلال كل هذا الطريق كان يحاول أن يتخفّى عن أعين العسكريين الألمان. وقد تمكّن من بذل هذا المجهود الجسماني بفضل حالة اللياقة البدنية التي كان عليها جسمه الرياضي. لكنه والحقّ يقال، كان صريحًا وواضحًا معي، لا يحاول أن يخفي شيئًا، بدليل نظراته الموجّهة مباشرةً إلى عينيّ، النظرات التي لا يحاول أن يهرب بها بعيدًا عن عينيّ، كما يحدث عادة في حالة الكذب.

وحيث إن حرارة الجوّ في ذلك اليوم كانت مرتفعة، وأشعة الشمس

قوية، كان يرتدي قميصًا خفيفًا ويضع فوق رأسه قبّعة خفيفة، من تلك القبّعات ذوات الحواف، التي يستعملها عمّال السكك الحديدية، لحماية أعينهم وآذانهم من الزيوت والشحوم، المتطايرة من محرّكات القطارات، أثناء ممارستهم لعملهم. كما أن بنطاله هو الآخر من بين تلك السراويل ذات اللون الرمادي، وهو الزيّ الرسمي الذي يرتديه عمّال السكك الحديدية في فرنسا، وقد ظهرت عليه بقع الزيت الأخضر الداكن المستعمل في تزييت المحرّكات. بالإضافة إلى حذاء ضخم من الجلد الأسود، يصل إلى منتصف الساق، يضعه في أقدامهم العمّال الذين يكلّفون بالمهمة الشاقة، الخاصة بتغذية مولّدات البخار في القاطرات بالفحم اللازم لها.

بدأت في تبادل أطراف الحديث مع جاري، وعلى الفور تولّد لديّ الانطباع، كما لو كنت قسًّا في كنيسة، يجلس أمامي هذا الشاب على كرسي الاعترافات، يطلب منّي غفران ذنوبه. عرفت أن عائلة والده في الأصل من مدينة آرل في جنوب فرنسا، وهي لا تبعد عن آكس بأكثر من ١٠٠ كيلومتر، قال:

«اسمي لويس ألبير، في طفولتي انتقلت أسرتي من آرل إلى إقليم السافان، حيث أقمنا لفترة، إذ كان والدي قد حصل على وظيفة حارس ريفي، وهي أن يجول في المناطق الريفية ليلًا لحمايتها من السرقات، وهي وظيفة حكومية ذات مرتّب شهري مضمون.

في الثامنة عشرة أنهيت دراستي الثانوية، والتحقت بالعمل في السكك الحديدية، وبفضل ذكائي النسبي مقارنة ببقيّة زملائي، وصلت سريعًا إلى

t.me/qurssan

وظيفة قائد قطارات. ذهبت إلى ألمانيا في بداية الحرب، بسبب سياسة التجنيد الإجباري للشباب الفرنسي، التي مارسها الاحتلال النازي في فرنسا، بغرض أن يحلّ الشباب الفرنسي محلّ الشباب الألماني، في مهن كان المجتمع الألماني في احتياج إليها، بعد أن كان كل الشباب الألماني العامل في قطاع السكك الحديدية قد تمّ تجنيده في الجيش، وبقيت هناك أربع سنوات طوال طوال طوال».

عندما قال هذا شعرت بأنه يعاني من تأنيب الضمير، على بقائه طوال هذه المدّة في ألمانيا، يخدم سكّانها في قطاع السكك الحديدية. قال: «قد تبدو لك قصة عودتي الآن إلى فرنسا غريبة، أو تدعو إلى الشكّ، وقد يعتبرني البعض خائنًا لفرنسا بالتعاون مع الألمان، أو قد يعتقد البعض أنني جاسوس لصالح ألمانيا، ولكل هذه الاعتبارات أريد أن أنضمّ إلى واحدة من مجموعات المقاومة المسلّحة ضد النازي، لعلّي أحصل على طلقة في صدري تنهي حياتي تلك البائسة، أريد أن أموت في فرنسا بدلًا من الموت في ألمانيا، ثم إن مدير المطعم جعلني أعتقد أنك قد تستطيع مساعدتي في الانضمام إلى المقاومة المسلّحة».

(٤)

قلت: «لا تتعجّل الأمور أيّها الفتى، لكن قل لي أولًا متى غادرت هامبورج؟»، قال: «منذ خمسة أيام»، قلت: «وكيف وصلت إلى هنا؟»، قال: «متنقّلًا بين القطارات»، قلت: «وأين عبرت نهر الراين من الضفّة اليمنى إلى الضفّة اليسرى؟»، قال: «بمجرّد مغادرة هامبورج وعند

أول معبر»، قلت: «أين دخلت الحدود الفرنسية؟»، قال: «عند مدينة ستراسبورج»، قلت: «وبعد ذلك ما هي المدن الأخرى التي مررت بها حتى وصلت إلى هنا؟»، قال: «إلى مدينة ليون، ثم جرينوبل، ثم آكس، مرورًا بمنطقة الألب، بدلًا من أخذ قطارات الخط الذي يمرّ في منطقة آرل، حيث يمكن أن يجدني أحد بلديّاتي، أولئك الذين يعتبرونني خائنًا وعميلًا».

قلت: «وكيف عبرت الخطّ الفاصل بين فرنسا المحتلّة وفرنسا الحرة؟»، قال: «في الحقيقة لا أعرف أين هو هذا الخطّ إذ يبدو أنه لم يعد موجودًا، أو لو أنه لا يزال موجودًا فلم تعد هناك شرطة ألمانية تراقب نقاط العبور عنده»، قلت: «وكيف دفعت أثمان تذاكر القطارات؟»، قال: «في هذه الفوضى الشاملة لم تعد هناك تذاكر للقطارات، فالقطارات بسبب القذف الجوّي يمكنها أن تتوقّف في أي مكان، ويطلب السائقون من الركّاب مغادرة القطار»، قلت: «هل كان لديك تصريح بالمرور؟»، قال: «لا»، قلت: «هل تحمل معك أيّ أوراق إثبات شخصية؟»، قال: «كنت قد مزّقت أوراقي الفرنسية واحتفظت فقط ببطاقة ألمانية كسائق قطارات»، قلت: «ألم تتعرّض مرة واحدة للتفتيش؟»، قال: «لم يعد هناك في ألمانيا أي رجال شرطة للتفتيش، بل لم يعد هناك رجال شرطة في أي مدينة ألمانية على الإطلاق»، قلت: «هل تتحدّث الألمانية؟»، قال: «الحدّ الأدنى اللازم للتحرّك في البلاد، فلم يعد هناك أي شخص يسألك عن أي شيء، انهيار تام لكل أشكال النظام المعروف عن الألمان، مشكلتي أثناء التنقّل بين القطارات كانت هي الجوع، لأني لم أكن أجد أي مطاعم أو

t.me/qurssan

محلات بقالة»، قلت: «هل معك نقود؟»، قال: «نعم لدي بعض الأوراق المالية بالمارك الألماني وبالفرنك الفرنسي».

بعد فترة من الصمت قلت: «هل تخاف من العودة إلى آرل؟»، قال: «لا لم أعد خائفًا، بل إنني على أتم الاستعداد للذهاب إلى هناك، حتى لو تعرّضت للمحاكمة والإدانة، ولكني أفضّل على ذلك أن أنضم إلى المقاومة».

قلت: «ولو وافقنا على طلبك كيف لنا أن نتأكّد من حقيقة شخصيّتك ومن المعلومات التي ذكرتها لي للتوّ؟»، قال: «ستجدون اسمي مسجّلًا في سجلّات آرل، في أرشيف السكك الحديدة، كعضو في نقابة عمّال السكك الحديدية»، قلت: «وكيف حصلت على العملات الفرنسية التي في حوزتك؟»، قال: «عرفت أن بعض القسس في كنائس إقليم الألزاس الحدودي يساعدون الهاربين من الخدمة في ألمانيا فذهبت إليهم»، قلت: «أنت شجاع وأنا أصدّقك، لقد أصبح الألمان مهملين، وهذه علامة جيدة لنا في فرنسا، فهي مؤشّر على اقتراب نهاية الاحتلال، إلا أن الخوف كل الخوف هو من تصرّفاتهم الآن، خلال المرحلة الأخيرة من الحرب، فعندما يدركون أنهم قد هزموا سيتصّرفون كالمعتاد بوحشية مع المدنيين، حتى لحظة الانهيار التام الأخيرة. أما فيما يتعلّق بمسألة انضمامك إلى المقاومة، فمن الصعب أن أردّ عليك الآن، ولكني سأحاول أن أرتّب لك مقابلة مع أحد رجالهم، رغم أنهم أصبحوا في المرحلة الحالية كثيري التشكّك بسبب ظهور خيانات بين صفوفهم».

(٥)

كان فيليسيان يقف بالقرب منا كأنه يراقب صالة المطعم، إلا أنه كان ينصت إلى ما نقول، ثم اقترب مني وانحنى ليصبح فمه قريبًا من أذني، وقال: «إنك لا تدرك أنه الطريق الوحيد أمام هذا الشاب الذي يبدو فاقدًا للأمل في أي شيء آخر، يجب عليك أن تساعده إن كان ذلك في مقدرتك، وهو قد اعترف لك بأخطائه، تذكّر أننا عندما كنّا في مثل سنّه ارتكبنا نحن أيضًا أخطاء عديدة».

كنت أدرك تمامًا مدى صعوبة الموقف الذي يجد فيه هذا الشاب نفسه. في الحقيقة كنت متردّدًا في إدخاله إلى صفوف المقاومة، لأني كنت مقتنعًا أن المقاومة كانت في ذلك الوقت قد تحوّلت إلى عش دبابير.

عدت إلى استجواب الشاب، فقلت: «قد يكون من الأفضل لك أن تعود إلى العمل كميكانيكي سيّارات، هل هذا في إمكانك؟»، قال: «لقد عملت في ألمانيا ميكانيكيا ولكن للقاطرات لا للسيّارات، وهي في الحقيقة أفضل فنيًّا من قاطراتنا الفرنسية، وأكثر صلابة في تحمّل المشاق، ولكن ما انبهرت به فعلًا هو أسلوبهم في صيانة قاطراتهم، فبمجرّد وصولنا إلى أي محطّة قطارات في المدن الكبيرة، يصعد على الفور فريق الصيانة، للكشف على كل أجزاء القاطرة في بضع دقائق، بين توقّفنا وعودتنا إلى الحركة، وكانت كل فرق الصيانة هذه خلال سنوات

t.me/qurssan

الحرب تتكوّن فقط من النساء».

قلت: «هل كانت محطّتك هي محطّة خدمات السكك الحديدية الرئيسة الواقعة في منطقة ألتونا؟»، قال: «إذنْ أنت تعرف هامبورج!». ولأول مرة أراه يبتسم، قلت: «لقد ذهبت إلى هامبورج عشرين مرّة أثناء توقّف السفن التي كنت أعمل عليها في مينائها. إنها مدينة جميلة ونظيفة، وأهلها يميلون إلى المرح، ثم إنها المدينة الألمانية الوحيدة التي لا تصيبك باليأس، بفضل شجاعة أهلها الذين كانوا الوحيدين بين سكّان كلّ المدن الألمانية الذين رفضوا الانضمام إلى قطعان الشعب الألماني، التي تبعت هتلر دون تفكير، خاصة قادة التمرّد على هتلر، من بين القيادات الشيوعية لنقابات العمّال في قطاع الموانئ، فقد ظلّوا يرفضون سياساته إلى آخر وقت، حتى اندلعت الحرب في كل مكان وجرفتهم معها».

توقّفت لحظة، ثم أضفت: «إلا أن أكثر منطقة أحببتها في هامبورج، وتردّدت عليها في أغلب أوقات فراغي، هي منطقة المدافن القديمة التي تحيط بكنيسة ألتونا، وتقع بينها وبين منطقة ورش النجارة الملحقة بأحواض بناء السفن. كنت أذهب إلى هناك لمشاهدة الجزء المخصّص لمدافن البحّارة، الذي يغصّ بالكثير من الأشياء المتعلّقة بالبحر، كأجزاء من سفن حطّمتها العواصف، ومؤخّرات سفن بألوان زاهية، وسلاسل حديدية صدئة، ومجاديف خشبية بأجزاء معدنية، وألواح خشبية عفنة ومسودّة، وكلّها تتعلّق بها طحالب وأصداف بحرية مختلفة الأشكال والأحجام، كما أن هناك الكثير من الزجاجات التي تترك فوق المدافن، وبها نماذج مصغّرة من السفن».

«وأنت تقول إن المدينة كلها قد تحوّلت إلى كومة كبيرة من الدمار الشامل؟ لماذا لم تذكر الجرائد اليومية أي شيء عن هذه الأخبار؟ ولا حتى إذاعة البي بي سي التي نلتقطها من لندن؟ وأنت تقول إن الشوارع بها ٢٠٠ ألف جثّة؟».

قال: «الألمان لا يدعون أي مراسل حربي يدخل إلى المدينة، ولا لأي أخبار أن تتسرّب خارج ألمانيا، ولكن هذا سيحدث عاجلًا أو آجلًا، لأن هذه الحالة ليست خاصة بهامبورج، بل إنها حالة كل المدن الألمانية، إنها كارثة شاملة، إنها نهاية دولة ألمانيا، كل الألمان مقتنعون أنها نهاية دولتهم، فالطائرات الأمريكية والبريطانية تدكّ بقنابلها كل المدن الألمانية كل ليلة، ولم تعد هناك عند أيّ مدينة، أيّ دفاعات جوية، أو أيّ مدفعية مضادة للطائرات، كل هذا قد انتهى تمامًا، فالجيش الألماني قد انتهى، وعودة ألمانيا إلى ما كانت عليه قبل الحرب، وإعادة بناء المدن المهدّمة، ستستغرق عشرات السنوات».

قلت: «هذا أجمل خبر أسمعه منذ حوالي عامين، منذ سمعت خبر فشل الألمان في اقتحام ستالينجراد، وأدركت وقتها أن هذا الفشل هو بداية النهاية لهتلر، لو كان هذا الدمار الشامل الذي تتكلم عنه حقيقيًّا، لوجب على الإنجليز أن يملؤوا الدنيا ضجيجًا بخبر انتصارهم في الحرب، وأن يفعلوا مثلما فعل الألمان في صيف ١٩٤٠، عندما ملؤوا الدنيا ضجيجًا بأخبار انتصاراتهم، ألا تتذكّر يا فيليسيان كيف احتفلت إذاعات ألمانيا بأخبار دمار لندن، وبأخبار دكّ قنابل طائراتهم لأرصفة ميناء لندن؟».

t.me/qurssan

انتهت ساعة الغذاء، وبدأ الزبائن المعتادون في مغادرة المطعم، وكانت خادمة المطعم قد بدأت تدور حول الموائد تجمع الأطباق، وتذهب بها إلى المطبخ، لتضعها في حوض كبير لغسيل الأواني وتصبّ الماء المغلي عليها. في تلك الفترة الحرجة من تاريخ فرنسا، اعتاد الناس على مسح أطباق طعامهم، وعدم ترك أي أثر فيها للطعام. ليس هناك ما نخشاه من هذه الخادمة، فأنا أعرف أنها لا تنصت أبدًا إلى الحوارات الدائرة على الموائد، لأنها دائمة التفكير في خطيبها عازف الكمان المحترف، وماذا يمكنه أن يفعل في الحياة، لو أنه لم يعد يكسب عيشه من عزف الكمان.

(٦)

كانت تأتي إلينا من فندق (البغل الأسود) إلى الجهة الأخرى من الشارع، أصوات الألمان الذين يعملون فيه، بعد أن كانوا قد صادروه لصالح أحد مكاتبهم الإدارية، وهم يضحكون ضحكات خشنة عالية الصوت، بالإضافة إلى ضوضاء وقع أحذيتهم الثقيلة على الأرضيّات، وضوضاء تحريك قطع الأثاث. كانوا هم أيضا قد انتهوا من تناول وجبة الطعام في مطعم الفندق، وبدأوا في مغادرته إلى أماكن إقامتهم. كنت أراهم يمرّون أمامنا ببطونهم المنتفخة بالطعام الفرنسي، وهم يفكّون أزرار معاطفهم ليسمحوا للبطون بالمزيد من الانتفاخ.

قلت بصوت منخفض لمن حولي: «قد يكون من حسن الحظّ ألا نرى هؤلاء السخفاء هنا مرّة أخرى، هم قد يكونون من هامبورج

ولا يعرفون بما حدث لمدينتهم، لديّ رغبة عنيفة في أن أذهب إليهم لأخبرهم بما حدث لمدينتهم».

وقعت هذه الأحداث في صيف ١٩٤٤، وأنا أجلس أكتب هذا الكلام الآن في نهاية سنة ١٩٤٧، وأقرأ تقريرًا حربيًّا إنجليزيًّا يقول:

«١ - بدأت هجماتنا الجوّية على المدن الألمانية في ربيع عام ١٩٤٢، وكانت الخسائر كبيرة في طائراتنا في ذلك العام، بسبب وجود مدفعية مضادة للطائرات، لكن رغم ذلك استمرّت إغاراتنا اليومية الجوية، حتى نهاية الحرب في صيف ١٩٤٥. وكانت أول المدن المدمّرة تمامًا هي بعض المدن الساحلية مثل لوبيك وروستوك وكييل وترونتجم.

٢- كان يوم ٣٠ مايو ١٩٤٢ هو يوم مشهود في تاريخ الحرب، إذ قامت ١٠٠٠ طائرة بريطانية بالهجوم في نفس الوقت معًا، على مدينة كولونيا الألمانية. كان هذا هو أكبر عدد للطائرات البريطانية في إغارة على مدينة واحدة في نفس اليوم. كانت المصانع الحربية البريطانية في لانكستر وهاليفاكس وويلينجتون قد أنتجت آلاف الطائرات الحربية الخفيفة، منذ بداية الحرب في صيف ١٩٤٠، وحتى منتصف ١٩٤٢، مما سمح لبريطانيا بالتفوّق الجوّي على ألمانيا، وبالتالي بالقدرة على الانتقام.

٣- منذ موقعة بيرل هاربور في منتصف ١٩٤١، بدأت الولايات المتحدة هي الأخرى في إنتاج آلاف الطائرات الحربية الخفيفة، وفي إرسالها إلى بريطانيا، مشحونة بآلاف الأطنان من المتفجّرات، حتى تساهم هي الأخرى في الانتقام من آلة الحرب الألمانية النازية.

t.me/qurssan

٤- كانت الطائرات تغادر الجزر البريطانية عند منتصف الليل، وتطير على مسافات منخفضة، حتى تصل عبر البحر إلى الأراضي الألمانية في الثانية صباحًا، وتبدأ لمدة ساعتين في إلقاء أطنان المتفجّرات على المدن والمصانع والموانئ والطرق والكباري وخطوط السكك الحديدية، بالاستعانة بخرائط دقيقة، بحيث كان كل طيّار على معرفة دقيقة بالمكان المكلّف بضربه، ثم تتخذّ الطائرات طريق العودة إلى الجزر البريطانية لتصلها السادسة صباحًا.

٥- في بداية الحرب اعتقد الألمان أنه يمكنهم تحقيق انتصار عسكري مباغت سريع، على كل الدول الأوروبية المحيطة بألمانيا، بضرب مدنها بآلاف الأطنان من المتفجّرات، دون أن يدركوا أن هذا قد يحدث لاحقًا لمدنهم هم أيضًا، ودون أن يتوقّعوا قدرة الطيران البريطاني لاحقًا على ضرب مدنهم بنفس الطريقة. اعتقدوا -بقصر نظر غريب- أن مدنهم ومصانعهم في مأمن دائم من الطيران البريطاني.

٦- في بداية مرحلة الضرب اليومي للمدن والمصانع الألمانية بواسطة الطيران البريطاني، قامت الإدارة الألمانية بنقل بعض مصانعها الهامة إلى بعض الدول المجاورة مثل بولندا والنمسا، بالإضافة إلى إقليم بوهيميا، أما المصانع التي استحال نقلها فقد أحاطوها ببطاريات دفاع جوّي.

٧- عندما فقد الحلفاء عددًا كبيرًا من طائراتهم، بسبب طيرانها على ارتفاعات منخفضة، لجؤوا منذ يناير ١٩٤٣، إلى استعمال الطائرات الأمريكية [ليبراتور]، التي تطير على ارتفاعات عالية جدًّا، لا تتمكن أي

مدافع مضادة للطائرات أن تصل إليها.

٨- في نفس ذلك الشهر بدأت الطائرات الروسية في ضرب ألمانيا من الجهة الشرقية، فإذا كان هتلر قد أعلن الحرب على العالم كله، فقد أعلن العالم كله الحرب على هتلر. كان استعداء روسيا هو أكبر أخطاء القائد الألماني المغرور. كانت الطائرات التي تضرب ألمانيا هي إمّا صناعة بريطانية أو صناعة أمريكية، إلا أن قادة هذه الطائرات كانوا من ثمانيَ دول مختلفة بترتيب أهميّتهم العددية: بريطانيا وأمريكا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والنرويج».

(٧)

الشيء العجيب الذي ذكره الشاب الفرنسي لويس ألبير ولفت انتباهي، هو أنه مع كل قذيفة من قنابل طائرات الحلفاء، كان يحدث أن تتطاير آلاف القطع الورقية الصغيرة، ذات الطلاء المعدني الفضّي في الجوّ، ولا يعرف أحد من أين تأتي، هل هي تسقط من الطائرات مع القنابل، أم أن هناك مصدرًا آخر لها؟ كان الألمان يقولون إنها مادة كيميائية سامة المقصود بها قتل المدنيين الأبرياء. وقالت بعض المصادر المدنية من دول الحلفاء، إنها قد تكون مادة كيميائية مضادة للأوبئة، المقصود بها تطهير الجو من الميكروبات، التي تنتشر في الجوّ بسبب كل هذه الآلاف من الجثث المتناثرة في كل مكان، التي لا تجد من يدفنها. وظل العسكريّون صامتين.

حتى ذلك التاريخ من سنة ١٩٤٤ كنت أعرف أن هناك موجات

t.me/qurssan

لاسلكية يمكن أن تطلقها طائرات الحلفاء للتشويش على الرسائل اللاسلكية التي تتبادل بها مواقع الأعداء المعلومات، إلا أننا كنا حتى ذلك التاريخ نجهل وجود الأجهزة التي تسمّى الرادار، والتي يمتلكها الأعداء، ويمكنها أن تلتقط صور الطائرات في السماء، على بعد عشرات الكيلو مترات. في نهاية الحرب ذكر العسكريون أن هذه القطع الفضّية المتناثرة في الجو كانت طائرات الحلفاء تسقطها عمدًا مع القنابل، أو حتى دون قنابل، كلما مرّت طائرة حلفاء بموقع ألماني، حتى تقوم هذه القطع الورقية الفضّية، المصنوعة من نفس المادة المعدنية الفضّية للطائرات، بالتشويش على أجهزة الرادار، فلا تتمكن من التقاط صور الطائرات.

كنت قبل الحرب، وخلال بضعة سنوات من أواخر الثلاثينات، أعمل صحفيًّا بالقطعة في بعض جرائد باريس اليومية والأسبوعية، ومع اندلاع الحرب في أواخر ١٩٣٩، عملت مراسلًا حربيًّا لبضعة أشهر، على ظهر إحدى الغوّاصات البريطانية، التي كانت تجوب بحر الشمال، تحاول أن تعوق عمل زوارق الطوربيد الألمانية، بالتشويش على الرسائل المتبادلة بينها، باستعمال جهاز يسمّى آسديك Asdic، يرسل موجات صوتية عبر أعماق البحار.

قلت للشاب لويس: «لقد جعلتني أتعاطف معك بهذه الأخبار الجيّدة التي حملتها إلينا، لذلك سأتعاون معك، وأدلّك على الطريقة التي يمكنك بها أن تتواصل مع المقاومة الفرنسية. ستذهب إلى نافذة التذاكر في محطّة قطار مدينتنا، وتذكر لموظف النافذة كلمة السر xxx، عندها

سيعطيك تذكرة في قطار الخامسة مساء، المتجه إلى منطقة جبال الألب، وعندما تصل إلى محطّة لوجيرا le Jura، ستغادر القطار وتظل واقفًا على الرصيف، حتى يخلو تمامًا من المسافرين، عندها سيأخذك رجل من ذراعك إلى قائد المجموعة التي ستجنّدك».

غادرت المطعم في الطريق إلي منزلي، وقابلت ساعي البريد في طريقي، وسألته كما أفعل كل يوم، عن رسالة أنتظرها منذ شهور، من ابني السجين في زيجينهاين بألمانيا، وكالمعتاد يكون الردّ بالنفي. مأساتي الشخصية. ابني الوحيد. عند بداية الحرب لم تنجح أيٌّ من محاولاتي في تهريبه إلى أمريكا، وفي نهاية الحرب انتظرت في كل لحظة عودته، إلا أن هذا لم يحدث أبدًا. لم يعد.

يبدو أن أخبار الهزائم الألمانية قد وصلت أخيرًا إلى الألمان في فرنسا، فقد حدث منذ تلك الليلة أن أعلنت حالة الطوارئ والاستنفار العام، وتمّ قطع البثّ الإذاعي، ثم بعد ذلك تمّ قطع التيّار الكهربائي. ظلّت الدوريّات الألمانية تجوب شوارع مدينة آكس طول الليل، تطلب من الناس إخفاء أضواء الشموع، ثم كانوا على الفور يطلقون الرصاص على النوافذ، التي يبدو من ورائها أي قدر من الضوء مهما كان ضئيلًا. (اطفؤوا الأنوار) هي الجملة التي أنهى بها الأديب الألماني جوته حياته، لكن شتّان بينه وبين هؤلاء الأوباش الألمان الذي يملؤون الآن شوارع آكس.

في تلك الليلة لم أتمكن من القراءة، وأمضيت الوقت في اللفّ والدوران بين حجرات الشقّة المطلّة على شارعين، ثم قبيل الفجر

t.me/qurssan

نمت بملابسي فوق واحدة من أرائك حجرة الاستقبال. انتبهت على صوت أزيز طائرات مرتفعة في السماء، حتى تكون بعيدة عن مدى قدرة بطّاريات الدفاع الجوّي الألمانية، واستطعت أن أميّز صوت الطائرات الأمريكية، أو على الأقل كان الصوت مختلفًا عمّا اعتدنا سماعه من أصوات الطائرات الألمانية.

كنا قد عرفنا في جنوب فرنسا أن القوّات الأمريكية قد قامت بإنزال جنودها، على سواحل شمال إيطاليا، وفي جزر البحر المتوسّط مثل صقليّة وكورسيكا، قبل بضعة أيام. سمعت صوت نزول الجيران من الطوابق المرتفعة، إلى كهوف الاختباء تحت الأرض، وهي الكهوف الموجودة تقريبًا في كل البنايات. تساءلت هل أفعل مثلهم؟ هل ستُسْقِط الطائرات الأمريكية الصديقة قنابلها على المدن الفرنسية التي يحتلّها الألمان؟ كان من الممكن توقّع أي شيء. لم يكن هناك أي شيء مستبعدًا.

t.me/qurssan

ألِيس في بلاد الإنجليز

(١)

في شهور الشتاء بين ديسمبر ١٩٣٩ وفبراير ١٩٤٠، عملت مراسلًا حربيًّا في إنجلترا، حيث طفت الجزيرة بالطول والعرض، لزيارة كل المواقع التي كان الإنجليز يعدّونها للحرب، بعد أن كانت التوقّعات قد دارت حول احتمال اندلاع حرب طويلة الأجل. زرت مصانع الأسلحة الجديدة، التي أقيمت بدءًا من صيف ١٩٣٩. زرت أحواض صناعة السفن التي توقّفت عن إنتاج سفن نقل البضائع، لتكرّس كل جهدها في صناعة السفن الحربية. زرت قواعد صناعة الغوّاصات. زرت معسكرات التدريب وتقابلت مع قادة الجيش. تقابلت مع وزراء في الحكومة.

كان ذلك الشتاء باردًا بشكل خاص، لدرجة أن المرتفعات الجبلية حتى في أقصى جنوب البلاد، كانت تكسوها طبقات كثيفة من الجليد. كما أن كل المدن كانت تختفي خلف طبقات كثيفة من الضباب. لم أتمكن من العثور على إنجلترا التي كنت أعرفها من قبل.

لم يكن أحدٌ يعرف الإجابة على سؤال «ما هو مصير هذه الحرب؟». لكن بدا واضحًا أن الإنجليز يستعدّون لاستقبال صدمة الهجوم الألماني

الوشيك، وأنهم مصمّمون على ردّ هذه الصدمة في أقل فترة زمنية ممكنة. كانوا يعملون في صمت، دون أي رغبة في الإعلان عمّا يفعلون. كانت اللافتات المعلّقة في كل مكان تحمل عبارة (احتفظ بابتسامتك)، في الشوارع والمكاتب الحكومية والحانات الشعبية، وحتى في قاعات الفنادق الكبرى حيث ينزل الأغنياء، مثل فندق روشستر الفخم، الذي أقمت فيه في لندن، بفضل الموقف المالي المتميّز للجرائد التي كنت أعمل مراسلًا لها. كانت هناك لافتات أخرى أقل انتشارًا، تقول (اصمتوا وتشكّكوا)، أو (آذان الأعداء تصغي إليكم)، أو (توخّوا الحذر).

كنت أسير في شوارع لندن والمدن الكبرى، بعينين مفتوحتين على اتساعهما، حتى لا تفوتني ملاحظة التفاصيل، في هذا الكابوس الذي يصيب شعبًا بأكمله، يتوقّع بين يوم وليلة بدء الإغارات الجوية الألمانية بآلاف الطائرات الحربية، التي كانت ألمانيا قد بدأت في صناعتها في الخفاء، منذ منتصف الثلاثينات.

كل من قابلتهم من المسئولين الإداريين المدنيين أو العسكريين، كانوا يظهرون عدم اكتراث تام، وروح مقاومة عنيدة لن تستسلم أبدًا مهما كانت الظروف، وهو ما قد يبدو كما لو كان لغزًا لأجنبي مثلي، خاصة على خلفية سفري إلى عدد كبير من دول العالم، ومعرفتي بعادات شعوب عديدة. لكل هذا أقول لكم إن هذا الإعداد لهذه الحرب، هو ما جعلني أدرك القيم النفسية التي تنبني عليها الشخصية البريطانية، التي تجعلها في حالة دائمة من التحفيز والتحفّز على الكسب والنجاح.

من منا لم يقرأ (آليس في بلاد العجائب) للويس كارول؟ أفضّل أن

t.me/qurssan

أقول رحلة الطفلة آليس في بلاد الجنّيّات، بدلًا من أن أقول رحلتها في المرآة، ومغامراتها في بلاد البعد الرابع. إن العالم الحقيقي الوحيد، هو العالم المحيط بحياة الأطفال، حيث لا يوجد أي شيء مستحيل.

إن هذا الكتاب للأطفال، هو المفتاح الذي يمكن أن ندخل به من الأبواب المؤدّية إلى فهم الروح الحقيقية الخفيّة للشعب البريطاني. إن كل المستكشفين والبحّارة والمستعمرين والعلماء الإنجليز، خلال قرون العصور الحديثة كلها، منذ القرن الخامس عشر، حتى القرن العشرين، تمكنوا من غزو العالم كله، في ثلوج كندا المتجمّدة طوال العام، وغابات إفريقيا الاستوائية، ومجاهل آسيا الوسطى، وجزر المحيط الهادئ، تمكنوا من فعل ذلك، فقط بفضل نفس الروح، التي تمكنت بها الطفلة آليس، من التجوّل في الخيال، لاستكشاف بلاد العجائب.

(٢)

منذ طفولتي الغضّة، وفي كل مرّة ذهبت فيها إلى إنجلترا، بدت لي فيها أرضًا للأحلام. مناظرها الطبيعية فريدة في نوعها، فمثلًا هناك المرتفعات الجبلية التي تنتهي فجأة بحوائط حواف رأسية، حواف الجبال التي تسقط رأسيًّا عند شواطئ البحار. ثم إن أغلب المرتفعات الجبلية تغطّيها الخضرة الكثيفة طوال العام، بفضل الأمطار الكثيفة ورطوبة الجو. من الصعب أن تجد هذه الملامح الجغرافية في أي مكان آخر في العالم. تبدو إنجلترا كما لو كانت خارج الزمان والمكان، اللذين تنطبق قواعدهما الزمانية والمكانية على كل دول العالم الأخرى باستثناء إنجلترا.

أمّا سكّان إنجلترا فيبدون كما لو أنهم يطيعون قانونًا غير مكتوب، كأنه يخصّ ديانة غير معلنة، لا يتبعها غيرهم من شعوب العالم. سكّان إنجلترا يبدون كما لو أنهم يقودون حيواتهم بشكل غير متوقّع، لأن كل بريطاني محصّن بتاريخ طويل من الإيمان بالمدنية وبالحريّات الشخصية. كل بريطاني يتبع قانون حرّيات بدأ العمل به في بريطانيا قبل ألف عام. بالإضافة إلى أن المواطن البريطاني يعمل بخطّة التثقيف الذاتي الدائم طوال الحياة، ويثقّف نفسه بإفراط في اتجاهات مختلفة، تاريخ.. جغرافيا.. تكنولوجيا.. أدب، وبشكل جيّد، ذلك في حالة مقارنته بغيره من مواطني شعوب العالم المتحضّر في أوروبا وأمريكا.

ثم هناك روح المنافسة. هذا هو ما جعل إنجلترا تتفوّق على كل شعوب أوروبا الأخرى مثل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال، التي حاولت مثل إنجلترا، تحقيق حلم الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس. كل النجاحات الإنجليزية تعزى إلى روح المنافسة هذه، أو روح المغامرة التجارية.

فمثلًا بين الحربين العالميتين وخلال فترة لا تتعدّى العشرين عامًا، وفقط فيما يتعلّق بروح المغامرة التجارية، نجح الإنجليز في مجالين جديدين، قدّماهما هدية إلى البشرية، أولهما هو مجال تصنيع الكاوتشوك المستعمل حاليًا في عدد كبير من الصناعات، وثانيهما هو مجال تجهيز السفن التجارية بالثلاّجات، التي يمكن أن تحفظ فيها اللحوم والمنتجات الزراعية القادمة بالبحر من أطراف الدنيا.

يقول الفرنسيون إن كلمة (مستحيل) ليست فرنسية، وأنا أعتقد حاليًا

t.me/qurssan

أنهم يقصدون بها المستوى الأخلاقي، فليست هناك مبادئ أخلاقية تمنع الفرنسيين من إتيان أي أفعال يريدونها. أما بالنسبة للإنجليز، فإن عبارة (ليس هناك مستحيل) تترجم إلى أفعال يومية، إلى انتصارات يومية، أفعال تسمح لكل فرد بريطاني مهما كان بسيطًا، بإنجاز انتصاره اليومي الخاص به، مما يخلق جوًّا عامًّا من الانتصارات اليومية الكبيرة، على مستوى الأمّة الإنجليزية كلها.

(٣)

كانت هذه هي الأفكار التي راودتني كل يوم، أثناء تنقّلاتي المستمرّة في الجزر البريطانية، خلال الشهور الثلاثة، بين نهاية ١٩٣٩ وبداية ١٩٤٠، أثناء خط سير تجوالي الطويل، بين الساحل الغربي والساحل الشرقي، في الجزء الجنوبي من الجزر البريطانية. كنت أتنقّل في سيّارة حربية صغيرة، يقودها سائق من جنود الجيش البريطاني، وكانت المقالات التي أكتبها، تنشر في عدد من الجرائد اليومية الأوروبية، وتقوم بتعريف القارئ الأوروبي القلق بالاستعدادات العسكرية القائمة على قدم وساق في بريطانيا، للمساهمة بما أكتبه في محاولة طمأنة المواطن الأوروبي.

في ذلك اليوم كنت قادمًا من أحواض سفن على الساحل الغربي، حيث مركز تجارب يقوم فيه علماء القوات البحرية، باختبار الطوربيد البحري الجديد، الذي كانت ألمانيا حتى ذلك الوقت، تتفوّق فيه على إنجلترا. لم أكن قادرًا على رؤية المناظر الطبيعية، خلف زجاج السيّارة،

بسبب كثافة سقوط الجليد، حتى أن السائق لم يتمكن من رؤية إشارات التحويل على الطريق الذاهب إلى لندن، فلسبب أو لآخر كانت هناك بعض الطرق المغلقة أمام السيّارات، وبالتالي كانت هناك إشارات تحويل. وجدنا أنفسنا فجأة في منطقة تنقطع فيها تمامًا حركة السيّارات. كنت أتعجّل الوصول إلى لندن قبل هبوط المساء، بسبب موعد لديّ مع أحد الوزراء.

بدت لي فجأة صورة هذه الحرب، كأنها قادمة من قصص السحر والخيال في ألف ليلة وليلة، ولكنها نسخة القرن العشرين، بكل تلك المخترعات الحديثة من آلات تطير في الهواء، وآلات تغوص في أعماق البحر. يمكنني هنا أن أضيف ابتكارين إنجليزيين جديدين، تم إنجازهما في الشهور الأخيرة، وهما أولًا هذه الستائر من الدخّان الأسود الكثيف، الذي ينطلق لا أعرف كيف، في المناطق الساحلية، بهدف التمويه على الطائرات الألمانية، التي قد تضل الطريق ولا تتعرف على الشواطئ البريطانية، خاصة مع تطبيق نظام الإظلام التام بين غروب الشمس وشروقها، وهكذا تبدو ستائر الدخّان الكثيف، كأنها تخرج من مصباح علاء الدين.

وثانيًا هذه المصانع الحربية الجديدة المبنية خلال الشهور الأخيرة، التي راعى فيها من بناها، عدم قدرة الأعداء على تمييزها من الجو، بفضل تكيّف شكلها الخارجي مع البيئة المحيطة بها، فقد وضعوها مثلًا تحت الأشجار في الغابات، ودهنوها بألوان أشجار الغابات، أو وضعوها بأكملها تحت الأرض. بفضل هذه الابتكارات التي تدخل في نطاق

t.me/qurssan

الأقاصيص الخرافية عن السحرة والجنّيات Fairy Tales، التي يحب الشعب الإنجليزي قراءتها، ليس فقط الأطفال الصغار، بل كذلك الكبار من كل الأعمار، نجح هذا الشعب في مواجهة الغزو الجوّى الألماني، وفي نهاية المطاف كسب الحرب.

(٤)

فجأة ضغط السائق على مكابح السيّارة، وكان سقوط الثلج قد تباطأ أولًا ثم توقّف. خرج السائق من الباب تجاهه، وجاء إلى الباب تجاهي ليفتحه لي، في دعوة صريحة إلى الخروج. تحيّرت قليلًا لأنه لم يكن هناك في خط سيري عائدًا إلى لندن تلك الليلة، أي برنامج لزيارات إضافية متوقّعة. لكني استجبت لدعوته وخرجت من السيّارة دون أي تساؤل. ثم إذا بي لا إراديًا، أطلق صيحات الدهشة والإعجاب. رأيت المئات من قطع النقانق كبيرة الحجم طافية في الهواء. كانت تطير على ارتفاعات متباينة من سطح الأرض، منها ما كان قريبًا من الأرض ببضعة أمتار، ومنها ما كان مرتفعًا عن الأرض ببضعة عشرات من الأمتار.

كانت أقرب القطع إلى مكان توقّفنا، أقرب شبهًا بالبقرة منها بالنقانق، تلمع بلون جلدها الرمادي المعدني، ولاحظت أنها مقيّدة الحركة، بواسطة سلك معدني مثبّت أحد طرفيه فيها، وطرفه الآخر في الأرض. أمّا القطع المرتفعة التي بدت لي الآن أقرب شبهًا بالخراف منها بالنقانق، فقد كانت في حالة حركة دائمة بسبب التيّارات الهوائية، كأنها تسعى لقطع الصلة بينها وبين رابطها الأرضي، والانطلاق في الفضاء

الحرّ الفسيح. هذا القطيع المكوّن من مئات الخراف والأبقار المعلّقة في الفضاء، كان منظرًا مدهشًا إلى أقصى حدّ، وينطبق تمامًا مع فكرتي المبدئية عن هذا الشعب من الجنّيات والسحرة.

لمحت عن بعد حظيرة بدت لي كما لو أنها كانت ممتلئةً عن آخرها بهذه الحيوانات من خراف وأبقار، التي قد تكون معروضة للبيع، بغرض ذبحها تلبية لاحتياجات الناس من اللحوم، ثم جاءني انطباع آخر مختلف، كما لو أننا أمام متجر يبيع لعب أطفال، على أن يكون الأطفال ضخام الأجسام جدًّا، من جنس عماليق كتاب التوراة أو العهد القديم من الكتاب المقدّس. ثم حتى لا تطول حيرتي أبلغني السائق أن هذا المكان هو أحد مصانع المناطيد، التي أعرف الآن -وأنا أكتب هذا الكلام سنة ١٩٤٧- أنها ستستعمل فيما بعد كأحد أساليب الدفاعات الجوّية خلال الحرب، وقد تعامل معها الشعب الإنجليزي كما ينبغي للأطفال أن يفعلوا، كأنها لعب من البالونات المنفوخة بالهواء تثير البهجة عند النظر إليها في السماء.

ماذا كان الشكل الخارجي لهذا المصنع؟ عندما دقّقت النظر تمكنت رغم الضباب، من رؤية البناء الخشبي الذي يحتوي بداخله، على آلات المصنع الذي ينتج هذه المناطيد، وإذا به أقرب شبها بكنائس إنجلترا في القرون الوسطى، خاصة لو التقطت صورته من الجوّ، على ارتفاع بضعة عشرات من الأمتار، فليس هناك إلا سقف كنيسة، بقبّتها التقليدية وبرج أجراسها. هذا هو إذن أسلوب التمويه المستعمل هنا، الإيحاء إلى قائدي الطائرات الألمان أن هذا المبنى هو كنيسة، لا يصح -ولو مبدئيًّا- إلقاء

t.me/qurssan

قنابل عليها.

لقد أسعدني هذا المنظر بفضل جدّته وابتكاريته، وبفضل دلالته العميقة على ما لدى هذا الشعب الإنجليزي من عبقرية كامنة، وبفضل قدرته على إعادتي خمسين عامًا إلى الوراء، لاستعادة ذكريات طفولتي الضائعة، وقراءات طفولتي الأولى، فلو كنت فرنسي الثقافة لذكّرك هذا المصنع بكتابات جول فيرن **Jules Verne**، ولو كنت لإنجليزي الثقافة لذكّرك هذا المصنع بكتابات هـ. ج. ويلز **H.G. Wells**.

(٥)

لم أكن أعرف أين نحن من الطريق إلى لندن، ولم يكن هذا المصنع الذي توقّفنا أمامه للتوّ ضمن برنامج زيارتي، شكّكت للحظة في أن السائق قد اختلق هذه الزيارة من دماغه، لأنه كان يلاحظ بطرف عينه ملامح الاندهاش على وجهي. وفجأةً هبط علينا الإظلام التام فلم نعد نرى أي شيء، باستثناء الطريق الذي تضيؤه كشّافات السيّارة. ظلّ السائق يقود السيّارة بسرعة متوسّطة لمدّة ساعتين أخريين، دون أن أتمكن من تبيّن أي شيء على جانبيّ الطريق. ثم فجأة بدأنا في سماع صوت طلقات مدافع، كأن الهجوم الجوّي الألماني المتوقّع قد بدأ بالفعل. شاهدنا -فيما أتيحت لنا رؤيته من سماء لندن الكبرى- بقعًا ضوئيةً منبعثةً من الكشّافات العملاقة، التابعة لبطّاريات الدفاع الجوّي، والباحثة عن الطائرات الألمانية في السماء.

في النهاية وصل بي السائق إلى المبنى العريق، مقرّ وزراة التموين

في شارع أدلفي **Adelphi** بلندن. الحمد لله وصلت في موعدي تمامًا، وكان الوزير في انتظاري، ولديّ الآن ساعة لإجراء حوار معه، لم أتوقّع أن يدور في أغلبه عن شكسبير. كان في اعتقادي أنه لا المكان ولا الزمان يسمحان بهذا الترف. كان مبنى الوزارة من الخارج، يشبه غيره من المباني اللندنية الفاخرة، المشيّدة بثراء شديد في عزّ العصر الفيكتوري، لكن نفس هذا المبنى من الداخل كان يشبه بيت الجنيّات في قصص الأطفال، فقط بفضل ما خرج من فمّ هذا الوزير، من أحاديث مدهشة.

منذ إعلان الحرب العالمية الثانية، يمكن اعتبار هذا الوزير، صاحب أكبر المسئوليات حجمًا في تاريخ الحكومة البريطانية، لأنه هو المسئول عن تموين الشعب من مدنيين وعسكريين، بكل ما يلزمهم من مواد غذائية وملابس، ووضع كل إمكانيّات وموارد الإمبراطورية البريطانية، في خدمة متطلّبات الحرب، والسهر طول الليل على أن يستمر العمل بنفس هذا الإيقاع المتسارع، في الآلاف من المصانع الصغيرة المتعدّدة الأغراض، المتناثرة في أرجاء المملكة المتحدة. كان يجب عليه أن يفكّر في كل شيء، طبعًا بالاشتراك مع فريق من المعاونين على قدر كبير من الكفاءة. كل شيء من اللبن المجفّف اللازم لغذاء الأطفال الرضّع، إلى زجاجات البيرة التي يستهلكها الجنود، كترف وحيد متاح على خطوط القتال.

كان مسئولًا عن تموين الجيش، وهو ما يعني الإشراف على كل الصناعات المتعلّقة بالجيش، وإمداد تلك المصانع باحتياجاتها، من ملايين الأمتار من الأقمشة الكاكية اللون، وكمّيات هائلة من الجلود،

t.me/qurssan

اللازمة لصناعة ملايين الأزواج من الأحذية العسكرية الثقيلة، القادرة على أن يخوض بها الجنود في جميع أنواع الأراضي دون أن تتمزّق. بالإضافة إلى إنتاج ملايين المدافع والبنادق والمسدّسات وسكاكين الجيب، وعشرات الملايين من الطلقات، ومئات الملايين من علب الأغذية المحفوظة. ناهيك عن المواد اللازمة لتشغيل سيّارات الجيش والسفن والطائرات من زيوت ووقود، وأن يتمّ استبدالها بغيرها في حالة التلف.

كانت آلاف المكالمات التليفونية اليومية، وآلاف البرقيّات التلغرافية، تتصلّ بوزارة التموين، للاطمئنان على حسن سير، كل هذه المسائل السابق الإشارة إليها أعلاه. بالإضافة إلى المكالمات التي تأتي من مقرّات كل الدول الحليفة لبريطانيا من سفاراتها بلندن، للاطمئنان على مستقبل هذه الدول، وفقًا للنتائج التي ستترتّب على وقائع سير العمليات القتالية. لم يكن قادة الجيوش يردّون على الاستفسارات، لكن موقف وزارة التموين، كان يمكن اعتباره مؤشّرًا كافيًا، للاستدلال على موقف الدولة البريطانية ككل.

(٦)

أرتجفَ من الرعب كلّما تخيّلت نفسي في مكان هذا الرجل وزير التموين، الذي استقبلني بابتسامة عريضة على وجهه، لا تبدو فيها أيّ مشاعر تدلّ على القلق، ولم يخلُ حديثنا تلك الليلة من روح الدعابة. تحدّثنا بالفرنسية التي يجيدها هذا الرجل إجادة تامة. بدأ حوارنا هكذا

مستعرضًا المشاكل التي تواجهه:

١- مشكلة الألومنيوم اللازم لصناعة ألف طائرة حربية جديدة، في كل عام من أعوام الحرب، هي مشكلة صعبة الحلّ، لو عرفنا أن حجم خام الألومنيوم الموجود حاليًا في مخازن كل الدول التابعة لبريطانيا، لا يكفي لإنتاج هذا العدد من الطائرات في عام واحد.

٢- زادت إلى الضعف سرعة كل وسائل المواصلات، الطائرات والقطارات والسيّارات، بين بداية القرن العشرين وبداية الحرب مع ألمانيا، وبالتالي زاد إلى الضعف حجم استهلاك الوقود المحرّك لكل هذه الآلات.

٣- في نفس تلك الفترة، زادت إلى الضعف سرعة معدّل إطلاق الرصاصات والمقذوفات بشكل عام، في كل الأسلحة القتالية، المدافع والبنادق والمسدّسات، وظهرت البنادق الآلية والنصف آلية، وبالتالي تضاعف حجم احتياج كل سلاح من الطلقات.

٤- كل هذا مع ملاحظة أن خطوط الإنتاج القديمة في المصانع بشكل عام لم تتغيّر، وفي المصانع الحربية بشكل خاص، لم تتغيّر منذ بداية القرن، وبالتالي لم يكن هناك أمامنا إلا حل وحيد، هو زيادة عدد المصانع إلى الضعف.

٥- أظهرت الإحصائيّات أن لكل شخص مقاتل على خطوط المواجهة الأمامية، ينبغي أن يكون هنك سبعة أشخاص في الخطوط الخلفية، يقدّمون له كل الإمدادات اللازمة لاحتياجاته.

t.me/qurssan

٦- في الحقيقة إن لديّ في فريق عملي كفاءات عديدة، تستطيع العثور على حلول لكل أنواع المشاكل، وتتميّز بعقليات ابتكارية استقلالية، وهذه العقليات هي من الثمار الجميلة لنظام التعليم الإنجليزي الذي يشجّع على الابتكار والاستقلالية.

خذ عندك مثلًا المهندس المسئول عن بناء أحواض جديدة لصناعة السفن، فقد اكتشفت أنه قادر في مدّة ثلاثة أشهر على تحويل أي قطعة أرض فضاء بالقرب من البحر إلى حوض بناء سفن. هذه هي النوعية الاستثنائية من البشر، الذين يظهرون في أوقات الأزمات لخدمة بلادهم، لكن على بلادهم أن تكون قبلًا قد ساهمت في تكوينهم الذهني منذ مرحلة طفولتهم.

٧- تتولّد الأفكار الجديدة في خيالات عقول

تعوّدت على حرّية الحركة،

عقول تعوّدت على التحليق في الفضاءات،

دون قيود تكبّلها في مكانها،

قيود لمصلحة تقاليد قديمة وأعراف بالية،

لم يعد لها لزوم في عالمنا المعاصر.

إنه من المفيد جدًّا لبريطانيا،

أن يكون لديها مثل هؤلاء الرجال،

في مثل هذه الأوقات العصيبة،

في مثل هذه اللحظات الحرجة،

التي يجب أن يحسب فيها الزمن بالثواني لا بالدقائق،

فبين انطلاق الطوربيد في اتجاه غوّاصة،

وبين إصابته للغوّاصة،

ليس لديك إلا سبع ثوانٍ.

t.me/qurssan

موضوعات ملحقة

١- أوّل محاولة للهروب

(١)

كنت وأنا طفل دون الخامسة، أقيم مع والدي ووالدتي وإخوتي في الإسكندرية، ثم قرّر والدي العودة إلى أوروبا، فغادرنا الإسكندرية التي لا أحتفظ لها في ذاكرتي إلا بصور لاحقة من مراحل لاحقة في العمر. أبحرنا بالسفينة في طريقنا إلى نابولي. أثناء اليوم الأول من الإبحار، قدّمنا والدي إلى قبطان السفينة القومندان آجوستيني، وهو رجل لئيم من جزيرة سردينيا، تتصل لحيته الكثيفة بشعر رأسه الكثيف، بحاجبي عينيه الكثيفين، بشاربه الكثيف، وكل هذه الكثافة هي من شعر شديد السواد، مما جعله يبدو في عيني الطفل الذي كنته، كما لو كان يضع فوق وجهه قناعًا من الشعر الأسود الكثيف تحت قبّعته الذهبية.

كلّف القبطان أحد بحّارته واسمه دومينجو، باصطحابي في جولة حول السفينة. كان دومينجو عملاقًا، ليس فقط في عيني الطفل الذي كنته، ولكنه كان عملاقًا حقيقيًا، قد لا يقلّ طوله عن مترين، بالقياس إلى طول جسم والدي. وهكذا ذهبت في جولة معه حول السفينة، في نفس

الوقت الذي كان فيه أخي (١١ سنة) وأختي (١٠ سنوات) يلهوان في صالون السفينة الكبير، وكانت أمي تفرد جسمها مسترخيةً، على أحد الكراسي القماشية الطويلة (شيزلونج)، الموجودة في شرفة القبطان القومندان.

كانت السفينة إيطاليا هي أول سفينة إيطالية عابرة للمحيط الأطلنطي في خط شبه منتظم، كان هذا في سنة ١٨٩١، حوالي عشرين عامًا قبل حادثة السفينة تايتانيك. هذا الخط كان يبدأ من ثلاث نقاط، في الإسكندرية، أو في بيروت، أو في ليماسول، لتتوقّف السفينة بعد ذلك في موانئ البحر المتوسّط الأخرى، مثل ميناء بيريه، ومنه إلى مينائي أثينا وتسالونيكي في اليونان، ثم في مينائي بريнديزي ونابولي في إيطاليا. كان أبي قد قرّر أن يغادر السفينة في نابولي لمدّة يوم واحد بسبب أعماله، على أن يلحق بنا فيما بعد، عندما تتوقف السفينة بعد ذلك في جنوة.

بالتدريج تمتلئ السفينة عن آخرها بالركّاب، عندما تتوقف في مارسيليا وبرشلونة وملاجا، فبينما ينزل بعض الركّاب مثلًا من الفرنسيين أو الإيطاليين المقيمين في مصر، لقضاء إجازاتهم الصيفية في أوروبا، يحلّ محلّهم ركّاب آخرون، وجهتهم هي العالم الجديد في الأمريكتين. تنطلق السفينة عبر المحيط الأطلنطي إلى نيويورك، ويستغرق عبور الأطلنطي أحد عشر يومًا، وهو في ذلك الوقت رقم قياسيّ.

كنت قد تفاهمت مع العملاق دومينجو، على أن يخفيني في مكان ما على ظهر السفينة، قبيل وصولنا إلى نيويورك، حتى أغادر السفينة معه هو لا مع أمي وأخي وأختي. كنت جادًّا إذنْ في الاعتقاد، أن أمي وأبي يمكنهما

t.me/qurssan

أن يتركاني هكذا ببساطة، أقرّر ماذا أريد أن أفعل بحياتي، في هذا السنّ المبكّر. وهكذا اعتقدت أنه يمكنني الحياة في نيويورك مجهولًا دون أن يتعرّف عليّ أحد، وأبدأ كفاحي في الحياة مبكّرًا، وأتمكن من الإقامة في واحدة من أكثر ناطحات سحاب نيويورك ارتفاعًا. من العجيب جدًّا أن خطرت في بالي هذه الأفكار، فإلى هذا الحدّ كنت أريد الهرب من الأسرة.

اكتفى دومينجو مقابل تحقيق هذا الحلم لي، بالحصول فقط على ما كنت قد ادّخرته في كيس نقودي من مال. كان مبلغًا تافهًا. كنت في الخامسة من العمر، ما زلت أتمتّع بسذاجة الطفولة البريئة، إلا أنني كنت أتمتّع كذلك بذاكرة تلتقط التفاصيل، ولا يمكن أن أنسى ما يقال لي.

لم يعد أحد يراني في كل تحرّكاتي على ظهر السفينة، دون مرافقي وحارسي الشخصي العملاق، الذي كان يحاول جادًّا أن يحقّق لي كل رغباتي. اقتادني مثلًا إلى الغراب الذي كان قد صنع لنفسه ولصغاره عشًّا، في قمّة أعلى جزء في السفينة. ثم اقتادني إلى أعماق السفينة، حيث اقتربت جدًّا من الآلات الضخمة في حجرة محرّكات السفينة. كانت تلك الأجزاء ترتجف في ذبذبات منتظمة. كنت أنصت إلى صوت خرير الماء القادم من البحر لتبريد المحرّكات، والعائد إلى البحر بعد أداء مهمّته.

كنت أنصت كذلك إلى صوت ارتطام هذا الجزء من السفينة بمياه البحر، الذي كان يأتي مرة من جهة اليمين، ثم يأتي مرة أخرى من جهة اليسار، بالإضافة إلى صوت صرير الجنازير المستمر تقريبًا طول الوقت،

مما جعلني أتخيّل كما لو كانت هذه الأصوات صادرة، عن حيوان خرافي متوحّش محبوس في مكان ما. إلا أنني لم أكن خائفًا، وذلك لأن العملاق كان ممسكًا بيدي. ورغم أنه حاول إخافتي عند بطن السفينة، قائلًا إنهم يلقون هناك بالأطفال الأشقياء، إلا أن تواطؤه معي في تحقيق حلم الحرية، والخلاص من أسر الأسرة في نيويورك، جعلني أطمئنّ له.

(٦)

كانت أمي غافلة تمامًا عمّا يدور في خيال طفلها الغرير. ذهبت مع العملاق إلى مشرب البحّارة. كان هناك دائما بعضٌ منهم يجلسون، يدخّنون ويحتسون الجعة. كنا نتحدّث لكني لم أكن أستطيع التركيز في الكلمات، لأني كنت مشغولًا بمراقبة هؤلاء الرجال، بلحاهم الكثيفة على غرار قبطانهم ذي الرأس المربِكة. لكني لم أنسَ أبدًا كلمةً واحدةً مما حكاه لي دومينجو عن مدينة مسقط رأسه تاورمينا، التي كان يسمّيها المدينة الملوّنة.

لم أنسَ كلمةً واحدةً مما قاله العملاق لي ذلك اليوم، إذ قال: «إنها مدينة الغيلان البحرية»، مستمرًّا في مضغ التبغ طول الوقت أضاف: «هي نفس الغيلان التي يمكننا أن نراها في أحواض تربية الأسماك في نابولي وفي غيرها من المدن حول العالم». «يمكننا أن نرى بعض الغيلان الصغيرة في عروض السيرك والملاهي، كما يمكن رؤية بعضها محنّطًا للعرض في صناديق زجاجية وقد كتبت عليها عبارة ممنوع اللمس».

وبخصوص موضوع آخر عن نفس المدينة، قال: «في تاورمينا ليست

t.me/qurssan

هناك كهوف عامة لتخزين النبيذ، لأنه في أسفل كل بيت يوجد كهف يخصّ أهل البيت. في تلك الكهوف أو المغارات القريبة من البحر، يمكنك أن ترى الكائنات البحرية التي تذهب وتجيء طول الوقت، بين الكهوف وأعماق البحر، على خلفية من أصوات الرياح والأمواج، وهي تخور وتجأر وتئنّ». إذنْ فمهما اختلف موضوع الحديث، فإن العملاق يعود إلى موضوعه الأثير، الكائنات الغريبة والغيلان. هل يمكنك أيها القارئ أن تتخيّل حجم الخيالات التي تولّدت عن كلام هذا العملاق في ذهن الصبي الصغير الذي كنته؟ لماذا كان مصرًّا على محاولة إخافتي؟

عندما عرف أنني لا أجيد العوم قال: «هذه المغارات عميقة جدًّا تبتلع الأطفال الذين لا يُجيدون العوم، أمّا الذين يعومون فيمكنهم إنقاذ أنفسهم، إلا أنهم رغم ذلك لن يتمكنّوا من العودة من أعماق البحر إلى مدينتهم الحبيبة، إلا بعد أن يكونوا قد أصبحوا رجالًا ونساءً ناضجين، لكنهم في حال عودتهم سيصبحون حتمًا إمّا مهبولين أو خنازير. أمّا الفتيات الذكّيّات فإنهنّ عندما يصعدن إلى سطح الماء، يصبحن إمّا جنّيات بحر، أو أميرات في العالم السفلي، لكن تعسًا للبحّار الذي يمارس الحب مع جنّية بحر، لأن أطفاله منها لن يكونوا إلا من بين قروش البحار أو أو أسماك المنشار». لم أفهم عبارة «يمارس الحب»، إلا أنني لم أجرؤ على مقاطعته.

استأنف كلامه: «أمّا الأطفال الذين ينجون بأنفسهم من الغرق وهم أطفال، ثم يعودون إلى الأرض بصفتهم أطفالًا، فسيكونون مشوّهين جسمانيًّا حتى نهايات حيواتهم. هذا هو السبب في أنك ترى الكثير من أفضل البحّارة وهم مشوّهون. هؤلاء هم الذين يقومون بطلاء مباني

ومساكن تاورمينا بالألوان، عندما يذهبون إليها بغرض الزواج من فتياتها، لكنهم أثناء ذلك يقومون بإضافة رسومات حائطية مليئة بالألغاز، لا يمكن لأحد على الإطلاق أن يفكّ شفراتها. يحاول بعض المفسّرين أن يقولوا إن هذه الرسومات تحكي عن مغامراتهم في ماضي أيّامهم، أو أنها نبوءات لما سيحدث في مستقبل الأيام».

«المشكلة هي أن عدد سكان تاورمينا في تناقص مستمر، فحلم الذهاب إلى الماء يجذب كل الرجال، الذين قد لا يعود بعضهم أبدًا من رحلاتهم. ثم إن السماء بكل ما تحتويه نهارًا وليلًا، من عصافير ونجوم ورياح وأدخنة، هي سموات خادعة بكل المقاييس، فلا يمكن أن يستدلّ بها وحدها على انقضاء الزمن. إن المياه خادعة، وذلك لأن هناك بحّارة من تاورمينا، يقذفون بأنفسهم في مياه البحر، وهم يقصدون البحث عن نجوم رأوها في السماء. لذلك أقول لك إن المياه خادعة».

(٣)

أثناء حديث العملاق معي، لاحظت أن بحّارة عنبر النوم يوجّهون إليه ملاحظات تسخر منه، فبسبب ارتفاع حرارة الجوّ، كانوا يستريحون وقد خلعوا الملابس عن النصف الأعلى من أجسامهم. جميعهم كانوا مشعرين تمامًا من الأمام ومن الخلف، لذلك فهمت تقريبًا السبب في سخريتهم من العملاق، فهو رغم ضخامة جسمه، إلا أنه لم يكن لديه أي شعر في النصف الأعلى من جسمه، لا من الأمام على بطنه ولا من الخلف على ظهره. كان لديه وشمٍ أسفل ثديه الأيسر، على شكل فمّ

t.me/qurssan

بشري صغير بشفتين مضمومتين، كما لو أن امرأة كانت قبّلته في هذا الموضع، فتركت أثر شفتيها على بشرته.

هو كان يدّعي أن هذا الوشم هو الأثر المتبقّي من عضّة ثعبان بحر، قصد أن يعضّه في هذا المكان ليصل سمّه مباشرة إلى القلب. هو كان يدّعي أن هذا كان انتقامًا منه، لأنه في طفولته كان قد خنق أحد ثعابين البحر، الذي جاء زاحفًا من جهة البحر، نحو المهد الذي كان قد وضع به العملاق طفلًا. تمامًا كما فعل هرقل بطل الأسطورة الإغريقية القديمة في طفولته. قال العملاق إن هذا السمّ هو المتسبّب في فقد شعر نصفه العلوي من جهتي البطن والظهر.

لم تكن لبحّارة السفينة دواليب يضعون فيها أمتعتهم، بل كان لكل منهم صندوق خشبي لهذا الغرض. عندما فتح العملاق الصندوق الذي يخصّه، تمكنت أن أرى عددًا من الزجاجات والأواني الصغيرة المحتوية على ترياق لسموم الثعابين، في شكل سوائل ومراهم مختلفة الألوان، كان العملاق مستمرًّا في دهان جسمه بها طول الوقت. أخرج البحارة من الصندوق وهم يسخرون، بعض الأشياء الأخرى حتى أراها، منها مثلًا سفينة صغيرة موضوعة داخل زجاجة، شرح لي لاحقًا طريقة وضعها داخل هذه الزجاجة.

كانت هناك كذلك بطاقات بريدية لمناظر مأخوذة من البحر، لمدن ساحلية آسيوية. فرس بحر صغير محنّط، وهي سمكة لها نصف علوي شبيه برأس وعنق الخيول، تسبح وهي تحتفظ بجسمها في وضع أفقي. فرع من الشعاب المرجانية، وهي نباتات بحرية متحجّرة. قوقعة بحرية

كبيرة جاء بها من المياه الجنوبية وضعها العملاق إلى جوار أذني لأنصت لصوت أمواج البحار الجنوبية.

رغم كل هذه الإثارة المصحوبة بضوضاء هائلة من الضحكات والنداءات، التي يسمح البحّارة لأنفسهم بها، فهم في نهاية الأمر في عنبرهم الخاص بهم، ورغم الروائح الحادة لعرقهم ولبولهم، وروائح عفونة قادمة من أركان العنبر لأطعمة تركت حتى فسدت، جعلت التنفّس مسألة صعبة، خاصة في حالة انعدام التهوية، حيث لا تسمح نوافذ العنبر الصغيرة المستديرة بحركة حرّة للهواء، رغم كل هذا إلا أنني تمكنت أخيرًا من النوم معهم.

عند التوقّف في نابولي أخفاني دومينجو أسفل أغطية فراشه، ولمزيد من التمويه وضع فوق جسدي الصغير المزيد من الأغطية والملابس القذرة في شكل كومة كبيرة، ثم وضع فوق كل هذا آلة جيتار كانت لبحّار بساق واحدة، حتى كدت أختنق. تحت هذا الثقل لم أكن أستطيع الحركة. كنت فقط أنصت إلى صوت دقّات قلبي المرتفعة.

أصخت السمع كذلك لصوت البَكَرة التي تدور حولها السلاسل الحديدية التي ألقوها في الماء، وصوت المرساة الحديدة الضخمة التي كانت في طرف السلاسل، لحظة ارتطامها بالمياه. ثم صوت متكرّر لأبواق السفينة وصافراتها، تعلن رسوّها في مواجهة الميناء. ثم أصوات النداءات تنطلق في اتجاهات مختلفة، من قوارب صغيرة إلى سطح السفينة وبالعكس، بين ركّاب السفينة الذين ينوون النزول إلى الشاطئ، وبحّارة المراكب الصغيرة التي من المفترض أن تقودهم إليه. في ذلك

t.me/qurssan

الوقت لم يكن متاحًا لسفن عابرة للمحيطات -ذات غواطس عميقة، وذات حمولات كبيرة بحجم (إيطاليا)- بالرسو على الرصيف.

أنصتُّ كذلك إلى نعيق الزورق البخاري الذي سيقوم رجاله بالتفتيش، على اشتراطات الأمان المطلوبة للإبحار. ثم سمعت اسمي يتردّد عاليًا عشرات المرات كأنهم كانوا يبحثون عنّي، فرغم كل هذه الأغطية التي كدت أن أختنق تحتها جاءني اسمي واضحًا، منطوقًا بأصوات مرتفعة. ذهبت بعد ذلك مباشرة في نوم عميق، غالبًا كان بسبب المواد الكيميائية المخدّرة المستعمل بعضها في دهانات جسد العملاق دومينجو، وقد اعتاد دهان نصفه الأعلى بها والذهاب إلى الفراش، مما جعل أغطية الفراش تتشبّع بها تمامًا، أثناء تقلّبه خلال ساعات الليل.

(٤)

فيما بعد عندما سيحكي والدي هذه المغامرة مرّات عديدة، كان في كل مرة يؤكد أنني كنت على وشك الوقوع ضحيّة عملية اختطاف، قام بها وأعدّ لها أعضاء من جمعية اليد السوداء **Mano nera** . كان والدي في ذلك الوقت يعتبر من بين أثرياء إيطاليا، وكان المحاسب السابق لوالدي، هو في الحقيقة عضوٌ من أعضاء جماعة اليد السوداء، التي كانت ذات ميول شيوعية، تسرق الأغنياء وتعطي للفقراء، طرده والدي بسبب عدم أمانته، لذلك اعتقد والدي أنه أراد أن ينتقم منه.

أمي وحدها وجدت الحلّ لاستردادي. أعطت دومينجو عملة ذهبية. وقد تقرّح قلبي نتيجة خيانته لي. ظلت أمي بعد ذلك ولسنوات طويلة

دائمة القلق على مصيري. أتذكر أنه عندما جاء دومينجو لإيقاظي من النوم، اعتقدت للحظات أننا قد وصلنا إلى نيويورك. ثم كانت صدمتي شديدة عندما وجدته يرفعني ويضمّني إليه، وهو يقبض على بعنف محيطًا جسمي الصغير بذراعيه، وهو يعبر ممر العنبر، ثم وهو يصعد السلم إلى سطح السفينة، الذي وجدت أمي تنتظرني في أعلاه، ومعها القبطان القومندان البشع المنظر، بالإضافة إلى اثنين من ضبّاط السفينة البشعين.

في تلك اللحظة أصبحت طفلًا آخر، إذ حاولت يائسًا أن أدافع عن نفسي، باكيًا صائحًا متشنّجًا، ناشبًا أظافري الصغيرة في وجه البحّار الخائن، الذي لم تكن تنقصني الرغبة في قضم أذنيه بأسناني، أو في توجيه لكْمة بقبضة يدي إلى طرف ذقنه، ليفقد على إثرها لفافة التبغ التي كان لا يزال يلوكها محتفظًا بها في فمه، أو في أن أضرب أسفل بطنه بركلات من قدميّ. لكني لم أقل شيئًا، ولم أفعل شيئًا، فقط حبست أنفاسي، وحاولت أن أتثاقل بين ذراعيه أثناء صعوده السلم.

ضمّتني أمي إلى صدرها. كنت تعيسًا ثم سقطت مريضًا. قال الطبيب لأمّي: «أنتِ تعرفين أنه ليس مريضًا، لكنه مصاب بأحد أعراض الطفولة، إنها حالة تقليدية كلاسيكية، لكنها ليست خطيرة بأي حال من الأحوال، فقط عليه أن يستريح في فراشه، ويحتسي قدرًا كبيرًا من الحليب وعصائر الفواكه، مما سيعيد إليه لون بشرته الوردية، وفي المساء قبل الذهاب إلى النوم، يمكن أن يعطى مشروبات ساخنة، مثل نقيع النباتات العطرية، أو نقيع زهرة البرتقال، فبمجرّد احتسائه لبضع قطرات من هذا النقيع سيذهب في النوم.

t.me/qurssan

٢- أوّل وقوع في الحبّ

(١)

مدينة برست على ساحل شمال غرب فرنسا، تمّت تسويتها بالأرض بعد الحرب العالمية الثانية. يؤلمني جدًّا أن أتخيّل حجم الدمار الذي حلّ بها. البعض يمكنه أن يحتفظ في ذاكرته، بالصورة التي كان عليها الميناء قبل الحرب، وبالأبراج العملاقة التي كانت في أحواض بناء السفن، وبالكباري من الحديد المصفّح، وبالمدافع ذات القذائف بعيدة المدى التي كانت محمولة على بوارجها، التي كان يمكنها الإبحار في أعالي البحار. من وجهة نظري فإن لبرست ملمحًا إنسانيًّا أنثويًّا. ولشرح وجهة نظري يمكنني أن أبدأ بالكلام عن (الدجاجة الحلوة)، وهو اسم سفينة شراعية من القرن الثامن عشر على زمن لويس السادس عشر.

كانت قد سمّيت كذلك لكثرة الانحناءات والحنيات والأقواس بها، وكلها مذهّبة ومتضافرة معًا من رأسها إلى أخمص قدميها، أي من قمّة صاريها الأعلى إلى قاعدتها، على مستوى الثلاثة أدوار التي تتكوّن منها هذه السفينة.

حدث أن اندلعت النيران لسبب أو لآخر عند مرسى برست، يوم هبّت فيه عواصف من رياح الشمال العنيفة، فامتدّت نيران اللهب إلى كل

أشرعة السفن، وأودت بالسفينة في نهاية اليوم إلى مخازن كُهنة البحرية. حتى اليوم تستمر رياح الشمال العنيفة في الهبوب، فتتحرك الستائر التي تفردها المقاهي فوق رؤوس روّادها، وتتحرك كذلك التنّورات القصيرة البيضاء، التي ترتديها الفتيات من صديقات البحّارة وضبّاط البحرية، ويتحرّك كذلك الريش الذي يزيّن قبعاتهن، والعلم المرفوع فوق مبنى البحرية الفرنسية.

من بين الضبّاط كان هناك شاب ذو عينين محمومتين، برتبة لفتنانت (نقيب) في البحرية الفرنسية. سيقفز ذات مساء هو وفتاته، في القطار السريع المتّجه إلى باريس، التي يصل إليها في صباح اليوم التالي، في محطّة قطارات مونبارناس في قلب باريس. يهبطان معًا من القطار بعد أن يكون هو قد تخفّى في زيّ مدنيّ، فيغزوان معًا العاصمة حتى تصبح فتاته تلك ذات يوم، وقد وجدت نفسها تحمل لقب (أميرة باريس).

(٢)

هذه الفتاة كانت حبّي الأول، مدام بوربر التي كان اسمها الأصلي هو آلياس ليان. كنت في الحادية عشرة من العمر، أسكن مع والدي الذي كان قد انفصل رسميًّا عن والدتي، أقضي لديه فقط شهور الإجازة الصيفية الثلاثة، بالقرب من شارع فيكتور هيجو، حيث كانت تسكن هي في منزل تحيط به حديقة كبيرة، فأتحرّى أن أكون أمام باب حديقة منزلها كل يوم في الساعة الواحدة ظهرًا، حيث اعتادت هي على الخروج لتتمشّى قليلًا حول أشجار الآكاسيا.

t.me/qurssan

كنت أحاول أن أتحرّك في الشارع بما يسمح لي برؤيتها أطول فترة ممكنة. كنت أبدو في كامل أناقتي، بشعر رأس منعّم مسرّح معطّر، وبيدين نظيفتين مغسولتين، وبأظافر أصابع مقصوصة بعناية، واضعًا كل يوم ياقة نظيفة لقميصي، ورباط عنق جميل. باختصار لم يكن مظهري يسمح لأي شخص بأي نقد.

كانت عندما تظهر على السلّم المؤدّي إلى الحديقة، أرفع لها قبّعتي كعلامة للتحيّة، ثم يحدث على الفور احمرار عنيف لبشرة وجهي، يصل إلى بصيلات شعر رأسي. أخفض رأسي فلا أعود أرى إلا ثوبها الطويل الذي يحفّ بأرض الحديقة حول قدميها. في تلك اللحظات كنت أنضح بمشاعر مضطربة، بسبب إعجابي الشديد بها. قد يكون من غير المفيد أن أذكر -كما سبق وقال بلزاك- أن ملاكي لم يكن يلاحظني البتّة، بهذا الخصوص كان بول موران قد قال: «آباؤنا هؤلاء العمالقة»، وأنا برحابة صدر أضيف إلى ذلك: «وجلالتها كانت الملكة الأنثى امرأة باريس ١٩٠٠ عن جدارة».

٣- شقّة عزّاب

(١)

كان لي في فرنسا ذات يوم سبعةً وعشرين مقرًّا مختلفًا، أحدها كان في طولون Toulon، لم أختره بل جاءني بشكل قدريّ، دفعت فيه ٨٠٠ فرنكًا فرنسيًّا، قيمة استئجاره لمدة عام. لم يكن هذا المقر شقّة، بل كان مجرّد حجرة معلّقة فوق سطح إحدى البنايات. لكنها في الحقيقة كانت كبيرة المساحة. كانت تطلّ على أحد أحواض بناء السفن في مرفأ طولون.

كانت قليلة التأثيث، دعني أقول إلى الحد الأدنى. مجرّد مائدة طعام مربّعة الشكل في أحد أركان الحجرة، وفي ركن آخر يوجد مكان للنوم. قطعة الأثاث الموجودة في هذا الركن المخصّص للنوم، تشبه أريكة طويلة عريضة، يمكن بسهولة لثلاثة أشخاص بالغين أن يناموا عليها سويًّا. في ركن ثالث كان هناك المطبخ، الذي يشبه قوقعة بحرية صغيرة لضيق الحيّز الذي يشغله.

في الركن الرابع والأخير، كان يوجد ما يشبه الدوش، المتصل بماسورة مياه، يمكن استعماله في الحصول على استحمام على الواقف. وحيث إنه لم تكن هناك على السطح، ماسورة مياه أُمّ يمكنها أن تغذّي

t.me/qurssan

ماسورتي الفرعية الصغيرة بالمياه، إذ كانت الماسورة الأم تتوقّف عند الطابق الأخير، لذلك للحصول على حاجتي من المياه، كان عليّ الذهاب إلى صنبور ماء عمومي، في الميدان بالقرب من حوض بناء السفن.

ليس لديّ على الإطلاق ما يمكنني أن أحكيه عن هذه الغرفة، حيث إنه خلال إقامتي بها، لم يحدث أبدًا أي شيء يستحق أن يحكي. باستثناء وحيد هو أنه يمكنني أن أحكي عن ممارسة الحبّ مع بعض الفتيات، اللائي جئن إلى هذه الغرفة بطريق الصدفة البحتة. بالإضافة إلى بعض الزيارات الأخرى التي قام بها بعض أصدقائي الباريسيين، القادمين إلى طولون بسيّاراتهم الفاخرة، الذين لم يكن عليهم حتى ولا إبلاغي مقدّمًا بأمر الزيارة، إذ كانوا كلهم يعرفون كلمة السر، التي يمكنهم بها الحصول على مفتاح الغرفة من حارسة العقار. ذلك حيث إنني في تسعة أعشار حالات زياراتهم المفاجئة لي، لم أكن موجودًا في الغرفة.

(٢)

كان أغلب أولئك الأصدقاء الباريسيين يحضرون معهم صديقاتهم، ليصعدوا جميعًا إلى حجرتي المهجورة، حيث يمكنهم ممارسة الحبّ. هم لم يحكوا لي أبدًا عن أي شيء استثنائي حدث في هذه الحجرة. لكن حدث لاحقًا في باريس، بعد أن انتهت إقامتي في طولون بسنوات، أنني عندما كنت أقابل بالصدفة في أحد الأماكن العامة، أحد هؤلاء الأصدقاء الباريسيين، الذين سبق لهم الحضور عندي في حجرة طولون، أن كان كلٌّ منهم يقدّمني إلى صديقته، بصفتي صاحب شقّة طولون، التي سبق

لها هي الأخرى الحضور إليها. وقد أصبح بعضهنّ زوجات أصدقائي الشرعيات، أو استمرّ بعضهن في حمل صفات أخرى كالخليلة أو العشيقة، كنت أستطيع أن أدرك بنظرة واحدة إلى عيني المرأة، إن كانت قد مارست الحبّ في حجرتي مع صديقها هذا أو أن ذلك لم يحدث.

كانت الفتيات غالبًا عندما أقبلهنّ، لا يعلّقن إلا على المخزون الهائل من المشروبات الكحولية المختلفة، التي كنت أحتفظ به في حجرة طولون تلك. بدوت لهنّ على ما أعتقد، كما لو كنت قرصانًا بحريًّا، قد عاد لتوّه من رحلة استيلاء، على مقتنيات مخازن مشارب وبارات الجزر التي غزوتها. غالبًا كانت تلك المشروبات القوية التأثير هي صاحبة الفضل في إدارة رؤوس النساء، مما كان يسهّل على الرجال والحالةُ كذلك، إنجاز مهمّاتهم التي جاؤوا من باريس إلى طولون من أجل إنجازها.

أمّا ثاني أكثر التعليقات الواردة على ألسنة أولئك النساء، فكانت تدور حول الأريكة، التي اعتدت على أن أطلق عليها أمامهنّ اسمًا عربيًّا هو (الهودج). هذا الاسم لم يأتِ اعتباطًا، بل هو مرتبط بطبيعة تلك الأريكة، التي كانت ترتفع قليلًا عن الأرض، كلما امتطاها شخص أو شخصان، كما لو كانا في سبيلهما إلى دخول هودج موضوع فوق ظهر أحد الجِمال. أو بالنظر إلى حجم الأريكة، بالأحرى سيكون الهودج موضوعًا فوق ظهر فيل، مما سيجعلك تترنّح قليلًا لو كنت فوق ظهره.

t.me/qurssan

(٣)

لم تسألني أيّ امرأة ولا مرةً واحدةً عن كيفية حصولي على هذه الأريكة الهودج العجيبة، التي كانت تبدو لهنّ كما لو كانت كائنًا حيًّا، ذا ردود أفعال. أنا كنت أستأجر هذه الحجرة المفروشة، من أحد ضبّاط البحرية الفرنسية برتبة أدميرال، لذلك أتساءل هل يمكننا أن نسخر من أدميرال في البحرية الفرنسية؟ هل يمكننا أن نسخر من محتويات شقّة أدميرال في البحرية الفرنسية؟ هل يمكننا أن نلوّث شرفه، أو أن نعرّضه للشبهات، أو أن نحرج موقفه؟

عندما أراد المؤلف جول فيرن Verne، أن يسخر من مجرّد أحد جنود البحرية الفرنسية، وضعه في نكتة ساخرة فوق ظهر بغل، ولكنه ما كان ليجرؤ على وضع أدميرال فوق ظهر جمل أو فيل، حتى لو كان هذا الفيل ميكانيكيًّا آلي الحركة. لم يكن جول فيرن ليجرؤ على السخرية من أدميرال أعالي البحار، لكن أقصى ما كان يمكنه أن يفعله، هو أن يسخر من نقيب أو رائد بحريين، أو حتى من قومندان إقلاع سفن، ولكن لم يكن من الممكن له أن يصعد في رتب البحرية العسكرية إلى أكثر من ذلك.

ثم لماذا أسخر من أدميرال بحري، سمح لي بأن أستأجر منه حجرته، بين أعوام ١٩٣٦ و١٩٣٩، لسبب وحيد وهو أن مرتبه لم يكن يكفيه. إذ إنه كان يحتاج إلى هذا المبلغ التافه الذي أدفعه له. هذا الأدميرال البائس الذي لا يعلم إلا الله وحده ماذا كان مصيره في نهاية الحرب، هل ظلّ على قيد الحياة أم لا؟ على أي حال لقد غطست ذكريات طولون على

الفور في بحر من الأفيون.

إنها في الحقيقة مأساة، أو فلنقل إنه الخزي والعار، لكاتب أو أديب مثلي، أن تضيع كل ذكريات هذه المدينة من دماغي، لأني في ذلك الوقت أغرقت نفسي في الأفيون. إذن إنه الوداع أيتها المصطافات الجميلات الشابات المجنونات، الوداع الذي لن يكون بعده من جديد أي لقاء، أيتها القادرات على تحمّل اهتزازات السفن أو الهوادج، من أجل إشباع غواية الرغبات المسيطرة على أجسادكنّ.

t.me/qurssan

٤- بابلو بيكاسو

(١)

منذ الزمن الذي توقّفت فيه الأساطيل الملكية الحربية المتفاخرة لملوك كل من فرنسا وإنجلترا عن الاقتتال في البحار الجنوبية والشمالية، أصبح يمكننا أن نرى هذه القلاع الحربية القديمة وقد انتزعت عنها صورايها، وإلى جوارها الفرقاطات الحربية، التي كانت مكلّفة بأن تجوب السواحل في عمليات استكشاف وحراسة ومراقبة مستمرة، طوال الأربع والعشرين ساعة كل يوم، أو كانت في الزمن القديم تدخل المضايق البحرية في استراحات قصيرة قبل استئناف التجوال الدائم، أو تذهب إلى الموانئ لإصلاح أعطاب أصابتها، أو للتخفّف من حمولاتها من عمليات النهب والسلب المستمرّة لسفن الأعداء.

هذه السفن والفرقاطات يمكننا أن نراها الآن في منظرها المزري البائس، وقد أُهْمِلَت إهمالًا تامًّا، على شواطئ وسواحل وموانئ شمال غرب إسبانيا، المطلّة على المحيط الأطلنطي في أستوريا وجاليسيا.

يمكننا أن نرى هذه النماذج الجميلة من العمارة البحرية الملكية القديمة، المنتمية إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد تفكّكت بعض أجزائها، ليعيد الأهالي والسلطات المحلّية استعمالها في أغراض

شتّى عجيبة، بل في أغراض شديدة التباين، فقد تمّ تحويل بعض هذه السفن إلى سجون مدنية، وبعضها الآخر إلى مدارس ابتدائية، أو ملاجئ لأطفال الشوارع أو للعجزة وكبار السنّ، أو مقرّات مؤقتة لمهاجرين قادمين من إفريقيا أو آسيا، أو إلى مكاتب إدارية مدنية لاستخراج الأوراق، أو حتى إلى كنائس ودور عبادة متعدّدة الأغراض، أو إلى أديرة رهبان ونسّاك كاثوليك.

تعرّضت هذه السفن القديمة ذات الصواري إلى ضربات متلاحقة متعدّدة، أوّلها كان في منتصف القرن الثامن عشر باختراع المحرّكات البخارية، ثمّ كانت الضربة القاضية في نهاية القرن التاسع عشر، باختراع المحرّكات الكهربائية.

أما في بدايات القرن العشرين، فلم يجد السكّان المحلّيون -من قاطني السواحل الشمالية الغربية لإسبانيا- طريقة لزيادة بؤس وجهامة هذه القلاع الملكية القديمة، إلا باستعمال جدرانها في عرض الملصقات التجارية، أو الملصقات السياسية، مثل تلك التي تدعو العمّال المحليين إلى تنظيم إضرابات عامة، أو تدعو المهاجرين إلى تجمّع شعبي في وسط المدينة.

هكذا عرفت بموضوع ذلك التجمّع الشعبي. كان من عادة السكّان المحليين وضع ملصقاتهم الدعائية التجارية والسياسية على جوانب سيّاراتهم من ماركة فورد الأمريكية، ويجوبون بها الشوارع وهم يطلقون أبواقها دون توقّف، أو على جوانب عربات ترامهم الكهربائي الصغيرة المضحكة، التي تغطّيها تمامًا تلك الملصقات، وهي تخترق الأجواء

t.me/qurssan

الترابية لهواء المدينة.

(٢)

لن أذكر عن شعب هذه المنطقة من شمال غرب إسبانيا، إلا أنهم أناس في حركة دائمة، فإمّا أنهم على وشك الوصول من مكان ما، أو أنهم على وشك الرحيل إلى مكان ما. ثم إنه لا يمكنك أن ترى في أي مكان آخر في أوروبا سلطات محلّية تعامل الأهالي، مثل هذه المعاملة السيّئة، وبهذه الدرجة من العنف والقسوة، مثلما تفعل سلطات المدن الإسبانية مع سكّانها، وهو في الحقيقة ما يقف عائقًا أمام رغبة أي عابر لميناء هذه المدينة، أن يترك سفينته ويضع قدمه على رصيف الميناء، حتى لو كان ذلك لفترة قصيرة جدًّا، لملء فراغ الوقت مع زجاجة وامرأة.

يمكنك أن ترى قبل أن تحطّ الرحال/ فنارًا يبدو لك في الأفق البعيد

كما لو كان عذراء مريم عملاقة/ فمن الخارج قد تبدو المدينة الإسبانية

كما لو كانت مدينة صغيرة جميلة وديعة/ إلا أنك بمجرّد أن تضع قدمك على الأرض

ستكتشف كومة من الأتربة ودخّان المصانع/ مع ناطحتي سحاب أو ثلاث تبزغ في سماء البلدة

في مروري الثالث (أو الرابع) بهذه المدينة الساحلية، قررت أن أضع قدمي على الأرض. نزلت إلى رصيف ميناء لاكورونيا. تركت نفسي أنساق وراء الرغبة في الذهاب لعمل جولة في المدينة. كانت

السماء ممطرة كما هي العادة في منطقة سواحل جاليسيا. كنت أرتجف داخل معطفي الواقي من المطر. هكذا بدأت تسكّعي دون هدف محدّد في شوارع قذرة. هي مدينة يبدو فيها أنك لا تستطيع أن تعثر على مطعم أو مقهى نظيف، يمكنك أن تحصل فيه على وجبة طعام محترمة، أو مشروب دافئ نظيف.

توقّفت لحظات داخل كنيسة مثلّجة الهواء. لم أستطع زيارة مكتبة المدينة ولا متحفها، وذلك لأن اليوم هو عطلة رسمية، وهذه الأماكن تكون مغلقة، في أيام العطلات الرسمية. لم أتمكن حتى من دخول صالة من صالات العرض السينمائي، لأني لم أجد شريطًا سينمائيًّا مشجّعًا. توقّفت لحظات مرة بعد أخرى، أمام الواجهات الزجاجية لبعض المحلاّت التجارية، التي تعرض بعض المنتجات، إلا أن كل ما رأيته كان رديء الصنع. لاحظت أن صيدليات المدينة لديها الكثير من المنتجات الدوائية المصنوعة في ألمانيا.

(٣)

في جولتي تلك لاحظت أنني كلما توقّفت للحظة، ظهر خلفي أو بالقرب منّي، مجموعة من ثلاثة أو أربعة من الصبية. كأنهم كانوا يراقبونني ويقتربون منّي عندما أتوقّف. أصبح هناك عدد متزايد من الأطفال والصبية يسير خلفي. تبعوني في كل الأماكن التي توقّفت أو تباطأت فيها. كان يبدو على مظهرهم الفقر والفاقة، بل أكاد أقول إنهم كانوا يتضوّرون جوعًا.

t.me/qurssan

جلست إلى أحد المقاهي، طلبت فنجانًا من القهوة مع قطعة من المخبوزات الهلالية (كرواسان). اقترب مني أحدهم. قدّمت إليه قطعة الكرواسان. رفضها وطلب مني سجائر. عندما بدا على وجهي الاستغراب، طلب مني نقودًا.

ظهر في الميدان الذي يقع المقهى في طرف منه، جمع من الناس، كانوا يزدادون في العدد بمعدّل سريع. انتهزت فرصة هذا الزحام المفاجئ، لدفع حسابي في المقهى، ثم لأهرب من الأطفال وأتخلّص من ملاحقتهم، بينما أنظارهم موجّهة إلى كتلة الزحام، بالاندساس داخل كتلة الزحام من ناحية، والخروج من كتلة الزحام من ناحية أخرى. بدا لي أن الأطفال يتحاشون الدخول في هذه الكتلة. ظهرت مجموعات أخرى من البشر القادمين من جهات أخرى بالمدينة، متّجهين نحو كتلة زحام هذا الميدان.

يبدو أن أغلب هؤلاء الناس هم من المهاجرين. يبدو هذا بوضوح في ملامح وجوه بعضهم، وفي شعث ثياب بعضهم الآخر. كانت هناك نداءات بالتجمّع في وسط المدينة قد انطلقت من أركان المدينة. من هؤلاء بالضبط وماذا يريدون؟ رغم أنه كان في نيّتي حضور هذا اللقاء الشعبي، إلا أنني فضّلت العودة إلى سفينتي تحسّبًا لأي صدام قد يحدث بين المتظاهرين والشرطة المحلية.

الميناء هو مكان سريان ماء/ لا تكبّله أي قيود

كان المهاجرون المساكين يتوقّعون/ أن تأتي إليهم السلطات تنهي إجراءاتهم على ظهور سفنهم

إلا أن السلطات تركتهم يغادرون سفنهم/ ويصلون إلى رصيف الميناء في قوارب صغيرة

ثم بدأت السلطات تدفعهم دفعًا عنيفًا في ظهورهم/ ليسقط بعضهم فوق بعض

فلو أن الميناء هو وجه بشري/ قد تعتقد أنه يبتسم لك أيها الغريب

إلا أنك إذا دقّقت النظر وجدت/ أن لهذا الوجه عينًا مريضةً وأخرى مفقوعةً

ثم إن الرافعة المعدنية العملاقة الموجودة على الرصيف/ تنحني في اتجاه سفينة تفرغ شحنتها

تبدو كما لو كانت مدفعًا حربيًّا/ موجّهًا نحوك

لإطلاق قذائف بعيدة المدى عليك

(٤)

وهكذا فقدت نهارًا كاملًا من حياتي في لاكورونيا. هذه المدينة التي هي مثال صارخ لمجد إسبانيا التليد الذي انقلب إلى خزي وعار. هذه هي المدينة التي شهدت المرحلة التي ورث فيها بيكاسو، ملك فنون التصوير المعاصرة، عرش فنون التصوير من والده. الإرث الملكي الذي انتقل لحظة التنازل عن العرش، إلى الابن الذي ورث إمبراطورية لا تشرق عليها الشمس. الابن الذي رغم أصوله الإسبانية سيصبح منحطًّا متفسّخًا.

t.me/qurssan

تمكنت من العثور على كل التضاريس النفسية لبيكاسو في كتاب للمؤلف جام سابارتيس Sabartes، الذي يحكي فيه بالتفصيل عن المرحلة المبكّرة من حياة دييجو بابلو بيكاسو، الذي كان قد استلم في خلالها، من والده دون خوزيه رويز بلاسكو، فرشاته وريشاته وألوانه وأقمشة لوحاته، سنة ١٨٩٤ حين كان في الرابعة عشرة من العمر.

لو كنت قد عرفت بوقوع هذا الحادث في حينه، لكنت قد ذهبت للبحث عن عنوان المنزل، في رقم ١٤ شارع بايو جوميز، وصعدت فيه إلى الطابق الثاني، الذي يمكننا اليوم أن نجد فيه مكتبًا لتجارة الطيور، وهو نفس الطابق الذي كان فيه قبل خمسين عامًا، الشقّة التي أقامت فيها عائلة بيكاسو.

هكذا يصف سابارتيس منظر التنازل عن العرش. يقول: «يجب أن نستعين بعلوم الإبليسيّات لمعرفة ماذا حدث في ذلك اليوم، حين قام الأب والأم تحرّكهما مشاعر غريبة، وبإيعاز من قدّيسين رعاة، بتعميد الكاثوليكي الصغير، شيطانًا مجسّمًا لفنون التصوير المعاصرة، ورجلًا مهووسًا مسكونًا بالأرواح». الكتاب بعنوان [بيكاسو.. وجوه وذكريات] بقلم جام سابارتيس، الناشر لويس كاريه، وقد صدر في باريس سنة ١٩٤٦. وهو كتاب مسلٍّ جدًّا ومثير للدهشة، وسأختصر لكم هنا بعض السطور التي جاءت في الفصل الأول منه.

«نعرف كلنا أن بيكاسو قد ولد في جزيرة مالاجا الإسبانية يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٨١، حيث كان والده قد قبل وظيفة مدرس رسم في مدرسة الفنون والصنائع، بغرض الحصول على تأمين مادي لحياته

هو وأسرته، عن طريق الحصول على وظيفة ذات مرتّب ثابت ومعاش تقاعد. أمكن للوالد أن يحصل كذلك على وظيفة ثانية تشغل بقية وقته، إذ عمل أمينًا لمتحف المدينة للفنون الجميلة. بهذه الصفة كان مسئولًا عن ترميم اللوحات التالفة، أو تلك التي كانت على وشك التلف».

«حدّثني بيكاسو عن تلك الفترة من حياته، وحكى كيف أن والده كان يذهب إلى أتيلييه/ ورشة المتحف تقريبًا كل يوم، ليعمل في رسم لوحاته أو في ترميم لوحات الآخرين. كان المتحف مغلقًا أمام الجمهور أغلب الوقت. كان الأتيلييه هو حجرة مثل بقية حجرات المتحف، وكانت أكثر قذارةً من أتيلييه والدي في شقتنا، لكن لا شك في أنها كانت أكثر هدوءًا، لذلك كان والدي يفضّل العمل فيها عن العمل في المنزل.

«اشتهر والدي برسم لوحات للزبائن حسب الطلب، وكانت له سمعة جيّدة في رسم لوحات تعلّق على جدران قاعات الطعام وغرف المائدة، وكنا نرى بها حيوانات مذبوحة ذات وبر مثل الأرانب البرّية والمنزلية، وحيوانات ذات ريش مثل طيور الحَجَل والحمام. تخصّص بعد ذلك في رسم لوحات الزهور مثل الليلا والطيور مثل الحمام. هناك كذلك لوحات لبعض الحيوانات الحيّة مثل الثعالب».

«ذات يوم بدأ في رسم لوحة قماشية هائلة الحجم، لقفص به عدد كبير من طيور الحمام، الذي يقف في طوابير داخل القفص في الأماكن التي أعدّت لوقوفه. وصل عدد العصافير إلى بضع مئات، وأكاد أجزم أن العدد قرب نهاية اللوحة كان قد تعدّى ألف طائر. كانت الطيور مرتّبةً في صفوف تبدو كما لو كانت بلا نهاية. هذه اللوحة اقتناها متحف مالاجا،

t.me/qurssan

وعلى حد علمي لا تزال تعرض به ضمن مجموعته الدائمة، ذلك رغم أنني لم أزر هذا المتحف منذ سنوات بعيدة».

(٥)

«في منتصف سبتمبر من عام ١٨٩١، وكان بيكاسو صبيًّا في العاشرة، غادرت الأسرة مالاجا، وانتقل للإقامة في لاكورونيا. كانوا خمسة أشخاص، الأب والأم والصبي وفتاتان هما أخته الكبرى لولا والصغرى كونسبسيون. يمكننا أن نقول إن الأب دون خوزيه قد ترك خلفه في مالاجا متعة التصوير، واللذة التي كان يجدها في رسم اللوحات. فحتى لو أنه بعد ذلك كان قد رسم بعض اللوحات، فإنه كان قد فعل ذلك دون حماس».

«يقول بيكاسو إن الأب في لاكورونيا لم يعد يخرج من المنزل، إلا للذهاب إلى عمله كمدرّس رسم في مدرسة الفنون والصنائع، ثم عند عودته يقضي كل الوقت جالسًا أمام النافذة المفتوحة يشاهد سقوط المطر. لم يعد يخرج حتى ولو كان ذلك لمشاهدة حفل مصارعة الثيران. يبدو واضحًا أنه أصيب بحالة من الملل.

«كان لرسم اللوحات أن يسلّيه، إلا أنه لم يفعل. يبدو أن رسم اللوحات كان قد بدأ يسبّب له الإرهاق الجسماني. كان الأب في الثالثة والخمسين عند الانتقال إلى لاكورونيا. فإذا كان بين وقت وآخر يمسك بريشة، فإن ذلك لم يكن إلا لرسم حمامة. لكنه لم يعد لديه الصبر اللازم لإنهاء كل تفاصيل لوحاته عن طيور الحمام، ثم أصبح من المعتاد أن

يترك رسم قوائم الحمائم الأربعة لبابلو».

- كيف كنت تفعل ذلك؟

- كان أبي قد قطع قوائم حمامات ميّتة، وعلّقها بدبابيس على لوح خشبي، في أوضاع مختلفة. كنت أقوم أنا بنقل ما أراه أمامي بدقّة شديدة. حتى استطعت أن أحصل على رضاه.

في النهاية هجر دون خوزيه الرسم تمامًا. ولماذا لا يفعل وقد أصبح بابلو جاهزًا ليحلّ محلّه. «عندئذ أعطاني والدي، الذي كان في السابعة والخمسين، ألوانه وريشاته، لم يعد بعد ذلك أبدًا إلى الرسم».

هذه هي واحدة من قصص الصراع الدائم المستمر بين أجيال الآباء وأجيال الأبناء. على الأقل فإن هذه القصّة انتهت نهاية حسنة لاتفاق الطرفين على الهدف. أما أنا بلاز سُندرار ففي سن الرابعة عشرة، حصلت على طقم سكاكين مطبخ أمي، بغرض الدفاع عن النفس عند الحاجة إليها، إذ كان اتجاهي الطبيعي هو إلى مغامرات السفر، واللعب بالبيضة والحجر.

ومع ذلك يمكنني أن أقول إن والدي سندرار كان من بين أفضل الآباء في العالم. فرغم أنني منذ غادرت منزل الأسرة وأنا في السابعة عشرة من العمر سنة ١٩٠٣، إلى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، لم أعد أبدًا خلال خمسة عشر عامًا إلى منزل الأسرة لرؤية والدي، فإنه رغم ذلك ظلّ يبحث عني، حتى وجدني في المستشفى العسكري، حيث كانت قد أجريت لي جراحة بتر ذراعي الأيمن، بسبب حالة من التهتّك الشديد، إثر إنفجار قنبلة فيه. عندما جلس على حافة فراشي ونظر إليّ دون أن يقول شيئًا، اخترقت دمعة كبيرة تجاعيد وجهه. لن أذكر أي شيء آخر في هذا الموضوع.

t.me/qurssan

٥- حكاية هندية

هذه هي قصّة أحد الرجال الذين اقتديت بهم في حياتي

(١)

أنظر عبر النافذة إلى أرصفة فينيسيا (البندقية) البحرية. أرى بعض الانعكاسات المخالفة للمألوف، على مياه البحيرة الشاطئية، وهي تلك المساحة من الماء شبه الراكد، التي تقع بين الأرض الجامدة والرصيف البحري، وتتصل بالبحر عبر عدد من الفتحات. هناك أرى عليها نصف انكسارات للضوء، وانعكاسات تتزحلق فوق أرضية مدخل مكتبة القدّيس مرقص العامة المصنوعة من الفسيفساء الرخامية. الشمس هي مثل لؤلؤة من عصر الباروك. الشمس تبدو خلف ضباب خفيف شفّاف رصاصي اللون، يرتفع خلف واجهات القصور الواقعة في صفّ واحد في مواجهة جبهة البحر. يعلن هذا الضباب عادة عن تقلّبات جوّيّة أو عن طقس رديء في عمق البحر، يتدرّج من رذاذ مطر خفيف، إلى أمطار غزيرة، والرياح الخفيفة قد تنقلب إلى عواصف.

أرى سفينة شراعية صغيرة، أمام دوجانا دي ماري في ميدان فاربيتو، هي سفينة وحيدة الصاري تستعدّ للإقلاع مبحرة في الماء. نحن في يوم

١١ نوفمبر سنة ١٦٥٣. كانت السفينة مبحرة في اتجاه آسيا الصغرى إلى ميناء سميرنا (أزمير)، ضاربًا ربّانها عرض الحائط بالتقلّبات الجوّية المحتملة، التي ينذر بها طقس البندقية. شاهدت من نافذتي اجتماع بحّارة السفينة، حول الصاري الوحيد في الوسط، وهم يتخّذون شكل دائرة حول شخص مربوط بالحبال إلى الصاري.

كانوا يضربونه بالحبال ضربًا بدا لي خفيفًا، كأنهم يعاقبونه فقط عقابًا شكليًّا. كان المعاقب شابًّا صغير السن، يبدو لي أنه لا يتعدّى الرابعة عشرة. عرفت لاحقًا أنه حاول الهروب إلى بطن السفينة قبل إبحارها، ليسافر خلسة ثم يظلّ مختبئًا لحين وصول السفينة إلى وجهتها. اكتشفه حرس الميناء أثناء تفتيشهم الدقيق عن الممنوعات التي قد يفكّر بعض ربابنة السفن في تهريبها.

عند اكتشافه اقتاده الحرس إلى ربّان المركب، الذي صاح في بحّارته: «عاقبوه بعشرين ضربة على ظهره بالحبل المفتول». وكما تظاهر البحّارة بالضرب الشديد، تظاهر الصبي بأنه يتألم ألمًا مبرِّحًا، حتى أن مسافرًا آخر ظهر فجأة على سطح السفينة، اضطر إلى التدخّل قائلًا إن الصبي هو خادمه الخاص، وإنه مستاء بشدة لهذه المعاملة السيّئة. لم يكن هذا المنقذ إلا هنري بارد الذي يحمل لقب (فيكونت منطقة بلمونت **Belmont**)، وهو الممثل الشخصي لملك أسكتلندا شارل الثاني، وسفيره فوق العادة إلى بلاط شاه فارس، وبلاط إمبراطور الهند.

كان شارل الثاني قد فقد عرش بلاده أسكتلندا، ويعيش مؤقّتًا منفيًّا في باريس، لكنه كان لا يزال يعامل من ملك فرنسا معاملة ملوكية، سمحت

t.me/qurssan

له بالإقامة في قصر اللوفر في باريس، الذي لن يتحوّل إلى متحف للفنون الجميلة وللآثار إلا في بداية القرن التاسع عشر. كان شارل الثاني يطمع في معاونة ملوك الشرق له على استعادة عرشه، وذلك بتوقيع اتفاقية تعاون عسكري، أو على الأقل يقرضونه بعض المال لمحاولة تسليح بعض قوّاته.

(٢)

بعد مرور خمسين عامًا هذه الواقعة، وهو ما يعني حوالي سنة ١٧٠٣، نجد مغامرًا عجوزًا، في منتصف عقده السابع، من أصول إيطالية بندقية، قد وصل إلى الهند قادمًا من فارس، بعد سلسلة من الرحلات المتواصلة بين البلدين، أمضى خلالها حوالي خمسين عامًا من عمره، وهو يجرّ قدميه من مكان إلى آخر، منتحلًا مرةً بعد أخرى صفات ونعوت متغيّرة، عند انتقاله بين بلدٍ وأخرى.

وقد خدمته في تلك الأزمان انعدام أو شبه انعدام وسائل الاتصال والتواصل، فهو

أولًا: في البداية عرف بصفته مورّد أسلحة لمدفعية جيوش الإمبراطور أورانجزب **Aurangzeb**، وهو إمبراطور هندي اشتهر بكونه فاتحًا ومهاجمًا.

ثانيًا: عرف بصفته مورّد أسلحة لمدفعية جيوش غرمائه، من أمراء ومهراجات الإمارات والمقاطعات الهندية، الذين رغم انتمائهم بالدم إلى أُسرة الإمبراطور، كانوا قد بدأوا في محاولات التمرّد على سلطانه أو

الانشقاق عليه، محاولين أن يعلنوا انفصالهم بإماراتهم عنه.

ثالثًا: هو يتبع خُطَى باسانت (Bassant)، في محاولة الحصول على الحظوة لذى الأمير ابن الإمبراطور ووريثه على العرش، فيصل فعلًا بتلك الحظوة إلى أن يشغل منصب قائد مدفعيّته، بمرتب شهري ثمانين روبية.

رابعًا: يُرْفَت من هذا المنصب، فلا يجد مكانًا له كمأوى، إلا على الساحل الغربي لشبه القارة الهندية، محاولًا أن يستمر في اللعب بالبيضة والحجر، بالعمل في الموانئ التجارية التي أنشأتها لنفسها هناك أغلب الدول الأوروبية، فيعمل وسيطًا تجاريًا، ثم مترجمًا بين اللغات الأوروبية واللغة الهندية، بين الأوروبيين من فرنسيين وإيطاليين وإسبانيين وبرتغاليين، الذين كانوا في ذلك الوقت يحاولون أن يحصلوا لأنفسهم على مقرّات ثابتة، على هذا الساحل.

خامسًا: يحاول أن يلعب دورًا إيجابيًا في حماية السلام الاجتماعي، في النزاعات والخصومات التي تقع بين التجّار العرب المسلمين من جهة، وبين الممثلين الرسميين للسلطات الهندية المحليّة من جهة أخرى، فهو كان قد أتقن العربية.

سادسًا: أغرب الأدوار التي لعبها صاحبنا البندقي، هو الدور الذي ادّعاه عندما ذهب إلى البلاط الإمبراطوري في دلهي، بصفته طبيبًا أوروبيًا، في محاولة لعلاج خرّاج كان قد أصاب أذن زوجة الإمبراطور. وقد تأكّدت صفته تلك كطبيب عندما نجح فعلًا في علاج السيّدة. بعد ذلك يقوم وليّ العرش بتعيينه طبيبًا خاصًّا للحريم السلطاني. يصبح البندقي صديقًا حميمًا لولي العرش.

t.me/qurssan

(٣)

من الغريب أن يترك البندقي بعد ذلك حياة الاستقرار والدعة، ليعود إلى المغامرات المحفوفة بالمخاطر، كأنه لم يكن يستسيغ الراحة الجسمانية، وكأنه كان يبحث دائمًا عن المخاطر (مثلي تمامًا). يذهب متخفيًا إلى العدو اللدود لولي العرش، في خيانة واضحة للصداقة الحميمة. يذهب إلى جاي سينج، الذي اشتهر في تاريخ الهند بأنه صاحب أكبر مجموعة من السيوف الضخمة، وأكثر الأمراء قدرة على استخدامها.

إلا أنه في نهاية المطاف يصيبه الإرهاق من حياة المعسكرات، غالبًا أنه سيكون في ذلك الوقت قد وصل إلى منتصف العقد الخامس من العمر، فيترك العمل لدى الهنود في جول كوند، ويذهب للعمل لدى البرتغاليين في جو- وا Goa. يحدث سنة ١٦٨٤، وبعد عدد غير معروف قدره من السنوات، أن يحصل البندقي على وسام الاستحقاق من ملك البرتغال، نظير الخدمات التي قدّمها لمملكة البرتغال. ثم يدخل في مضاربات مالية غير موفّقة، كان يعتقد أنه بها يستطيع مضاعفة ثروته، فإذا به يفقد ثروته.

بخصوص موضوع طقوس مالابار يتعارك مع اليسوعيين وينضم إلى خصومهم الكابوشين Capucines. وقد انتهى هذا الموضوع لاحقًا باعتبار أن طقوس مالابار، التي كانت قد دخلت في ذلك الوقت إلى الطقوس الكنسية لدى اليسوعيين، هي من بقايا طقوس وثنية، كان لا

يصح لها أبدًا أن تدخل الكنيسة المسيحية، رغم أن هذه الطقوس نفسها، كانت قد مرّت في إسبانيا أمام محاكم التفتيش دون أن تمسّ، لأنه لم يكن لديهم وقتها العلم الكافي لإدراك أصولها الوثنية.

ثم إذا به يتنكّر في زيّ الرهبان الكرمليت Carmelites، ويذهب متنكّرًا إلى بلاط لاهور، الذي كان قد سبق له العمل فيه كتاجر سلاح، فإذا بأمير بلاط لاهور يكتشف لعبته ويهدّده بالقبض عليه، وبإعدامه بقطع رقبته. كان هذا الأمير هو أول من اكتشف تلاعب صاحبنا البندقي. لهذا السبب قرّر البندقي أن يهرب من الهنود، محاولًا اللجوء إلى حِمى الانجليز، في قلعة القدّيس جورج الواقعة إلى الشمال من مدينة مدراس. هناك استقرّ إلى حين بصفته طبيبًا، تمكن من معالجة وباء الكوليرا، باستعمال مادة كاوية تستخرج من أحد أحجار جو- وا، المعروف باسم حجر القمر.

هذا بالإضافة إلى عمله كوسيط تجاري في تسويق مادة منشطّة جنسيًّا، كان يبيعها إلى أهل البلاد من الهنود. في ذلك الوقت تزوّج من سيّدة برتغالية كانت أرملة أحد المستوطنين الإنجليز. رغم الزواج يعود إلى التسكّع بين الإمارات الهندية، محاولًا تعويض ثروته الضائعة، مدّعيًا هذه المرة أنه المبعوث الشخصي لرئيس الشركة الملكية للهند الشرقية، وهو ويليام بيت.

t.me/qurssan

(٤)

لم ينكسر طموحه ودأبه المستمر وادّعاءاته المتتالية، من وسيط تجاري إلى عميل سرّي، ومن سفير فاشل إلى حامل فرمانات ملكية، معرّضًا نفسه دائمًا لاحتمالات أن يقتل بطعنة خنجر مخفيّ تحت طيّات ثياب، فكم كان هذا سهلًا وقتها. لم ينكسر طموحه إلا بعد أن أضابته الشيخوخة بالعمى. عندها قرّر أن يذهب إلى بوندي شيري على الساحل الغربي للهند، وهو اسم المرفأ البحري الذي أنشأه الفرنسيون هناك، حيث أقام في حِمى صديقه الفرنسي القديم فرنسوا مارتين، الممثل الرسمي لكولبير **Colbert**، وزير الملك لويس الرابع عشر. كان فرنسوا يشغل منصب رئيس الشركة الفرنسية لجزر الهند الشرقية.

هناك تعرّف صاحبنا البندقي على ديزلاند بورو، زوج ابنة فرنسوا، وهو نفسه المهندس المعماري الذي كان في ذلك الوقت مشغولًا بمشروع تأسيس مدينة هندية جديدة، على أحدث أنظمة تخطيط المدن في ذلك الوقت، ستعرف لاحقًا باسم شاندر ناجار **Chander Nagar**.

كانت قد نشأت صداقة بين المعماري الفرنسي الشاب وصاحبنا البندقي العجوز، مما حفّز البندقي على أن يروي للمعماري تفاصيل قصّة حياته، منذ اللحظة التي حاول فيها أن يهرب خلسة داخل بطن سفينة أحادية الشراع، وحتى اللحظة الراهنة، أي خلال حوالي خمسين عامًا، ضاربًا له أمثلةً استثنائيةً عن الكيفيّة التي أمكنه بها، النفاذ بجلده العديد من المرّات، من كل المكائد التي كانت قد دُبِّرت له، في كل تلك

الحروب والمغامرات والمنافسات والمؤامرات، التي خاض غمارها.

وهذا هو بالضبط ما حفّز المعماري لاحقًا على أن يطلب من البندقي أن يجلس في هدوء على مكتبه، ويمسك بأوراقه وأقلامه ويعيد رواية كل تلك الحكايات ولكن كتابةً، قائلًا له إن الساعة قد حانت أخيرًا ليطلع العالم كله، على تفاصيل هذه الحياة المضطربة التي عاشها. وهكذا إذن وَلِدَ المشروع الأول لكتاب السيرة الذاتية لحياة هذا البندقي. كلمة بندقي بالفرنسية وتكتب **benedictin**، تعني المبروك.

بفضل هذه الصداقة الوليدة، حصل البندقي من الملك لويس الرابع عشر، على كل قلادات الشرف التي كانت مملكة فرنسا، تتيحها في ذلك الوقت للرجال العظماء من أمثال البندقي، على خدماتهم التي قدّموها للبشرية بشكل عام، ولمملكة فرنسا بشكل خاص. ولهذا السبب وحده انتقلت إلى أرشيف المكتبة الوطنية في مقرّها بشارع ريشيليو **Richelieu** في باريس، مجموعة من الرسومات والمنمنمات **miniature**، والتصاوير الورقية بالألوان المائية أو بالزيت، التي تمثّل مواقف مختلفة من حياة البندقي، بريشة الفنّان المزخرف والرسّام الهندي المسلم المعروف وقتها واسمه مير محمد، وهي هناك تحت رقم **O.D.N. 45**.

(٥)

يظهر البندقي في هذه اللوحات، وهو يضع فوق رأسه عددًا من أغطية الرأس المختلفة الشكل، ويظهر في بعضها وهو في معيّة ملوك

t.me/qurssan

هنود ومهراجات، إمّا وهم يجلسون على عروشهم وهو يقف خلفهم، أو يجلسون على شرفات قصورهم يستقبلون الوفود، أو وهم في رحلة صيد والملك ينشغل بمداعبة بعض الحيوانات الأليفة، أو وهم على صهوات جيادهم في مقدّمة الفرسان متّجهين إلى قتال الأعداء.

تبدو خلفهم في الأغلب الأعم، على اللوحات الجدارية الأصلية، التي زيّنت قاعات هذه القصور الملكية، بعض الموسيقيّات والمغنيّات والمحظيّات، وبعض من نساء حريم السلطان، الواقفات على أقدامهنّ، أو الجالسات على ظهور أفيال ضخمة، وقد يظهر بين مشاة الحملة العسكرية، بعض الدراويش والمنجّمين الذين لم يكن للسلاطين غنى عنهم، لإبلاغهم أولًا بأول، بتطوّرات الأفلاك التي تسيّر المصائر.

يظهر بطلنا البندقي أحيانًا وهو يتحدّث إلى أحد اليوجيين من الجورو المقدّسين، أو وهو في زيارة أحد المعابد المقدّسة، منحنيًا أمام تماثيل آلهة المعبد من الأوثان. يظهر كذلك في لوحة بصفته طبيبًا أثناء قياسه النبض لأحد المرضى، وهو يمسك بين أصابعه بمعصم المريض، الذي يبدو من ملامحه بوضوح أنه أحد الأشخاص المحليين.

ثم هو يفتتح الكتاب الذي قرّر أن يعطيه العنوان (تاريخ المغول Storia do Mogor)، بهذه الجمل البسيطة:

«عندما كنت طفلًا كانت لديّ رغبة في الذهاب في جولة حول العالم، ولكن حيث إن والدي لم يكن يرغب في الإنصات إلى ما كنت أقوله، قرّرت أن أغادر البندقية مسقط رأسي دون علمه، بأيّ وسيلة وفي أول فرصة تتاح لي، وذات يوم كنت على الرصيف وسمعت بنبأ

استعداد سفينة للإبحار، إلى جهة لم أكن أعلمها، فتسلّلت إليها دون علم بحّارتها، ولم أكن إلا في الرابعة عشر من عمري، وقد حدث هذا منذ نصف قرن بالتقريب».

كان هذا الكتاب بدعة جديدة في نوعه. فتح هذا الكتاب الباب أمام نزعة الاستشراق لتصبح الصرعة المفضّلة لكل مفكّري أوروبا، في المدن الكبرى وفي بلاطات الملوك. كان نجاحه أبرز ما يكون في باريس، حتى أنه أعيد طبعه ست مرات بالفرنسية، بين عامي ١٧٠٥ و١٧١٥، ثم طبع في لاهاي بالأراضي الواطئة. إلا أن الطبعات المتأخرة ظهرت بعنوان جديد هو (التاريخ العام لإمبراطورية المغول).

إلا أن ما حدث بعد ذلك كان بشعًا، خيانة بشعة مجسّمة، إذ إن واحدًا من ألدّ أعدائه، ومن أكثر معارضيه لدى البلاط الملكي، الذي كان قد أصبح عدوّه اللدود، إثر جدل المفروض أن يكون علميًّا، نشب بينهما في مسائل لاهوتية يسوعية، وهو الأب اليسوعي فرانسوا كاترو، كان قد تمكن من انتزاع ملكية الكتاب من مؤلفه الأصلي، وانتحالها لنفسه، إذ لم يكن أحد يدقّق كثيرًا في مثل هذه المسائل، طالما أن صاحب الشأن لم يكن موجودًا. كانت هذه هي محاولة من كاترو للانتقام من صديقنا المغامر البندقي العجوز، الذي كان يعادي بشكل واضح طائفة اليسوعيين بشكل عام، وطائفة (رفاق يسوع) التي كان من ضمنها كاترو بشكل خاص.

t.me/qurssan

(٦)

كان البندقي قد أرسل المخطوط في عهدة أحد رجال البلاط الملكي، إلا أن الأب كاترو انتهز فرصة غياب المؤلف الأصلي، وعدم قدرته على مشاق السفر في ذلك السن المتقدّم، فاستغل نفوذه في إجبار دار الطباعة، على وضع اسمه هو على غلاف الكتاب بصفته المؤلف، مع ذكر عابر لاسم المؤلف الأصلي في المقدّمة، ثم إغفال اسم البندقي العجوز تمامًا في الطبعات اللاحقة.

لم يكتف الأب بهذا، بل إنه يتدخّل مرارًا في النصوص وينتهي إلى تشويه صورة الكتاب، بين إعادة صياغة بعض الفقرات، بحيث أفقدها مفردات المعجم الأصلي الفريد الذي استعمله البندقي، وبين إعادة ترتيب الفقرات، والمؤلف الأصلي يعيش في الجزء الأكثر بعدًا جغرافيًّا عن أوروبا، في الطرف المقابل لها من الكرة الأرضية، في البلاد التي لم تطأها قدم الأب كاترو، ورغم ذلك وجد في نفسه الوقاحة الكافية، حتى يدّعي كل هذا العلم بها، وبالتالي هو لم يدرك أبدًا حجم التشويه الذي أدخله على العمل الأصلي.

كان البندقي قد نجح في تصوير طبيعة جغرافية تلك البلاد، وفي تصوير أخلاقيّات أهلها، التي كانت في ذلك الوقت، شديدة الاختلاف عن طبيعة جغرافية بلاد أوروبا، وعن أخلاقيات أهلها. كان البندقي قد نجح في مهمته تلك، بمنتهى الحيادية والروح العلمية المجرّدة، والنوايا الحسنة. هذا بالإضافة إلى ما ذكره من تاريخ تلك البلاد في القرون

الماضية، ومن وقائع حياتهم السياسية والاجتماعية التي عاشها معهم واختبرها بنفسه.

إلا أن الأب كاترو -بتدخّله العقيم- لم يُبقِ من هذا العمل الروائي العظيم إلا على الخط الرئيس لتاريخ إمبراطورية شرقية عظيمة، والخط الموازي المعني بوصف أحداث التوسّع الإسلامي في تلك البلاد، من تامرلان **Tamerlan** إلى أورانجزب **Aurangzeb**، خلال ذلك الوقت من امتداد نفوذ الإمبراطورية العثمانية، دولة الخلافة الإسلامية.

لكن في الحقيقة كان الجزء التاريخي هو أضعف أجزاء هذا العمل الضخم، في حين أن الأجزاء الأكثر أهمية وإثارة كانت هي تلك التي قام الأب كاترو بحذفها، وهي أولًا تلك المتعلّقة بالأحداث والوقائع اليومية، وهي ثانيًا تلك المتعلّقة بالإحالات المتعدّدة إلى أقوال عظماء الأمّة الهندية، التي كان البندقي قد وضع منها صفحات كاملة في عمله الضخم.

ثم هي ثالثًا المتعلّقة بكل ما يمتّ إلى روح المغامرة، في الأحداث التي عاشها البندقي يومًا بيوم، معلّقًا عليها بملاحظات في منتهى الذكاء، خاصة فيما يتعلّق بموضوع الممارسات الدينية لتلك الشعوب، التي كان بعضها يمارس الوثنية، وبعضها الآخر يمارس الإسلام. في آخر نسخة تخلّص الأب كاترو تمامًا من كل مفردات اللغة والكلمات الموحية التي ابتكرها البندقي، بحيث تحوّلت لغة الكتاب في نهاية الأمر إلى المفردات العادية المألوفة التي كان يستعملها كل المؤلفين الآخرين.

هل تعمّد الأب كاترو أن يمسخ أسلوب البندقي؟ من الممكن بسهولة

t.me/qurssan

ملاحظة أن روح البندقي المغامِرَة، هي التي كانت تمنح النص أسلوبًا طازجًا مباشرًا تلقائيًّا، وهو في الحقيقة الأسلوب الأقرب إلى الأسلوب الذي استعمله في عصره، كل الرحّالة المغامرين من مستكشفي الأراضي الجديدة، الذين لم يكونوا يمتلكون تمامًا ناصية اللغة، بل كانوا يكتبونها تقريبًا بنفس الطريقة التي يتكلّمونها بها، بأسلوب بسيط لم يكن يدّعي لا الفصاحة ولا البلاغة، لكنه في المقابل كان لديه الكثير ليقصّه علينا.

في حين كان الأب كاترو دائم السخرية من أسلوب ضحيّته، أي مؤلفنا البندقي، الذي لم يكن قادرًا على إرضاء هذا الأب اليسوعي، الذي كان قد حصل على كل الثقافة الكلاسيكية الخاصة بعصره، وهي الثقافة التي تحتقر التجديد. رغم أن الأب كاترو قرب نهاية حياته، كان قد اعترف في مناسبات عدّة بأنه كان لدى بطلنا الذي سلبه عمله «شعاع من نار داخل روحه».

إنها نسخة الأب كاترو تلك التي أحاطتها الأوساط الأكاديمية في باريس بهالة من القداسة، فوجدت بالتالي طريقها بسهولة إلى القصر الملكي في فرساي، ثم ترجمت في ثلاث ترجمات مختلفة، من الفرنسية إلى الإنجليزية في سنوات ١٧٠٩ و١٧٢٢ و١٨٢٦، وإلى الإيطالية في سنة ١٧٣١.

في تلك الأثناء كان البندقي قد مات منسيًّا في الهند، تلك البلاد التي تعجّ بالحركة وتلتهم زائريها. كان من المعروف أنه قبل موته أدرك حيلة التزييف، التي لجأ إليها الأب كاترو، وكان قد سمعه المحيطون به في أيّامه الأخير، وهو يكرر مرارًا وتكرارًا عددًا من اللعنات، التي كان يصبّها

على رأس الأب كاترو بشكل خاص، وعلى رؤوس الآباء اليسوعيين كلهم بشكل عام، بسبب نفوسهم المريضة ونواياهم السيّئة.

(٧)

أمّا الذي لم يكن معروفًا إلا للخاصة، فهو أن البندقي قبل وفاته، كان قد قرّر إعادة كتابة عمله الضخم، مع ما يستلزمه هذا من عناد شديد وإصرار وعزيمة لا تلين. وقد استغرقه هذا العمل بضع سنوات كان قد وصل فيها إلى العمى الكامل، مما جعله يضطر إلى الاستعانة بسكرتارية، بها عدد من الكتبة المختلفي اللغات، لأنه لم يكن من السهل عليه دائمًا أن يجد في الهند -ذلك البلد الملعون- كتبة يجيدون الفرنسية أو الإيطالية أو البرتغالية.

ولهذا فإن النسخة الجديدة اشتملت على أجزاء مكتوبة بكل هذه اللغات، بالإضافة إلى أجزاء أخرى مكتوبة بالإنجليزية وبالإسبانية، كما أنها اشتملت أيضًا على إضافة العديد من الفقرات والمزيد من الذكريات، إلا أن الإضافات في أيّامه الأخيرة، اتسمت بقدر من الثرثرة المعتادة لمن هو في نهاية عمره، إذ لم يعد يملك لا وضوح الرؤية، ولا قواه الذهنية السابقة، التي كانت تلزمه لاستعادة التفاصيل.

استهلك هذا العمل كل طاقته الجسمانية والذهنية في سنواته الأخيرة، ولم يتوقّف عن الكتابة حتى اليوم الذي لفظ فيه أنفاسه الأخيرة، وقد أنفق آخر فلس -أو روبية- لديه على أجور الكتبة. لم يكن اهتمامه في اختيار الكتبة منصبًّا على ثقافتهم أو على درجة تعليمهم، بقدر ما كان

t.me/qurssan

مهتمًّا في الحصول عليهم، من بين من كانوا يحملون جنسيّات أوروبيّة، وقد يكون هدفه من ذلك، هو مساندتهم له في أوروبا عند عودتهم النهائية إلى ديارهم. كان قد فقد ثقته تمامًا في المثقّفين الأكاديميين.

أرسل البندقي هذه النسخة إلى أمراء بلاط البندقية، وإلى أعضاء مجلس الشيوخ (السينات **Senat**) لمدينة البندقية، مذكِّرًا إيّاهم بأن البندقية هي مدينة مسقط رأسه، وبأن إيطاليا هي وطنه الأصلي، متوسِّلًا إليهم أن يسعوا جاهدين إلى طبع الكتاب باسمه هو، لا باسم الدعيّ الملعون كاترو، الذي اغتصب مجهوده، ملقِّبًا نفسه بـ(طفل الجمهورية الإيطالية).

وقع البندقي ميّتًا سنة ١٧١٧، وهو يقترب من سن الثمانين، وفي أيامه الأخيرة كان دائم الشكوى من الفقر والعوز، ومن عدم قدرته على سداد الديون التي تراكمت عليه، حتى أنه وجد في هذا الفقر مبرِّرًا كافيًا لعدم إقامة قدّاس جنائزي لزوجته المتوفّاة، ومبرِّرًا كافيًا لطلبه من شركة الهند الملكية الإنجليزية -خلال الثلاث سنوات الأخيرة من عمره- أن تقوم بدلًا منه بدفع إيجار المنزل الذي كان يقيم فيه، إلى الشمال من مدينة مدراس **Madras** وخارج أسوارها، بين حديقة الفيل وحديقة مانتانجورا **Mantangora**.

كان هذا البيت يقع ضمن بعض البيوت الفقيرة المهملة والمتهدّمة، الأقرب في حالتها تلك إلى الأكواخ التي كان يقيم فيها أفراد من الطبقة الاجتماعية المنبوذة في الهند، الذين كان المجتمع الهندي في ذلك الوقت، يعتبرهم من المحتقرين غير الجديرين بالسكن مع بقيّة البشر

داخل أسوار المدن.

رغم كل هذه الظواهر التي تدل على فقره الشديد، إلا أنه بعد وفاته ترك ثروة تقدّر بحوالي ٣٠٠ ألف باجود، وهي وحدة نقد استعملت في الهند، وهو المبلغ الذي يساوي -وفقًا لتقرير أصدره أرشيف مكتب الهند- حوالي عشرة آلاف جنيه استرليني. في ذلك الوقت كان هذا المبلغ يسمح بشراء قصر في ضواحي لندن، مع ما يلزمه من خدم وحشم.

إن قيام شركة الهند الملكية الإنجليزية بدفع قيمة إيجار المنزل، هو الدليل على أن مديري هذه الشركة، كانوا قد أدركوا قيمة هذا الرجل العجوز المتفرّد، وقيمة العمل الذي كان هو في سبيله إلى القيام به، رغم أن هذا الرجل كان دائم الشكوى والاحتجاج والتمرّد، ولم يكن بشكل خاص يحب الإنجليز، رغم أنه خلال فترة من حياته، كان مخلصًا للإنجليز، فقط لإرضاء ذكرى الرجل الدبلوماسي الإنجليزي، الذي كان قد أنقذه من الضرب، على ظهر السفينة لحظة إبحارها من أمام رصيف ميناء البندقية.

(٨)

ظلت الأوضاع على ما هي عليه، لمدّة حوالي قرنين من الزمان، ثم حدث سنة ١٩٠٧، وبفضل مكتب الهند الذي كان في سبيله إلى إزاحة الغبار عن بعض ملفاته، أن تمكّن الجمهور المثقّف في أوروبا من إدراك حقيقة التزييف الذي حدث للمخطوطة الأولى لهذا البندقي. تمكن الجمهور الأوروبي من قراءة (تاريخ المغول) في نسخته الثانية المزوّدة

t.me/qurssan

التي وضعها البندقي قبيل وفاته، وأرسلها إلى مجلس الشيوخ في مدينة البندقية، وهي النسخة التي على ما يبدو كانت قد تجاهلها أعضاؤه.

أخيرًا تمكّن الجمهور الأوروبي المثقّف من مقارنة نسخة البندقي بالنسخة المزوّرة للأب كاترو. هنا أدرك الجميع حقيقة قيمة الرجل. ظهرت طبعة سنة ١٩٠٧ في أربعة مجلّدات، مزيّنة بالرسومات والمنمنمات بريشة الفنّان مير محمد، ولكن فقط باللونين الأبيض والأسود، في سلسلة النصوص الهندية **Indian Texts Series**، التي كانت في ذلك الوقت تطبع بشكل دوري في لندن، لدى الناشر جون موراي **John Murray**.

وأنا أنتهز هذه الفرصة لأشكر هذا الناشر على شجاعته أولًا، وعلى وعيه وحسن إدراكه لقيمة هذا العمل ثانيًا، وعلى قدرته ومثابرته في البحث عن كل النسخ المتاحة من هذا النصّ ثالثًا، بين مكتبات أرشيف الهند، ومكتبة كونيجليش **Koenigliche** في برلين، ومكتبة القدّيس مرقص في البندقية.

أما فيما يتعلّق بتصاوير مير محمد، فإنها كانت قد انتقلت من البندقية سنة ١٧٩٧، أثناء حملة بونابارت على إيطاليا، إلى فرنسا حيث تمّ الاحتفاظ بها كغنيمة حرب، في مكتب إيستامب **Estampe** في باريس، وهو مكتب حفظ كل أنواع الوثائق والمخطوطات والرسومات اليدوية. أشير مجدّدًا إلى حجم معاناة هذا الناشر، الذي تمكن من دراسة كل هذه الوثائق ليخرج لنا منها أفضل ما فيها، بعد أن كرّس كل وقته وجهده في سبيل تحقيق هدفه. هكذا ينبغي أن يكون الناشرون وإلا فلا.

هنا لم يعد متبقيًا إلا الإشارة إلى ويليام إيرفين William Irvine، وهو ناشر آخر حديث، عمل موظّفًا في مكتب الخدمات المدنية لإقليم البنغال، تحت الإدارة الإنجليزية، حتى وصل إلى سن الإحالة إلى المعاش، فقرّر أن يكرّس هو الآخر عشر سنوات من عمره، بين الستين والسبعين، في عمل نفس الشيء الذي سبق وأن قام به موراي، في جمع كل ما أمكنه جمعه، من مخطوطات وطبعات لهذا العمل، دون تنسيق بينهما، وإنما فقط بغرض التأكيد على دقّة النتائج التي كان قد وصل إليها موراي.

في الحقيقة هناك ميزة تمتّع بها عمل إيرفين، بالمقارنة بعمل موراي، وهي ثقافة إيرفين الواسعة التي مكنته، من إضافة ما لا حصر له من ملحوظات وهوامش، على المتن الأصلي، لشرح كل ما يتعلّق بجغرافية الأماكن الواردة في النصّ، والتاريخ الخاص ببعض الأشخاص.

t.me/qurssan

المغـــامـــرة

تبدأ أحداث رواية (المغامرة) في الوقت الذي كنتُ لا أزال فيه طفلًا ومراهقًا في نابولي بإيطاليا، ثم تلميذًا مُسجَّلًا في المدرسة الدولية بسويسرا، ثم طالبًا مُسجَّلًا حتى العام الرابع بكلية طبّ برن. ومن المفترض أنني كنتُ متابعًا للدراسة هناك، ولكني بدلًا من ذلك تركتُ الدراسة وأصبحت دائم التنقُّل، بين باريس ولندن وبرلين، حيث كانت لي دائمًا في كل هذه المدن الأماكن اللازمة للإقامة. حتى حدث ذات صباح أن أخذتُ القطار إلى سانت بترسبورج، فتغيّرت حياتي بالكامل. المشكلة هي أن كل شيءٍ في هذا العالم كان قد بدأ يثير اهتمامي، خاصة عالم الشرق الأقصى.

من روسيا ذهبتُ إلى الصين سنة ١٩٠٤، ومن الصين ذهبتُ إلى فارس، دون أي إحساسٍ بأي عوائق تمنعني من حُرِّيَّة الحركة. حدث في روسيا أن نجحتُ في جمع مليون دولار، المليون الأول، من العمل في تجارة المجوهرات، وهو المليون الذي أنفقتُهُ لاحقًا على استئناف رحلاتي حول العالم، وعلى حياتي الصاخبة في الملاهي الليلية في عواصم العالم، نيويورك.. ساوباولو... طوكيو... هامبورج. عندما أفلستُ، لم أجد إلَّا العمل كبحَّار على المراكب التجارية، لإشباع رغبتي في السفر، دون دفع تكاليف السفر، حيث إنني لم أعد أبدًا قادرًا على أن أُخضع نفسي لنظام عمل واحد في مكان واحد، أذهب إليه كل صباح، وأعود منه كل مساء.

ISBN 978-977-765-144-8

9 789777 651448

آفاق للنشر و التوزيع
AFAQ BOOKS